أول أكتوبر سنة ١٩٣٢
جمادى الثانية سنة ١٣٥١

المعرفة

الجزء السادس
السنة الثانية

مجلة — شهرية — جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولى

المجلد الثالث　　شعارها : اعرف نفسك بنفسك　　العدد ١٨

فـــــؤاد الاول

الشخصية الكاملة

عيد الجلوس

يحتفل المصريون فى اليوم التاسع من شهر أكتوبر بعيد الجلوس الملكى ، ويساهمهم الحفاوة بهذا العيد كل مصرى يعيش فى أى جانب من جوانب الأرض ، وكل شرقى يؤمن بزعامة مصر على جاراتها فى الشرق ، وكل عربى أدركته سعادة الحياة ، فهيأت له — فى فترة من حياته — أن يكون من أولئك الذين تظلهم سماء مصر الصافية ، ويقلهم أديمها الخصيب .

ومن حق عيد الجلوس الملكى أن يثير البشر فى هذه الجوانب ، وأن يطلق الغبطة على تلك النفوس ؛ وأن يكون له صدى فى كل بقعة من الأرض ؛ ومن حقه إلى ذلك أن يكون منار بحوث ضافية يزجيها الباحثون حديثاً مستفيضاً إلى الأجيال الآتية ، حتى يدرك الأحفاد كيف استطاعت مصر — فى كنف صاحب العرش العظيم — أن تتزعم الشرق العربى كله ؛ وأن تكون لها السيادة الروحية على شعوبه وممالكه ؛ ثم ليدرك الأحفاد أيضا جلال النهضة التى حمل المليك لواءها الخفاق ، ومضى به فى طليعة شعبه ليبلغ الأوج ، وينتهى به إلى صميم المجد والفلاح .

والواقع أن الباحث حين يريد أن يتأثر تلك العوامل التى يخلقها « عيد الجلوس » ليصورها ويسجلها — وهى عوامل فيها ما فيها من خير — إنما يرى لزاماً عليه أن يستهل القول بتصوير

تلك الشخصية الكاملة - شخصية المليك العظيم - لأنها فى الحق تمثل الروح التى تنفح المصريين بالحياة ، وتمثل القوة التى تجابه بها مصر ألوان الصعاب - فى صراحة وصدق - حتى تقهرها وتتغلب عليها ، وتنتهى منها إلى الفوز المبين .

الأمير فؤاد

هيأت الأقدار السعيدة - فيما هيأته - لصاحب الجلالة أن تكون صلته بالشعب قائمة على دعامة من الخبرة والمعرفة الصادقة الصحيحة ، فكان أميراً يتابع الصلة بالخاصة والكافة معاً ، ويتخير من أولئك وهؤلاء من تتصل نفوسهم بالعلم ، ومن يتشحون إهاب الخلق القويم ، والكرامة الصحيحة .

فلم يكن مجلس « الأمير فؤاد » يخلو من عالم جهبذ ، أو أديب سرى القلم ، أو بحاثة متوقد الذهن ، أو محدث سليم القريحة حاضر البديهة ، أو منقب عن حقيقة علمية يعمل جهده فى سبيلها ، كذلك لم يكن ليأنس من باكورة حياته إلا إلى أولئك الذين يعملون للجماعة راضين غير متبرمين ، باذلين غير قانطين ؛ وفى هذا كله سر ما أودع فى نفسه الكبيرة من حب للعلم وصداقة للعلماء .

وإذا كانت صداقة العلماء تثير فى النفس شيئاً ما ، فالحق أنها تثير فى النفس حب « الديمقراطية » ، وتثير فيها الترفع عن مساوىء المجتمع ، ولقد نشأ « فؤاد » أميراً ديمقراطياً لا تتعجل نفسه السبيل إلى الكبرياء ، ولكنه احتفظ بعنصر النبل التليد ، فبقيت له روح صافية كالضوء ، ولكنها متى امتحنت فى حلبة الكرامة كانت صارمة آسرة ، قوية جبارة ، شديدة المراس .

ولقد خرج « فؤاد » عن طوق الإمارة ، وأتاحت الأقدار السعيدة لمصر أن يكون على أريكة العرش سلطاناً فملكاً ، فلم تتحور له ظاهرة من ظواهر حياته الجليلة ؛ وإنما بقى له هذا الخلق الرضى ، وتلك الديمقراطية الرائعة ، وهذا الحب البالغ للعلم والعلماء .

الملك العامل

ولقد احتفظ جلالته بهذه الميزة التى درجت معه من المهد - ميزة العلم والدأب - فلم نعرف له ساعة من هذه الساعات الضائعة التى يذكرها الذاكرون عن لهو الملوك ومجونهم ، أو حبوهم للنادرة والمتندرين ، وإنما عرفنا أنه واحد الجادين الذين يتناولون كل شىء بمقدار ما تحتمله طبيعته ؛ وما نحسبنا بالمسرفين فى القول ، ولا بالناشرين لشىء مجهول ، حين نقول عن جلالة المليك : إنه يدع فراشه قبل أن تستيقظ الشمس ، وإنه يبدأ العمل فى مكتبه قبل أن تعمر الدواوين بصغار الموظفين ، وإنه حين يعمل رأيه السديد فى وجوه المسائل المنتهية إليه لا يترك الأمر الصعب باقياً على صعوبته وإعساره ، وإنما يقلبه فى جنبات ذهنه المدرك ، فإذا هو اليسر والسهولة ، وإذا بإعساره يذهب هباءً منثوراً .

وليس هذا الدأب فى جلالته مقصوراً على مسائل السياسة -على الرغم من صعوبتها- وإنما هو دأب يتناول كل مسألة ؛ فله قدرته فى مسائل الاجتماع ، وقوته فى فروع العلم ، وفتوته فى الفلاحة ، وحكمته فى كل جانب غير تلك الجوانب .

وأولئك الذين وقفوا من هذه الجهود الجبارة عن كثب ، يقولون عن جلالة المليك إنه قلما يواتيه الهدوء الشامل يوماً بأكمله ؛ ذلك لأن جلالته لا يدع من مسائل الحياة مسألة واحدة دون أن يقلبها على وجوهها الكثيرة ؛ ولأنه -إلى ذلك- لا يحمد تأجيل عمل اليوم إلى الغد ، وإنما يلابس عمله الجيد فى ميقاته المحدود .

الملك الديمقراطى

ولقد حدثناك عن ديمقراطية المليك أنها ميزة من ميزاته التى عرف بها منذ كان أميراً يتصل بالخاصة ، ويدرس بالخاصة الكافة على ضوء اختبارات لا أثر فيها للحدس والتخمين ؛ ونذكر لك الآن أن جلالته طالما فاخر بهذه الميزة ، وكثيراً ما تحدث بنعمائها عليه ؛ فقد تحدث جلالته إلى المؤرخ الألمانى الذائع الصيت (أميل لدويج) ، ونشر المؤرخ حديث جلالته ؛ فإذا بالدنيا كلها تعلم عنه أنه « ملك يقدس الديمقراطية » ، ويرى فيها الحياة السعيدة لجميع الشعوب .

وإذا كانت كلمات جلالته الناطقة بحبه للديمقراطية قد أتاحت للعالم أن يعرف له هذه الميزة النافعة ، فإن هنالك ألواناً أخرى تظهر فيها ديمقراطية جلالته ، وقد بلغت الأوج . . ففى تحياته للشعب حين يطلع عليه فى إحدى المناسبات ما يقهر طبيعة التجهم المألوفة فى غيره من الملوك ، وفى مساهمته بالحدب على عظماء أمته وعلمائها الأفذاذ حين تتناولهم الكوارث ، أو تصيبهم أرزاء الزمن ، ما يحقق لنا أن لجلالته قلباً يجمع إليه عواطف النبل كله ، وأن له حساً تحتشد إليه ظواهر الرقة بأجمعها ، وهذه العواطف قلما يحتملها من لم يلتئم إحساسه مع الجماعة ، وقلما يستطيبها المتعجرف الجبار .

عاطفة البر والرحمة

إن الرحمة متى لقيت طريقها معبَّداً إلى نفوس الملوك ، كانت رحمة ممتازة لا تنفح التافه ، ولا تدع فى اليد غُلا يغلها عن البسط والبذل الكريمين .

ولقد طالما لمس الشعب من رحمة المليك وحدبه ، ما فيه غنية عن القول والتسجيل ، بل إنه لحق أن نقول بأن عاطفة الرحمة فى جلالة الملك قلما تجد لها نظيراً بين أنداده ، فأولئك الذين برزوا إلى المجد العلمى وانتهوا منه إلى الرمس فقراء ؛ بل أولئك الذين قعدت بهم الدنيا عن رؤية ألوانها المشرقة ، كثيراً ما حور المليك من بأسائهم ، وكثيراً ما دفع إليهم سيلا من البشر ، وكثيراً ما غمرهم فى عباب من رغد العيش ، وهناءة المقام .

ولسنا نحدثك كيف يكون الفيض حافلا ، ولا كيف تكون الرحمة كالديمة الواطفة، ولكن المآثر التى ذاعت عن جلالته تحدثك بأنه لم يرض لكرامة العلم أن تهون فى بيت المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، إثر انتهائه إلى جوار ربه ، وإنما أقام جلالته لهذا البيت سناداً من الحياة ، هو هذا السناد الذى طوح بعوامل اليأس الكامن فى نفوس أسرة عاش عائلها للعلم والبذل ، ومات دون أن يبقى له من المال ما يحمل جثمانه إلى قبره .

بل ما لنا نذكر الرحمة فيما يلابس المصريين خاصة . . ؟ إن فى حدب المليك جانباً انسانياً يشمل العالم بأسره ؛ ففى الساعة التى انقرضت فيها عاصمة اليابان ، ومادت فى جوف الأرض إثر الزلزال الهائل الذى نكبت به عام ١٩٢٣ . . فى هذه الساعة كانت الدنيا كلها تبكى فجيعة البلد الشرقى المنكوب... أترى أن جلالة الملك قد اكتفى بالعزاء المألوف؟لا ! إنه حفظه الله لم يجد من نفسه الكبيرة إلا أنها صميم البر والرحمة ، ولم يتسمع منها إلا كلمة البذل ، فإذا بيده الكريمة النفاحة تزجى إلى المنكوبين ما عوض عليهم هدوءً مفقوداً ، وما حقق لهم رغداً منشوداً .

وأولئك الذين يتصلون بالقصر الملكى ، ألا دعهم يتحدثون إليك عن هذه العطايا المستورة التى يفتح بها جلالته أبواب الضوء لمن غمرتهم الحياة بالقتام ؛ فإنها من الكثرة حتى لتضل نفسه فى حصرها الأقلام والأفهام .

الدين والملك

وإنه لمن خير مصر، بل إنه لمن خير المسلمين جميعاً ، أن يكون جلالة المليك المعظم من أولئك الذين يجد الدين مستقره فى طوايا نفوسهم، ومنزلته فى شغاف قلوبهم، ومقامه فى قرارة أفئدتهم ؛ فجلالته حفيظ على شعائر الاسلام من أن يتجه إليها سوء ، أو يصيبها انحلال ؛ ذلك لأن فى الكبيرة إيماناً عميقاً ، ويقيناً وافراً .

وليس ثمة من دلالة أبلغ على تحقيق قوة النزعة الدينية فى جلالته من هذه اليد التى يشيد بها من صرح الاسلام كلما دعت الظروف الملابسة إلى تشييد صرح جديد ؛ فقد كانت هذه اليد الجليلة موفورة السخاء يوم دعى الداعون إلى تجديد المسجد الأقصى ؛ ويوم تحدث المتحدثون بأن طوارىء الحدثان قد ألقت مراسيها على المسجد النبوى فى المدينة، فكانت يداً موفورة السخاء ، لأنها وضعت الدعامة لمسجد القدس ، وأزاحت عوامل الفناء عن مسجد الرسول الكريم .

ثم ألا ترى فى حرص جلالته على أن يظل الأزهر معهداً جامعاً للدين ، ألست ترى فى ذلك مظهراً سامياً من مظاهر حدبه على الاسلام ورعايته الفائقة له . . ؟

ولكن ، هل تريد مثلا آخر :

إذن خير لنا أن نقتصد معك فى القول ، وأن نلقى بين يديك بالحجة الحاسمة فنقول لك إن

صاحب الجلالة المليك لا يستطيب الخمر ، ولا يتقبلها ، ولا يقدمها على موائده ، وإنما يكون الشأن عنده حين يريد أن يشرب نخب واحد من الحاكمين أن ينهل الماء القراح .

وحسبنا أن نقرر — فى صدق ويقين — أن جلالته طليعة الزائدين عن الدين وكفى .

الملك العادل المثقف

فى طبيعة جلالة الملك ميل إلى العلم والبحث، ولجلالته آمال واسعة يعمل دائباً على تحقيقها لهناءة شعبه، وسحق الأمية فيه، وليست هذه المعاهد العديدة التى تزدهر بها البلاد إلا أثراً من آرائه ، وصدى لرغائبه، وأولئك العلماء الذين يختلفون إلى مصر من أقطار الدنيا، قد بهرتهم من جلالته إحاطته بما يعلمون ، حتى ليرى الواحد منهم حين يجلس إلى جلالته أنه يمثل التلميذ حيال أستاذه الجهبذ ، ذلك أن صاحب الجلالة قلما يفوته رأى جديد ، وقلما تفلت من رأسه فكرة علمية طارئة ، أو مذهب أدبى محدث .

وإذا كانت الجامعة المصرية فى عهدها القديم قد استطاعت أن تمد الجامعة الجديدة بالرجال الأفذاذ ، والأساتذة القادرين ، فذلك فضل يعود إلى يد المليك التى بسطت ظلها على تلك الرءوس الراضية بالعلم ؛ ويعود إلى عنايته الفائقة التى أتاحت لهذه الجامعة أن تكون كوكباً لامع الضوء ، قوى الشعاع .

وإذا كانت حياة الكشف العلمى فى مصر قد كانت خيالا من هذه الأخيلة التى تمر كالطيف ، فإن جلالة المليك قد أتاح لها أن تكون حقيقة لا ريب فيها ؛ ذلك حين شمل برعايته السامية تلك الرحلة الشاقة التى قام بها الرحالة العظيم الأستاذ أحمد حسنين بك ، مجتازاً فى الصحراء طريقاً غير مألوف ، مكتشفاً فيها شعبة من الناس لم يعرف بها أحد من قبل .

ألا ترى أن هذه الرعاية السامية وحدها ، هى التى مكنت للرحالة المصرى النابه أن يتغلب على عوامل الإخفاق ، وأن يستخف بالشدائد ، وأن يعود إلى وطنه فائزاً بما علق النفس به ، وأرفقها بأسبابه ؟

ثم دعنا نذكر لك أن صاحب الجلالة المليك قلما ينتهى من يومه دون أن يشغل فيه بعض وقته باستيعاب كتاب جديد ، أو دراسة فكرة طريفة ؛ ودعنا نذكر لك أن مكتبة القصر الملكى ليست تحفة من تحفه النادرة التى وضعت للزينة فحسب، وإنما هى تمثل فى كتبها الكثيرة جمهرة من العلماء الصامتين ، الذين تشرفهم طلعة المليك ، والذين يجدون أقدارهم محفوظة فى قلبه ووجدانه .

عصر النشاط

ولقد كانت هذه الروح العلمية التى يحتملها المليك راضياً مغتبطاً ، كانت — وما تزال — داعية إلى توجيه الشعب وجهة النشاط العلمى الهائل .

وهذا حق كل الحق ، لأنك إذا استعرضت الحياة المصرية على ألوانها قبل أن يقتعد جلالته أريكة العرش، ثم استعرضتها فى هذه الأعوام التى انتهى فيها زمام مصر إلى يديه الكريمتين، لرأيت ثم رأيت حياة تتحور من قعود إلى حركة ، ومن ركود إلى نشاط ، ومن سبات عميق إلى يقظة رائعة .

وهذه الجماعات التى اصطنعها هذا النشاط، والتى يعيش جلها فى كنف الرعاية السامية، ألا تدل دلالة صريحة على أن مصر قد لقيت فى العهد « الفؤادى » أسباباً من الجدة ، وأسباباً أخرى من الرشد والرشاد .. ؟

وليس علينا أن نحصى لك تلك الجماعات ، ولكنا نقتصدمعك فى القول ، فنسجل لك أن فناً واحداً من فنون الحياة لم يفلت من عناية المليك المعظم، فهنالك جمعية للاقتصاد، وأخرى للطب ، وثالثة للجغرافيا ، ورابعة للزراعة ، وخامسة للفنون، وسادسة وسابعة لأشباه هذه الجمعيات التى ينفخ فيها العطف الملكى أنفاس الحياة والبقاء .

شخصية المليك

ومن حق العالم أن يتساءل : كيف استطاعت مصر أن تخطو هذه الخطوات الجريئة الرحيبة فى تلك الحقبة التى لا تساوى فى عمر الزمن شيئاً ، ومن حق العالم أن يتساءل عن هذه القوة التى هيأت للمصريين أن يكونوا طليعة الشرق، وأن تكون لهم مكانة سامية بين الشعوب ؛ ولكن العالم متى أدرك أن شخصية المليك وحدها هى التى جعلت من مصر مناراً عالياً ، وكوكباً زاهياً ، عرف الحقيقة كاملة ، وعرف السر بعيداً عن الستر والحجاب.

إن شخصية « الملك فؤاد » تدعو من يعرفها إلى إكبارها الأكبار كله ، وتدعو من لا يعرفها ــ وقل أن يجهلها أحد فى الوجود ــ إلى عرفانها والطلوع على ميزاتها الباهرة الجليلة، لأنها ليست شخصية ملك فحسب ، وإنما هى شخصية ملك ورجل يعنى بشعبه ، ويعنى بنفسه : فإذا أراد للشعب شيئاً فإنما يريد له الخير ، وإذا أراد لنفسه شيئاً ، فإنما يريد لها العيش فى موطن الكمال .

ولقد عرفت هذه الشخصية الكبيرة كيف تغزو قلوب الناس فى كل صقع حلت به، وفى كل بلد وفدت عليه ؛ وهذه الرحلات التى صرف فيها المليك جانباً من أيامه فى غير بلد من بلدان الغرب ، قد أتاحت لشخصيته الممتازة أن تكون فى آفاق هذه الدول كالمشعل الوضاء ، وقد أتاحت لأبناء هذه الدول أن يعرفوا أى ملك يتصدر المصريين فى باحة المجد ، وأى عقل يتعهد حياتهم بالنماء ، وأية يد تبنى لهم ــ على قمة السؤدد ــ الصرح المشيد .

عاش الملك ، وبقيت له السعادة موفورة جزيلة . م

عبد العزيز الاسلامبولى

الشخصيات التي أقدرها

الجاحـــــظ . . .

في رأي الأستاذ عبد العزيز البشري

الذائع عن الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز البشرى ، أنه صاحب مذهب فى الأسلوب اللاذع ، وأن هذا الأسلوب قلما يستطيع أن يجاريه فيه أحد كتابنا اليوم ، وهذا حق كل الحق ؛ ففى أسلوب « البشرى » نزوع إلى التهكم ، ونزوع إلى استغلال أوضار المجتمع ليفضحها ويكشف عنها الستار ؛ ولكن الأستاذ متى أراد أن يخلو إلى الجد فيما يكتب عنه ، وما يبحث فيه ، كان الشأن لديه أن يبلغ الأوج جودة ، وحسن أداء ، وسداد رأى ، وروعة تفكير ، لأنه من أولئك القلائل الذين لا ينطقون إلا بما يعرفون ، ولا يصدرون فيما يكتبونه إلا عن دراسة مستفيضة واستقراء موفور

ولقد عرفت محافل الأدب للأستاذ البشرى ، أنه من قادة الفكاهة والتندر ، وهذا حق أيضاً ؛ لأن مجلس الأستاذ قلما يحتمل معه هذا القتام الذى تحتويه مجالس العلم البالغة الجمود ، وليست أفاكيه الأستاذ البشرى مطبوعة بطابع الصغار واللهو الفاضح ، وإنما هى قابعه دائماً فى صميم الوقار

وقد يفهم الناس فى الأستاذ البشرى أن احتفاله بالفكاهة وليد استهتار منه ، ولكننا نذيع اليوم فى كثير من الصراحة والصدق ، أنه لا ينأى بجانبه عن شعيرة من شعائر الدين ، وأنه يستقبل المحراب فى يومه خمس مرات . . ! !

هذا هو الأستاذ « البشرى » الذى يحمل اليوم قلم « الجاحظ » ليجول به فى كل موطن ، وفى كل موضع يريد . . . ! !

وإذا كان لقاء الأستاذ فى هذا العهد الأخير قد أضيف إلى الآمال المنشودة من جمهور المتأدبين ، لأنه يميل الآن إلى العزلة والانفراد ، فكيف بنا نستطيع أن نقدر السعادة التى تلقفناها فى تلك الساعة الهانئة التى قضيناها معاً فى دار « المعرفة » ، لنصرف عنا وجوه الأحزان ، ونفيء إلى مسرحة الإمتاع الروحى الخالص ؟ ، كانت ساعة نادرة ، وكان لقراء « المعرفة » فيها الحظ الموفور ؛ فقد سألنا الأستاذ الجليل عن « الشخصية التى يقدرها » ، فكان جوابه مايلى :

الفتـــــــاة المصرية

فى المدرسة والبعثة والمنزل

آراء جليـلة ونصائح غاليـة

من حديث مع السيدة نظلة الحكيم سعيد

في هذا الحديث القيم ــ الذى نطالع به قراء «المعرفة» ــ آراء ناضجة ،وحكم غالية، ونظرات سديدة ، لمربية الفضلى والبحاثة القديرة السيدة نظلة الحكيم سعيد . وفيه ــ الى ذلك ــ نواح مختلفة من التفكير الهادىء،والمنطق السليم ، تسديه السيدة المحدثة الى فتيات العصر،بل الى أمهات المستقبل . وفيه ــ الى ذلك أيضاً ــ توجيه دقيق لأنظار السيدات والمربين ــ وكل من يتولى شأن تهذيب الفتاة ــ الى مواطن الضعف وسبيل معالجتها .

وليس ذلك بالامر الجديد أو الشيء المحدث،فقد عودتنا السيدة نظلة ــ فى بحوثها ــ أن تكون دقيقة رائعة ، سامية المغزى ، نبيلة الغرض . ولهذا نعتقد أن هذه الآراء التى جمعها مندوب «المعرفة» من هذا الحديث الحافل ستكون موضع اجلال وتقدير ؟ المحرر

هى الساعة الباقيـة الخالدة ، تلك الساعة التى مضيتها فى حديث ممتع شائق مع البحاثة المثقفة السيدة نظلة الحكيم سعيد،وأكبر اليقين عندى أنها كانت أخلد ساعة بلوتها فى الحياة؛ لأن الحديث الطلى متى تحدثت به المرأة المثقفة كان من نوع بالغ السمو،ومن صنف رائع الأثر... وليست السيدة «نظله الحكيم» إلا ذلك المثل الذى ينشده المصلحون للنساء،فقد لابست أعمق الدراسات ، وزاولت جوانب العلم العويصة ،وكانت فى كل مراحلها سديدة موفقة الخطوات؛ وقد يكون من حق أن أصارح القراء ــ صادقاً ــ بهذا الأثر الذى أودعته فى نفسى تلك الساعة العزيزة ، وهذا الحديث الطلى ؛ فأقول لهم إن السيدة الفضلى تجمع إليها ميزة الخطيب الساحر؛ففى صوتها نبرات آسرة،وفى أدائها سحر رائع ، وفى توجيهها للقول سداد وتوفيق.

أما حديث السيدة البحاثة،وأما نصائحها ، وأما آراؤهـا ؛ فإليك منها ذلك الفوج الذى يدل على أنهـا ملمة بالظروف المحيطة بالفتاة ، ومتنبهة إلى ما تحتاجه البلاد فى هذا الجانب .

الفتاة فى مرحلة الدراسة

قالت السيدة الفضلى :

« تسألنى رأيى عن الفتاة المصرية فى مرحلة الدراسة فى مصر ، فأقول لك: إنها تعيش فى



(المربية الفضلى السيدة نظلة الحكيم سعيد)

مدرستها موزعة الذهن بين حالتين تستطيع أن تدرك خطرهما متى طلعت عليها فى دراسة وتحقيق.

أما الحالة الأولى ، فتتلخص فى أن الفتاة المصرية حين ترى أن حياتها قد أفلتت بها عن حجرات البيت، فإنها تستهل حياتها فى المدرسة باستغلال الجديد كله، وازدراء القديم كله، دون أن تأخذ من الجديد جوانبه الداعية إلى الكمال ، البعيدة عن موطن الضلال ، ودون أن تحتوى فى القديم نواحيه الداعية إلى الكسل والقعود ... ولو أنها وقفت موقفاً وسطاً بين الجديد والقديم ، لكان ذلك أجدى عليها ، وأقمن بها ؛ لأن الجديد على إطلاقه يدفع بالفتاة إلى حمأة التيه ، وهوة الدمار ؛ وقد تستطيع الأم وحدها أن تكافح هذه العلة الجسيمة بما ترشد به فتاتها من ألوان الرأى السديد ، وما فى ذلك النصح من ضير على « فتاة المدرسة » لأنه نصح طبيعى ، ولأنه إلى ذلك وليد التجارب التى ازدحمت بها عشرات السنين » .

« قد تفهم الفتاة المتعلمة أن النصيحة الصادرة إليها عن أم لم تمارس الدراسة ، إنما هى نصيحة ممجوجة ثقيلة مزدراة ؛ ولكنها متى أدركت أن الفتاة الانجليزية – مثلا – تعيش فى ظل الآراء التى تزجيها إليها الأم الانجليزية حتى تبلغ سنها واحداً وعشرين ربيعاً ؛ متى أدركت الفتاة ذلك استطاعت أن تقدر ما لنصائح الأم من أثر ، وما لها من رعاية وتقدير » .

« وثمة حالة أخرى تستطيع أن تصور بها تأخر الفتاة المصرية فى دراستها ، هى أنها تتقدم إلى الناحية العلمية التى لا تستطيبها طبيعتها ، وإنما تتابع التيار وحده ؛ فتدرس الطب وهى ليست أهلا لدراسة الطب ، وتدرس الحقوق وفى نفسها مضض أى مضض من أثقال القانون، ولا تكون النتيجة بعدئذ إلا إخفاقاً ... وما أحسب إلا أن الفتاة المصرية لها عذر فى هذا الإخفاق أى عذر ، لأنها تريد النفاذ إلى دخيلة الكمال العلمى ؛ ولكن ... هل قدر لها الأساتذة مبلغ ما تحتمله طبيعتها من دراسة هذا الفن أو ذاك؟ وهل قالوا لها حين شاءت دراسة الطب – مثلا – إن دراسة الحقوق خير لها وأولى » .

« إن اختبارات الأساتذة حين الدراسة الثانوية تحقق لهم ميول الطالبة أو الطالب ؛ وهناك فى الغرب، وفى ألمانيا وفى انجلترا – بنوع خاص – يهيء الأساتذة للطلبة مرحلة التعليم الأخيرة، لأنهم يدركون مبلغ استعداد طلبتهم الفطرى ؛ وقد دلت التجارب العديدة على أن إرشادات الأساتذة كثيراً ما كانت بالغة التوفيق ، حتى إن الطالب الذى يباعد هذه الإرشادات ويغامر بنفسه فى تيار غير التيار الذى تخيره أساتذته له ، قلما يستطيع المضى حتى نهاية الشوط . »

« هذا فى الغرب، أما فى مصر فإن الباب مفتوح على مصراعيه ؛ ولست أدرى لم لا يعمل الأساتذة بما سبقهم إليه إخوانهم فى بلاد الغرب، حتى يزيحوا عن الفتاة المصرية أعباء الاخفاق فى حياة علمية تريد مخلصة أن تقتعد فيها أوج النجاح » .

البعوث النسائية

« وتسألنى عن البعوث النسائية ، فأقول لك : إنها خير ما أفادت به النهضة العلمية الحديثة فى مصر ؛ ذلك أن الفتاة المصرية كثيراً ما برهنت ـ فى بلاد الغربة وبين أترابها من الغربيات ـ على أنها ذات ذكاء فطرى ، ومواهب سليمة وخصائص نادرة » .

« ولكنى أرى أنه يجب قصر البعثات على بعثات الجامعات ، لأن الطالبة التى تنتسب للجامعة ، إنما تحمل معها تجارب الحياة العلمية كاملة ، لتعود إلى وطنها منشودة الفائدة ، مرجوة النفع ، ولأن التعليم الجامعى فى الغرب قد استطاعت العصور الماضية بما فيها من عوامل الاصلاح العديدة أن تكسبه روحاً فيها حياة ، وفيها نشاط ، وفيها قوة ودأب ... أما هذه البعوث التى ترسل إلى المدارس الغربية ، فليس هنالك ما يبررها ، لأن مدارس المعلمات العادية هناك لا تزيد بكثير عن مدارسنا ، بل إنها لم تكن ذات أثر يربو على أثر « مدرسة المعلمات السنية » أيام كان بها قسم المعلمات » .

« ومهما يكن من أمر ، فان للبعوث النسائية مزايا جديرة بالاذاعة ، فهى تعطى الفتاة المصرية فرصة سانحة تستطيع فيها أن تعتمد على نفسها فى اعتماد فى حفظ كرامتها ، وتركيز مستقبلها العلمى ؛ وهى تضع حيال الفتاة طائفة من الاختبارات الجديدة التى تكوّن بها نفسها تكويناً » .

« وليس من شك فى أن الفتاة التى تُبعث إلى الغرب بعد العشرين من عمرها ، إنما تستفيد من هذه البعثة فوائد لا تستطيع أن تنالها الفتاة الصغيرة ، لأن الفتاة الكبيرة تقوى على احتمال الحياة فى بلدان تيار المدنية الحديثة فيها جارف كالسيل ، أما الفتاة الصغيرة ، فقلما تستطيع السمو على هذا التيار الشاق » .

« أما الذى يؤلمنى دائماً فهو أن يخلو القطر المصرى بأجمعه من مدارس المعلمات الخاصة بدراسة تربية الأطفال ، ودراسة التدبير المنزلى ، والألعاب الرياضية ، مما جعل بنات الطبقة الراقية محرومات من دراسة هذه العلوم عند وجود الرغبة » .

« نحن نسمع أن فى مصر مدارس لرياض الأطفال ، وكذلك للتدبير المنزلى ، وأن مدارس رياض الأطفال تؤدى واجبها فى توفيق جم ، وكذلك نسمع عن وجود معلمات للرياضة البدنية » .

« فإن كان المقصود بمدارس رياض الأطفال تلك المدارس التى يتعلم فيها الأطفال فهذا حقيق ؛ ولكنى أقصد المدارس العالية التى تخرج معلمات اختصاصيات فى فن تعليم وتربية الأطفال ؛ أما بخصوص التدبير المنزلى ، فليس عندنا إلا فرع واحد فى مدرسة معلمات شبرا (بولاق قديماً) ؛ وهذا قاصر على معلمات التعليم الأولى (الكتاتيب) » .

« أما السُّنة التى كنا نسير عليها فى إعداد معلمات للرياضة البدنية ، فهى تدريب إحدى المتفوقات فى هذا الفن ، لنكل إليها أمر تعليم الرياضة البدنية فى جميع فصول المدرسة » .

فقلت: ألم يكن ضمن أعضاء البعثات من تخصصن فى هذه الدراسات : الأطفال، والتدبير المنزلى ، والرياضة البدنية ؟

فأجابت بما يأتى :

« نعم، لقد عنيت الوزارة بإرسال عدد منهن للتخصص فى هذه العلوم، ولكن عددهن قليل بالضرورة ، وهؤلاء قد خطون بهذه الفنون خطوات واسعة رغم ما اعترضهن من صعاب » .

فقلت: ألا يشتمل برنامج الدراسة فى مدارس البنات على قسط وافر من هذه المواد النسوية؟

فقالت: « الآن يدرس النذر اليسير فى المدارس الابتدائية فقط، ولهذا لا يمكن أن تدرس هذه العلوم فى شىء من التحليل العلمى أو التحليل العملى الواسع » .

فقلت : وهل ترين فى هذا شيئاً من التأثير فى حياة الفتاة المستقبلة ؟

فقالت: « وأى تأثير ! إنى أؤكد لك أنى ألحظ الآن فى الفتاة خروجاً عن طبيعتها ومميزاتها النسوية ، مما سيؤدى إلى إيجاد ولدين فى الأسرة التى خلق الله فيها ولداً وبنتاً » .

فقلت: وما الحل الذى ترينه مناسباً لهذه المشكلة ؟

فقالت: « إن الحل الذى أراه هو فتح مدارس خاصة بتعليم الطالبات فنون دراسة الأطفال والتدبير المنزلى والألعاب الرياضية، حتى إذا كان لأية فتاة ميل إلى هذه المواد ــ بعد انتهائها من الدراسة الثانوية ــ تجد مجالا سامحاً لها بذلك التخصص، وبذلك تحصل الأمة أيضاً على سيدات مختصات فى العلوم النسوية التى تقوم عليها حياة الأسرة المنظمة، إلى جانب من يتخصصن فى العلوم الجامعية البحتة ؛ وليست هذه بدعة نخترعها نحن فقط، بل إن الأمم الراقية ــ وأخص بالذكر انجلترا ــ أصبح فيها عدة مدارس عليا تعيش فى ظل الجامعات (أى لها شرف الانتساب إلى الجامعات) تخرج معلمات مختصات فى التدبير المنزلى ، ورياض الأطفال ، والألعاب الرياضية ؛ ولهذا فإن الاقبال شديد عليها » .

بعد البعثة

قلت : هل تجد الآنسة المصرية التى تعود من الخارج مجالا لاستعمال معلوماتها ؟

فقالت : « لقد حدثتك عن فوائد البعوث النسوية، وحددت لك وجوه النفع فيها، ولكنى لا أكون مغالية إذا قررت أن الكثيرات منا لا يجدن مجالا لاستعمال المعلومات التى تخصصن فيها لأمور كثيرة يضيق المقام عن ذكرها الآن » .

نصائح . . .

وسألت السيدة الفضلى عن النصائح التى ترى فى توجيهها ما يهيء للطالبات حياة علمية سعيدة ، فقالت :

« أنصح الوالدين والحكومة أن لا يبعثوا إلى الغرب أية فتاة يقل سنها عن عشرين عاماً ، لأنها حين تبلغ هذه السن تكون قد حصلت فى مدارسنا تحصيلا علمياً يهيء لها أن تكون لها مركزاً علمياً بين زميلاتها فى الغرب، ولأنها - إلى ذلك - تستطيع فى هذه السن أن تدرأ عن نفسها شر الوقوع فى هوة المخاطر الخلقية السحيقة »

« وليس من شك فى أن هذه المخاطر هى التى دعت الوزارة إلى تشديد الرقابة على الطالبات، وإلى تعيين سيدة انجليزية للعناية بهن ، بل إلى تعيين هؤلاء (الشبرونات) اللواتى يعشن مع الطالبات كالظل، ولكنى أنصح بأن يوضع زمام الطالبات فى يد الجامعة، لأن لهن من رقابة الأساتذة فيها والرؤساء المختصين بتقويم الخلق ، ما يغنى عن هذه الرقابة الممقوتة ، التى لا تجدى أثراً متى أرادت الفتاة أن تسترسل فى السعى إلى شأو الرذيلة، خصوصاً وأنه غير ميسور إيجاد من تقبل وظيفة (شبرونة) من طبقة راقية متعلمة، ولشعور الطالبات بضعف مركز هؤلاء (الشبرونات) »

« وأنصح للفتاة المصرية - سواء أكانت فى خارج مصر، أو فى أية مدرسة فى مصر - أن تجعل الحزم رائدها ، وأن تفكر طويلا قبل البدء فى أى عمل، فإن الطيب والردىء من أعمالها سيكون موضع هجوم ونقد واستهزاء ، ولا يمكنها أن تتغلب على هذه الصعوبات إلا إذا كان ما تخرجه للمجتمع وللرأى العام أقوى من أن تؤثر فيه آراء سخيفة ، أو نقد متحيز ، أو هجوم لا براعة فيه »

« ولتكن الفتاة دائمة البحث الدقيق عن الحقائق العلمية الدفينة، دون أن تكتفى من ذلك بحصولها على الشهادات ، أو الدرجات العلميـة الممتازة ؛ فإن العالم العلمى دائم التقدم ، ومن تأخر خطوة واحدة فقد حلقات علمية كثيرة ، لا يتأتى له استرجاعها إلا بعد جهد وعناء كبيرين »

« وأنصح للفتاة أن لا تسير على قاعدة مجاراة الرجل فقط، لأنى وجدت من خبرتى الطويلة أن الفتاة التى تباعد ما أسميه « العلوم النسوية » ، إنما تفقد الشيء الكثير من مميزاتها ومميزات الأنوثة بصفة عامة ؛ ومهما طالبنا بمساواة المرأة للرجل ، فإننا لن نطالب بفقدانها مميزاتها النسوية أبداً . . . وفى ذلك كله ما يدعونى إلى الإلحاح فى أن يقدم القائمون بالأمر إلى الفتاة المصرية نصيبها من التعليم المنزلى ، أسوة بما هو معمول به فى البلاد الراقية ؛ ولا أقل من أن تنشىء الحكومة مدارس خاصة للتدبير المنزلى، ورياض الأطفال، والرياضة البدنية، حتى يفتح المجال بها أمام من تريد - بناء على ميولها الطبيعية - أن تتلقى هذه العلوم . » ؟

ع . ع

اللخميون فى الحيرة

تاريخ خمسة ملوك

٢٦٨ — ٤٠٣ م

بقلم حضرة صاحب المعالى الأستاذ

يوسف بك غنيمة

وزير مالية العراق السابق



يدل هذا البحث القيم ـ الذى بعث إلينا به الأستاذ يوسف بك غنيمة وزير مالية العراق السابق ـ على أنه درس موضوعه دراسة وافية دقيقة ، حتى أتاح لقراء « المعرفة » أن يطلعوا فيه على ألوان بالغة الدقة . ولقد علمنا أن الأستاذ غنيمة بك معنى بأشباه هذه البحوث ، وأنه ألف فى بعضها رسائل مستفيضة ، ولا شك أن القراء سينتفعون بها انتفاعاً جماً . المحرر

توطئة

على بعد ثلاثة أميال من جنوبى الكوفة تشاهد أطلال مدينة الحيرة ، وقد نالت هذه الحاضرة شهرة بعيدة فى التاريخ ،يوم كان الفرس سادة العراق فى الجاهلية ، إذ نشأت فيها دولة عربية تعاقب على عرشها سلالتان : (١) السلالة التنوخية حكم منها ثلاثة ملوك ، وهم ملك ابن فهم، وأخوه عمرو بن فهم، وجذيمة الأبرش أو الوضاح (١٨٥ — ٢٦٨ م) ، (٢) سلالة اللخميين أو المناذرة من آل نصر، ورأسهم عمرو بن عدى بن أخت جذيمة،ولبثوا فى دست الحكم حتى الفتح الإسلامى (٢٦٨ — ٦٣٢ م) مع فترات قليلة ؛ ولتاريخ مدينة الحيرة ومملكتها خطورة سياسية ، ودينية ، واجتماعية ، وعلمية .

فنظراً إلى وضعها السياسى كانت مملكة الحيرة حاجزاً بين دولتين عظيمتين: دولة القياصرة فى الغرب، ودولة الأكاسرة فى الشرق؛ وكما يقول الانكليز (Buffer State) ؛ أو كما تعرف عند الفرنسيين (Etat Tampon) ؛ وكان ملوك الحيرة من أقيال ملوك الفرس الأكاسرة وعمالهم ، كما كان الغسانيون فى الشام عمال الروم ؛ ولآل نصر وقائع وحروب دامية وغزوات حملوا بها على الروم وعمالهم الغسانيين انتصاراً للفرس ، أو غزواً للأمراء والقبائل العربية ، وكانوا تارة ظافرين وطوراً مغلوبين .

أما خطورتها الدينية،فقد كانت ـ على مثال الممالك الشرقية ـ مقر أديان كثيرة،فيها عبادة جاهلية العرب ، والزردشتية ، والمانوية ، والمزدكية ، واليهودية ؛ وكان الفوز فيها للنصرانية فدان بها أهل الحيرة،وملوكها،وأمراؤها،وأميراتها،وشيدت فيها الديارات والبيع والصوامع ، وفى عهدها الأخير دخلها الاسلام .

ولا تقل خطورتها الاجتماعية عن خطورتها السياسية والدينية ، فإنها اشتهرت بعماراتها الفخمة وقصورها الزاهرة ، كالخورنق ، والسدير ، وقصر العدسيين ، والقصر ذى الشرفات من سنداد مما تغنى به الشعراء ، وتفنن فى وصفه الواصفون ؛ هذا فضلا عن ارتياد المرضى والمطربين وأهل الهوى والفرسان ربوعها وحاناتها ومقاصفها ومصايدها للاستشفاء ، واللهو والطرب والغزل وسماع أصوات مغنيها وفنانيها ونغمات أعوادها وأوتارها ؛ وكان فيها صناعات وتجارات وترف وزهو مما يعجب منه المعجبون .

وإذا نظرنا فى خطورتها العلمية نرى تاريخا واسع النطاق؛أسست فيها المدارس والمعاهد العلمية ، ونشأ فيها الخط الجزمى ؛ قصدها الشعراء فى الجاهلية ، وذكروها وذكروا ملوكها فى معلقاتهم ومجمهراتهم ومشوباتهم وقصائدهم ، ولا نظنُّنا مغالين إن قلنا إن تاريخ الآداب العربية فى الجاهلية متغلغل فى تاريخ الحيرة ، وهناك طائفة كبيرة من الأمثال العربية نشأت فى هذه المدينة ، أو نسبت نشأتها إلى وقائع تتعلق بتاريخها .

دفعتنى كل هذه العوامل إلى تأليف كتاب مسهب فى تاريخ هذه الحاضرة بعنوان : « الحيرة : المدينة والمملكة العربية » عالجتُ فيه مختلف المواضيع المذكورة،ويقع الكتاب فى ٢٠٠ صفحة ، وقد آثرت نشر بعض فصوله فى أمهات المجلات العربية قبل طبعه للوقوف على نقد العلماء ، وقد خصصت هذا المقال بمجلة « المعرفة » الغرّاء ، وموضوعه تاريخ خمسة ملوك لخميين ، وهم : عمرو بن عدى ، وامرؤ القيس البدء ؛ وعمرو الثانى ابن امرىء القيس ؛ وأوس بن قُلام العمليقى ، وامرؤ القيس الثانى بن عمرو الثانى .

١ — عمرو بن عدى

٢٦٨ — ٢٨٨ م (١)

بعد وفاة جذيمة الأبرش انتقل الملك إلى ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة ابن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم (٢) رأس سلالة اللخميين فى الحيرة، ويقال لهم آل نصر والمناذرة، وال عمرو بن عدى، أو آل المحرق؛ وقال (هوارت) إن: المحرق اسم وليس لقباً على ما يظهر، وقد جاء فى ديوان جرير «عبد المحرّق» مما يحملنا على الظن أنه اسم إله جاهلى لا نعرف عنه شيئاً (٣).

قال كوسان دى برسفال: تقلد عمرو بن عدى منصبه من سابور بن أردشير (٤)، ونرى أن هذه الرواية توافق الحقيقة التاريخية على ما نظن، خلافاً لما رواه حمزة الأصفهانى (٥) من أن عمراً بقى منفرداً بملكه مستبداً بأمره إلى أن أتى أردشير وقمع ملوك الطوائف بعد أن كسر (بابا) ملك نبط الشام، و(أردوان) ملك نبط العراق، فالذى نراه أن جذيمة الأبرش عاش فى عهد أردشير المنتصر على ملوك الطوائف، ولما انتهى ملك الحيرة إلى عمرو بن عدى اضطر إلى تقلّد منصبه من سابور خليفة أردشير، وفق الاتفاق المعقود بين أردشير وبين جذيمة ٦).

امتازت أيام عمرو بن عدى بثأر خاله جذيمة الأبرش من قاتلته الزبّاء على ما رواه المؤرخون العرب، وذلك بالتدابير الفعَّالة والحيلة الناجعة التى اتخذها قصير بن سعد بن لخم، وكان العامل الذى دفع قصيراً إلى الثأر من الزبّاء أنه كان وزير جذيمة، وأمه كانت أمَة جذيمة فنشأ على النصح والإخلاص له (٧).

كانت الزبّاء ـ بعد قتلها جذيمة ـ تحاذر بطش ابن أخته وخليفته عمرو بن عدى، وكان قد حاذرها رجال قومها من بطشه بها، فاتخذت لها نفقاً من مجلسها إلى حصن لها داخل مدينتها،

---

(١) على رواية إيليا أسقف نصيبين: ملك عمرو سنة ١٢٤؛ وعلى قول عبد يسوع الصوباوى سنة ١٠٧. (راجع تاريخ كلدو واتور ٢: ٢٠٨).

(٢) ابن الأثير ١: ١٣٩؛ وقد وقع اختلاف فى آل نسب المنذر، فقد جاء فى مقدمة ابن خلدون ص ١٤٤ - ١٤٥: أن العرب الذين كانوا فى معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطى وقضاعة وإياد، فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم، ففى كل واحد من بيوتهم من الخلاف ما تعرف.

(٣) كليمان هوارت: تاريخ العرب ١: ٦٣.

(٤) كوسان دى برسفال: تاريخ العرب قبل الاسلام ٢: ٣٥. (٥) الأصفهانى: تاريخ سنى ملوك الأرض ٦٥. (٦) الطبرى ٢: ٥٩ (٧) ابن الأثير ١: ١٣٧.

دوعت مصوِّراً فأرسلته إلى عمرو بن عدى متنكراً وقالت له: صوِّره جالساً، وقائماً، ومنفصلا، ومتنكراً، ومتسلحاً بهيئته ولبسه ولونه ثم أقبل إلىّ، ففعل المصوِّر ما أوصته الزباء، وعاد إليها، وأرادت بذلك أن تعرف عمرو بن عدى فى مختلف أحواله لتحذره (١).

لم يُجدها هذا الحذر نفعاً، لأن قصيراً دبَّر حيلة اصطادها بفخاخها، فإنه أتى إلى عمرو وقال له: اجدع أنفى واضرب ظهرى ودعنى وإياها، فرفض عمرو الإقدام على هذه الفعلة، فقام آنئذ قصير بها بنفسه، فجدع أنفه ودقّ بظهره وهرب إلى الزبّاء وأخبرها: أن عمراً فعل بى هذا، لأنه زعم أنى غدرت خاله وزينتُ له المسير إليك وغششته، فأقبلتُ إليك وعرفت أنى لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك، فلاطفته وأكرمته، ولما عرف أنها وثقت به قال لها: إن لى بالعراق مالا كثيراً، وبها طرائف وثياب وعطر فابعثينى إلى العراق لأحمل مالى وأحمل إليك من بزوزها وطرائف ثيابها وصنوف ما يكون بها من الأمتعة والطيب والتجارات، فتصيبين بذلك أرباحاً عظاماً، وبعض ما لا غنى بالملوك عنه، فإنه لا طرائف كطرائف العراق، فلم يزل يزين لها ذلك حتى سرحته ودفعت معه عيراً، فقالت: انطلق إلى العراق فبع بها ما جهزناك به، وابتع لنا من طرائف ما يكون بها من الثياب وغيرها، فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق(٢)، فأتى بيت مال الحيرة، فأخذ منه بأمر عمرو ما ظن أنه يرضيها وانصرف إليها به، فلما رأت ما جاء به فرحت وزادته، ولم يزل كذلك حتى أنست به، وبعد أن اطلع على موضع نفقها خرج فى تجارته كما كان يفعل، وعرف عمرو بن عدى، فركب عمرو فى ألفى دارع على ألف بعير فى الجوالق، حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير يسبق الإبل ودخل على الزباء، فقال لها: اصعدى فى حائط مدينتك فانظرى إلى مالك وتقدمى إلى بوّابك، فلا يعرض لشىء من أعكامنا، فلما رأت الجمال تمشى رابها الحال فقالت شعراً: (٣)

ما للجمال مشيُها وئيداً   أجندلاً يحملن أم حديدا
أم صرفاناً بارداً جديداً   أم الرجال جُثَّماً قعودا

فدخلت الإبل المدينة حتى كان آخرها بعيراً مرَّ على بوّاب المدينة، وهو نبطى بيده منخسة، فنخس بها الغرائر التى تليه، فأصابت خاصرة الرجل الذى فيها، فقال البواب بالنبطية: (بشتا بسقا)، يعنى بذلك «فى الجوالق شر»، فلما توسّطت الإبل المدينة أنيخت ودل قصير عمراً على باب النفق قبل ذلك وأراه، وخرجت الرجال من الغرائر، وصاحوا بأهل المدينة، ووضعوا فيهم السلاح، وقام عمرو بن عدى على باب النفق، وأقبلت الزبّاء مولية مبادرة تريد النفق لتدخله، وأبصرت عمراً قائماً فعرفته بالصورة التى كان صوّرها له المصوّر،

(١) الطبرى ٢ : ٣٥ (٢) ابن الأثير ١ : ١٣٩ (٣) الأغانى ١٤ : ٧٣ .

فمصت خاتمها ، وكان فيه سم وقالت : « بيدى لا بيدك يا عمرو » ، وذهبت مثلا (١) ، وتلقاها عمرو بن عدى ، « فجللها بالسيف،وأصاب ما أصابه من أهل المدينة ، وانكفأ راجعاً إلى العراق » (٢) بعد أن خرَّب المدينة ، وسبى الذرارى ، وغنم كل شىء كان لها ولأبيها وأختيها (٣) .

وقد ألهمت حكاية هذه الواقعة موضوعاً للشعراء نظموا فى ذكرها أشعاراً ، ومنهم عدى ابن زيد ، قال :

---

(١) يلاحظ هنا أن كثيراً من الأمثال فى اللغة العربية نشأت فى الحيرة ، أو نسبت إلى وقائع كان مهدها تلك الحاضرة ، وقد تكلّمتُ عن ذلك فى فصل النهضة العلمية من كتابى، وقد جمعتُ نحو ثمانين مثلا ونيف من هذا الطراز ، معظمها مذكور فى مجمع الأمثال للميدانى وجمهرة الأمثال لأبى هلال حسن بن عبد الله العسكرى ، وما بقى من الأغانى وكتب الأدب والتاريخ ؛ ومن الأمثال التى لها علاقة بثأر الزباء ما جاء عن لسان العرب، كقولهم : أثأر من قصير . أعزّ من الزبّاء . لأمرٍ ما جدع قصير أنفه . ثائر سائر . آخر البزّ على القَلُوس . جئت بما صاء وصمت ؛ وقيل عوضاً عن المثل « بيدى لا بيدك يا عمرو » « بيدى لا بيدك يا ابن عدى » . وأمنع من عقاب الجو . (٢) الطبرى ٢ : ٣٦.

(٣) الأغانى ١٤ : ٧٣ هكذا انتهت حياة الزباء على ما رواه العرب، والذى عندنا أن هذه الرواية أسطورة من أساطير السالفين محكمة الوضع متقنة التلفيق يتجلى فيها تفنن الجاسوسية بأتم مظاهرها، ولا تخلو من بعض فوائد تاريخية أتت عفواً بين مطاويها ، كوصف تجارة العراق وطرائفه وما تيه فى ذلك العصر، والإلماع إلى انتشار اللغة النبطية فى ذلك العهد فى العراق وما جاوره من الأصقاع ؛ أما نقل رجال الجيش فى الغرائر ، أو الأكياس خلسة ــ كما جاء فى قصة قصير والزباء ــ فله مثال فى الشاهنامة للفردوسى ؛ والنفق المبحوث عنه فى حكاية الزباء كثيراً ما يروى أمثاله القصاصون العراقيون فى أقاصيصهم العاميـة . لا أتفرد فى الرأى القائل باعتبار رواية المؤرخين العرب عن قتل الزباء أسطورة ؛ بل يساندنى فيه غير واحد من المحدثين ، ولا سيما الافرنج منهم . يذهب كوسن دى برسفال فى تاريخه «العرب قبل الاسلام» ــ معتمدين على ابن نباتة والقزوينى ــ : إلى أن أباها كان الريان واسمه المليح بن براء، فن المحتمل أنه كان من بنى العبيد الذين نشأ منهـم ملوك حكموا إمارة الحضر بعد الجرامقة على ما رواه ابن الكلبى ؛ ولكن لا نتمكن من البت فى هذا الأمر إذ لنا فى رواية المسعودى وغيره من المؤرخين ما يقيم فى نفوسنا الريب بوجود سلالة عربية حكمت الحضر ، وعلى كل فان كوسن دى برسفال يظن أنه لا صحة لأسطورة الزباء ، ومن المحتمل أنها تلمع إلى نهاية حكم زنوبيا (زينب) ملكة تدمر ، تلك النهاية التى يوافق تاريخها عصر عمرو بن عدى، فربما أصابه قسم من ملكها بعد انقراض مملكتها.

أَبُدِّ المنازل أم عفينا تقادم عهدها أم قد بلينا (١)

وقال ربيعة بن عوف السعدى ـ المكنى المخبل ـ قصيدته:

يا عمرو إنى قد هويت جماعكم ولكن من يهوى الجماع فراق

وقال أحدهم:

نحن قتلنا فُقْحَلا وابن راعن ونحن خنينا بنت زبّاء بجندل

فلما أتتها العيرُ قالت أبارِدٌ من التمرِ هذا أمْ حديد وجندل (٢)

وقال المتلمس: (٣)

وفى طلب الأوتار ما حزّ أنفه قصير ورام الموت بالسيف بيهس

وقال ابن دريد: (٤)

(١ و ٢) الطبرى ٢: ٣٦ (٣) الميدانى ١: ١٥٨ (٤) مقصورته ص ١٧. وعلى الحضر، تقول إنها كانت إمارة موقعها إزاء تكريت فى البرية بينها وبين الموصل والفرات، ولا تزال آثار القلعة أو القصر بادية اليوم، وفيها من العظمة الصناعية ما يحيّر الألباب، وقد زارها غير واحد من السياح والأثريين، وقد وصفها عدى بن زيد، إذ قال:

وأخو الحَضْرِ إذ بناه وإذ دجلة تجبى إليه والخابور

شاده مرمراً وجلله كلساً فللطير فى ذراه وكور

لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور

وقال عنها صاحب معجم البلدان: مبنية بالحجارة المهندمة، بيوتها وسقوفها وأبوابها، ويقال: كان فيها ستون برجاً كباراً، وبين البرج والبرج تسعة أبراج صغار بإزاء كل برج قصر وإلى جانبه حمام، ويمرّ بها نهر الثرثار، وكان نهراً عظيما عليه قرى وجنان ومادته من الهرماس نهر نصيبين وتصب فيه أودية كثيرة، ويقال إن السفن كانت تجرى فيه، فأما فى هذا الزمان فلم يبق من الحضر إلا رسم السور والآثار تدل على عظم وجلالة. وكان الحضر إمارة اختلف المؤرخون فى ملكها، فذهب فريق إلى أنه كان من الجرامقة ويلقب الساطرون. والعرب تسميه الضيزن، وسماه الفرثيون والفرس مانيزان، وصحف هذا الاسم الأخير الكتبة اليونان واللاتين بالصور الآتية: (Manisar, Mannesis, Mannus) وأطلقوه على عدة أمراء شرقيين. واسم أحد الضيازن برشميا الذى عضد ينجر الرومانى فى حربه سبتموس ساويرس سنة ١٩٤ م، ومنهم من قال ـ كشهام بن الكلبى ـ: إن ضيزن الحضر عربى، وهو الضيزن بن معاوية بن الاجرام بن عمرو بن النخع بن سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة، وجاء فى العمدة لابن رشيق ٢: ١٨٧ أن نصراً جد عمرو بن عدى هو الساطرون صاحب الحضر. وحكاية سابور بن أردشير فى فتحها معروفة مشهورة، تمكن من ذلك بخيانة بنت الساطرون التى تزوجها ونكل بها بعد ذلك، وقال فى ذلك عدى بن زيد:

وأرى الموت قد تدلى من الحضـ ـر على رب ملكه الساطرون

كل هذا يدل على تنازع حكم الحضر، كل من الجرامقة والعرب والروم والفرس.

وقد سما عمرو إلى أوتاره فاحتطَّ منها كلّ عالى المستَمى
فاستنزل الزبَّاء قسراً وهى من عُقاب لوح الجوّ أعلى مُنْتَمى

واشتهر عمرو بن عدى باتخاذ الحيرة عاصمة لدولته ومقرّ سلطنته ؛ وكان الملوك التنوخيون قبله لا يستقرون بكرسيهم فى مدينة ، بل ينتقلون بين الحيرة وبقة والأنبار . وبدأت الحيرة من عهد هذا الملك بالعمارة ، ودخلت فى عصر جديد من الخطورة والعظمة ، إذ اختارها منزلا له .(١)

ومما يسترعى الانتباه فى أقوال المؤرخين أن عمراً أول ملك مجده الحيريون فى كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق إليه ينسبون ؛ وكان فى سلطانه منفرداً مستبداً بأمره يغزو المغازى ويصيب الغنائم ، وتجبى إليه الأموال وتفد إليه الوفود دهره الأطول (٢) .

إن الذى نراه من العوامل الفعالة فى إعلاء شأن عمرو بن عدى والتفاف قبائل عرب العراق حوله، هو ما وقع من الأحداث للعرب فى مدينة الحضر من القهر والتنكيل على يد سابور بن أردشير ، وألفت فى عضدهم على ما ذكرناه فى فصلنا «نزوح العرب إلى العراق»،وذلك حفظاً لكيانهم ودفعاً للطوارىء والأحداث ، ولا سيما أنه كان موالياً لسابور قد تقلد الحكم منه ؛ وكان يعد من عماله على أكثر الروايات ، أو أن سابوراً نفسه فوض إليه الحكم على عرب العراق بعد أن نكل بهم فى الحضر،فذهبت شهرته بين القبائل،ولا نعرف شيئاً عن هذا الملك.

[للبحث بقية] يوسف غنيمة

(١) حمزة الأصفهانى ص ٦٥ . (٢) الطبرى ٢ : ٣٧ .

فلسفة العلوم الرياضية

تصحيح وتوضيح

كتب الأستاذ أحمد فؤاد الأهوانى (١) فى مقاله « فلسفة العلوم الرياضية » عن هندسة إقليدس وسبب سقوطها فى العصر الحاضر ، وذكر أن القضايا الثلاث المسلم بها فى هذه الهندسة هى :

ا — لا يمكن أن نرسم إلا مستقيماً واحدا بين نقطتين .

ب — الخط المستقيم هو أقصر طريق بين نقطتين .

حـ — من نقطة واحدة لا يمكن أن نرسم إلا موازياً واحداً لمستقيم معلوم .

وهو يؤكد أنها وأمثالها أساس سقوط هندسة إقليدس ، وذلك لما ظهر فيها من الخطأ ؛ ولكى يثبت سقوط القضية الثانيـة مثلا قال : إن أقصر طريق بين القاهرة وبرلين هو قوس دائرة ؛ لأنه لو كان خطاً مستقيماً لاحتجت أن تشق الأرض وهذا مستحيل (٢) .

هكذا ترى أنه يرتكن فى برهانه الرياضى على استحالة شق الأرض ، وهذا — فيما نرى — ليس معهوداً فى أساليب البرهان الرياضى ؛ فكثير من فروض الرياضة وبراهينها ما يقبلها العقل ويعدها حقيقة واقعة ، بينما لا نستطيع إجراءها عملياً ؛ فإليك مثلا:قوانين النهايات التى يبنى عليها علم التفاضل والتكامل الذى هو أهم فروع الرياضة العالية ، فهل نستطيع حقاً الوصول إلى ما لا نهاية ؟ لا شك أن هذا مستحيل ؛ ولكنك ترى أننا نستطيع إجراء ذلك بكل سهولة فى العقل المجرد ؛ وإليك مثلا أقرب الفروض إلينـا ، وهو تعريف النقطة بأنها وضع مجرد من الأبعاد ؛ فهل نستطيع عملياً أن نأتى بهذا الوضع ؟ طبعاً لن نستطيع؛ ولكن الحقيقة أننا نتصور هذا الوضع فى العقل المجرد أيضاً ؛ ومن هنا نرى أننا لو أردنا استعمال مثل ذلك البرهان لسقطت فروض رياضية لا عد لها ولا حصر ، ولأخذت الرياضة مجرى غير هـذا المجرى،وأصبحت فى النهاية تجارب طبيعية نقبل منها ما نستطيع إجراءه ونرفض ما لا نستطيع.

وهذه نظرية النسبية Relativity آخر ما وصل إليـه الانسان من علوم الرياضة والطبيعة ، تناولت فى جملتها كثيراً من البديهيات الرياضية فحولتها ونقحتها ، وبرهنت لنا أن كل ما نراه من الحقائق نسبى محض — مما لم يتنبه إليه إقليدس — ولكننا لم نعهد فى براهينها مثل هذا البرهان .

---

(١) مجلة المعرفة عدد أغسطس سنة ١٩٣٢ ص ٤٩١

(٢) ص ٤٩٥ من « المعرفة » ج ٤ م ٣

كنا نقول ـ حسب هندسة إقليدس ـ إن كل ثلاث نقط من جسم متماسك على استقامة واحدة ، وكنا نقول إن القدم يظل قدماً ، والثانية تظل ثانية فى أى زمان ومكان ؛ وجلى أن هذه بديهيات لا جدال فيها ، ولكن تلك النظرية تثبت خطأ هذه البديهيات . ولنترك هذا الموضوع لنناقشه فى المستقبل،ونرجع إلى مقال الأستاذ الأهوانى .

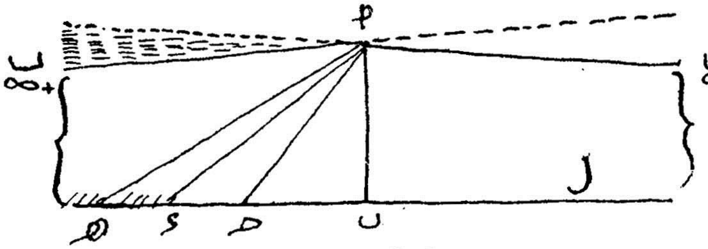
أحقاً كان السبب المباشر فى سقوط هندسة إقليدس قيامها على أمثال تلك القضايا ؟ كلا ، لم يكن ذلك هو السبب ، بل إن السبب الحقيقى يرجع إلى سقوط فروض أولية هى أساس تلك القضايا ، بل هى أساس علم الهندسة بأجمعه .

نظر إقليدس إلى الكون ، فبنى هندسته المعروفة على أسس ثلاثة : (١) الخط المستقيم ، (٢) الفراغ ، (٣) العالم ؛ وهكذا تبنى كل هندسة على هذه الأسس ، وسنتناول كلا منها ببحث مجمل لنعلم السبب الحقيقى فى سقوط هندسته ، ولنعرف ناحية من نواحى التفكير الرياضى الحديث .

١ — الخط المستقيم

إننا فى الرياضة العملية لا نستخدم خطوطاً مستقيمة كاملة ، بل أجزاءً محدودة جداً منها ، ولكننا فى كثير من براهيننا الرياضية نتصور امتداد الخط المستقيم إلى ما لا نهاية ، وهنا يبدأ العقل يتصور ما يؤول إليه ذلك الخط فى تلك اللانهاية حيث يبدأ الخلاف والجدل ؛ فإقليدس يفرض أنه « يتوازى المستقيمان إذا تلاقيا فى ما لا نهاية » ، ومعنى ذلك أن نقطة التقاطع تكون على مسافة لانهائية فى الكبر من نقطة أخرى ثابتة على أحد المستقيمين ، ولو أنا تأملنا قليلا لرأينا عدم صلاحية هذا الفرض .

خذ مثلا النقطة ا خارج المستقيم ل (شكل ١) ، وتصور أنها ترسل الأشعة



(شكل ١)

ا ب ، ا حـ ، ا د ، . . . . ، ا هـ لتلاقى المستقيم ل فى ب ، حـ ، د ، . . . . ، هـ .

واضح أنه كلما ازداد ميل الشعاع ا هـ على المستقيم ل، كلما بعدت النقطة هـ عن العمود ا ب جهة اليسار بمسافات محدودة ؛ فاذا ما سرنا مع اتساع الزاوية ب ا هـ ، فإننا نرى أنه سيأتى وضع يكون فيه الطول ب هـ محدوداً ، ولكن إذا ما ازدادت الزاوية ب ا هـ بعد ذلك زيادة لانهائية فى الصغر، فإننا ـ حسب إقليدس ـ نجد أن هـ انتقلت إلى ما لا نهاية على ل ،

وأصبح الشعاع ا هـ يوازى المستقيم ل ؛ ومعنى ذلك أن النقطة هـ تترك الأبعاد المحدودة لتختفى فى ما لا نهاية ، وذلك بسبب زيادة صغيرة فى الزاوية ب ا هـ ؛ وجلى جداً أن هذا بعيد التصور .

من أجل ذلك قال لوباتشوسكى Lobatchewsky : إن ب + ٥٥، ب — ٥٥ (وهما الوضعان اللذان بعدهما تختفى هـ فى ما لا نهاية) يكوّنان زاوية تختلف قليلا عن القائمتين ، وإنه يوجد عدد لانهائى من المستقيمات الأخرى - المنقوطة - محصورة بينهما لا تقابل المستقيم ل على مسافات محدودة ، فهى بذلك توازيه ؛ بينما قال ريمان Riemann : إننا لا حاجة بنا إلى فرض اللانهاية ؛ ولنفرض أنه إذا تحركت النقطة هـ على المستقيم ل باستمرار ، مبتدئة من ب فى أحد الاتجاهين ، فإنها تعود إلى الوضع ب ثانياً من الاتجاه الآخر ، وذلك لأن الكون منحن على نفسه ؛ فلا بد أن يكون كل مستقيم فيه منحنياً على نفسه .

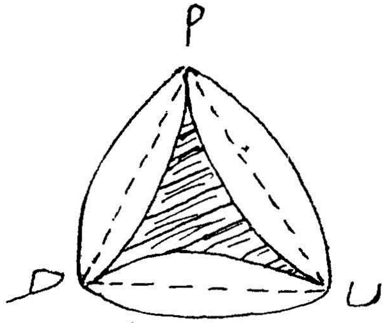
وهكذا نرى أن النقطة هـ لا تترك المستقيم ل ، ولا تختفى فى ما لا نهاية ، وبذلك فلا يمكن رسم أى مستقيم من ا يوازى المستقيم ل ؛ ومن هنا نرى كيف أخذ العلماء ينظرون إلى هندسة إقليدس من هذه الناحية ، وكيف أن الاختلاف فى تحديد خواص الخط المستقيم أدى إلى برهنة أنه ليس بحقيق أن من نقطة واحدة يمكن رسم مستقيم واحد يوازى مستقيماً آخر .

٢ — الفراغ

زعم إقليدس - من غير دليل أو برهان - أن الفراغ مسطح لا انحناء فيه ، وأننا نستطيع أن نتخذ فيه ما شئنا من السطوح المستوية ؛ ولكن هذا على خلاف ما تقوله النسبية ، التى تبرهن أن الفراغ منحن ، وأن كل ما نراه من خطوط ومستويات نسبى محض ؛ ولما أراد (نيوتن) استعمال هندسة إقليدس المستوية فى تسجيل أبحاثه اضطر إلى إدخال فروض كثيرة ، منها فرض الجاذبية مثلا ، حيث يقول : إن أى جزأين من المادة يجذبان بعضهما حسب القانون $\frac{ك_1 \times ك_2}{س^2}$ (حيث ك ، س هما الوزن والمسافة) ، وإلا فلماذا تسير الكواكب - كالأرض مثلا - فى أفلاكها المنحنية ؟ قال نيوتن : ذلك لأنها تجذب بعضها البعض . أما النسبية فتقول : إنه ليس هنالك جاذبية ، بل إننا لو تركنا الكواكب حرة تسير فى الفضاء ، فإنها - نظراً لانحنائه - تسير فى هذه الأفلاك المنحنية ، وإن أشعة الشمس المنحنية التى نراها عند كسوفها إنما هى دليل بين على هذا الانحناء ؛ وعلى ذلك لو أننا أردنا أن نتحرك من نقطة إلى أخرى متخذين أقرب طريق ممكن ، فلا بد أن نسير فى منحن تبعاً لطبيعة الكون .

ولقد شبه إنشتين Einstein فقاعة الصابون التى كلما شحناها بالكهرباء كلما ازداد حجمها

بالـكون الذى كلما شحناه بالمادة كلما ازداد حجمه أيضاً ؛ فهو يقول إننا نستطيع أن نعين حجم مادة الـكون بالضبط ، وكذلك تاريخها ـ الماضى والحاضر والمستقبل ـ من جراء ذلك التشبيه . ولقد أيدت المشاهدات الفلـكية صحة نتائجه تماما . وعلى ذلك فليس هنالك أى خط مستقيم ، وليست هنالك سطوح مستوية كما زعم إقليدس ؛ ومن هنا يتبين لماذا لا يمكن أن يكون مجموع زوايا المثلث قائمتين كما هو مبين فى (شكل ٢) ، حيث يتضح أنه نظراً لانحناء الأضلاع كان مجموع زوايا مثلث إقليدس ـ وهو المنقوط ـ أكثر من مجموع زوايا المثلث الداخلى المظلل ، وأقل من مجموع زوايا المثلث الخارجى .



(شكل)

٣ ـ العالَم

هذه هى أهم نقط الضعف الظاهرة فى هندسة إقليدس ، فهو يزعم أن :

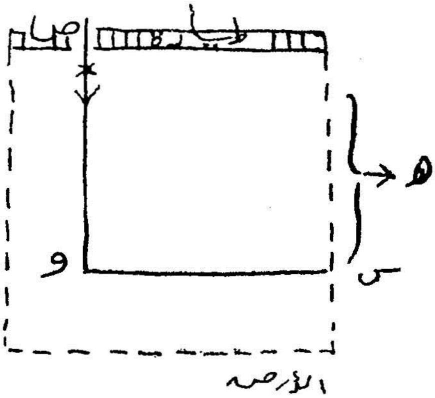
(١) يتكون العالَم من نقط مكانية ، وعلى ذلك فنحن ننتقل فيه من نقطة إلى نقطة ؛ ولقد أثر هذا الزعم فى نيوتن الذى أعطانا فكرة المكان المطلق Absolute space .

(٢) لا دخل للزمان فى هندسته ، فالزمان عنده شىء مستقل عن المكان ، مما جعل نيوتن ـ أيضاً ـ يعطينا فكرة الزمان المطلق Absolute time . وأخيراً قال العالم مينكوسكى Minkowski : إن عالمنا هذا عالم حوادث Events ، فهو متغير على الدوام ، وعلى ذلك فهو يتكون من الحوادث التى نراها ونحسها لا من نقط مكانية ؛ وما حياتنا إلا سلسلة من الحوادث لا سلسلة من النقط ، ولننظر الآن ممَّ تتركب هذه الحوادث ؟ إنها تحدث فى مكان معين ، وزمان معين ، ولذلك فهى تتركب من مكان وزمان معاً ؛ أى أنها ذات أربعة أبعاد ، وتقاس فى الرياضة بالاحداثيات س ، ص ، ع ، ن ل $\sqrt{-1}$ ، حيث ن الزمن بالثوانى ، ل سرعة الضوء *

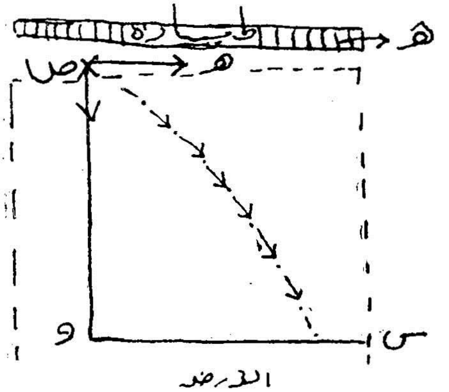
ولقد أثبت مينكوسكى هذا أن الكمية $\sqrt{\{(س_2 - س_1)^2 + (ص_2 - ص_1)^2 + (ع_2 - ع_1)^2 - ل^2 (ن_2 - ن_1)^2\}}$ تساوى كمية ثابتة دائماً ، أى أنها مطلقة ـ حيث الرمز ١ ، ٢ لتمييز أحداثيات نقطتين معينتين ـ ؛ وجلى أن هذه الكمية ليست بالزمان ولا بالمكان ، ولكن خليطاً منهما يسمى الزمان المكانى Space-time الذى استطعنا به التغلب على كثير من الأخطاء التى طالما ارتكبناها باستعمال هندسة إقليدس الناقصة .

* يراد من كلمة احداثيات : الابعاد المقاسة من جهة معلومة فى اتجاهات خاصة .

فمثلا، لنفرض أن شخصاً ما أسقط حجراً صغيراً من طيارة تسبح به أفقياً فى الهواء بالسرعة هـ فى الثانية ، ثم أخذ يلاحظه (شكل ٣ أ) فانه يراه يسقط بحيث تخضع سرعته الرأسية ص



(شكل ٣ أ)



(شكل ٣ ب)

فى الثانية ن للقانون ص = ح × ن حيث ح عجلة الجاذبية .

وتخضع سرعته الأفقية س للقانون س = صفر × ن = صفر

وعلى ذلك فسرعتـه المحصلة هي √ص ٢ + س ٢ = ص = ح × ن ١

ولـكن اذا كان هنالك من ينظر إلى ذلك الحجر من سطح الأرض كما فى (شكل ٣ ب) ؛ فانه يراه كأنه يسير فى خط منحن واسع (قطع مكافىء) ، وهو سلسلة السهام المنقوطة فى الشكل ، حيث تخضع سرعتاه: الرأسية والأفقية للقانونين: ص = — ح × ن ، س = هـ على الترتيب، وعلى ذلك فسرعته المحصلة بعد الزمن ن هى √ص ٢ + س ٢

أى أنها √ح ٢ × ن ٢ + هـ ٢ .... ٢

وبمقارنة ١ ، ٢ نرى أننا اختلفنا فى قياس سرعة ذلك الحجر ؛ هنا يقول إنشتين : إنه باستعمال الزمان المكانى عند ما يكون الشخصان فى حركة نسبية ـ كالذى بالطيارة بالنسبة إلى ذلك الذى على الأرض ـ يميل احداثياً زمانهما، بحيث إنما يراه أحد زماناً خالصاً أو مكاناً خالصاً يراه الاخر زمانا مع مركبة صغيرة فى المكان ، أو مكاناً مع مركبة صغيرة فى الزمان ، وبذلك نستطيع أن نحصل دائماً على نتيجة واحدة .

تلك إذن هى الأسس الثلاثة التى سقطت من أجلها هندسة إقليدس ، حيث أصبحت تعجز أن تسير مع الرياضة الحديثة، خصوصاً بعد ظهور النسبية ، عرضتها مجملة لتعطى فكرة حقيقية عن التفكير الرياضى الحديث ، وتوضح أن سقوط تلك القضايا التى ذكرها الأستاذ الأهوانى أو أمثالها ما هو إلا نتيجة مباشرة لها . ؟

محمد جمال الدين الفندى
بكلية العلوم

رفرز ورأيه فى الاحلام

بقلم الاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ علم النفس بكلية أصول الدين

ولد وليم هالس رفرز رفرز(١) فى مارس سنة ١٨٦٤ من أسرة نبيلة ، اشتغل عدد كبير من أفرادها فى وزارة البحرية الانجليزية ، وكان لهم صيت ذائع فى هذه المهنة ، وربما كان هذا سبباً فى ولع رفرز هذا بالضرب فى الأرض ، وشغفه بالاطلاع على أحوال الشعوب المختلفة ، ودراسة طبائعهم وتقاليدهم المتنوعة .

نشأ رفرز نشأة علمية ، وتلقى دروسه الأولى فى مدارس : برايتن ، وتنبردج ، وكمبردج من بلاد الانجليز ؛ وربما يدلنا على ذكائه وحسن استعداده للمعرفة أنه ألقى أول محاضرة وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وأنه حصل على درجة بكالوريوس فى الطب من جامعة لندن وهو فى الثانية والعشرين ، فكان بذلك أصغر من حصلوا على هذه الدرجة فى المستشفى الذى انتسب إليه .

بعد ذلك بسنتين حصل على درجة أستاذ فى الطب ، وفى السنوات التالية قام برحلات متعددة إلى أمريكا واليابان وغيرهما ، وتولى وظائف طبية مختلفة برهن فيها على كفاءته وجدارته .

وفى سنة ١٨٩٣ سافر إلى ألمانيا ، وسمع محاضرات كثير من مشاهير أطبائها النفسيين ؛ ولا بد أنه قد تأثر بغزارة مادتهم ، وأعجب بمعارفهم ، ولا سيما فى علم الطب النفسانى ، لأنه بعد أن عاد إلى انجلترا عقد العزم على أن يقضى أكبر جزء ممكن من أوقاته فى دراسة علم النفس النظرى والتجريبى وعلاقته بالطب .

بعد ذلك أخذت شهرته فى الذيوع ، حتى صار فى وقت من الأوقات أستاذا فى ثلاث من دور العلم الكبرى هى : مستشفى جاى ، وجامعتا لندن وكمبردج ، وإليه يرجع الفضل فى إنشاء قسم لعلم النفس التجريبى بجامعة لندن ، ويعتبر أول قسم من نوعه أنشىء فى انجلترا .

لم تزل معارف رفرز فى الازدياد ونجمه فى الصعود ، حتى صار عضواً فى الجمعية الملكية (٢) وأصبح أحد الأفذاذ الذين يعتبر كل منهم حجة فى مادة كرس حياته للتوسع فى بحثها ، بل إن الدكتور رفرز كان يفضل غيره من هؤلاء العلماء بغزارة معارفه فى مواد عديدة ، منها :

---

[1] William Halse Rivers Rivers [2] Fellow of the Royal Cociety.

علم الطب ووظائف الأعضاء ، وعلم النفس بجميع فروعه ، وعلوم الاجتماع ـ ولا سيما علم الأجناس البشرية .

قامت الحرب العظمى ، واستطار شررها ، وحمى وطيسها ، وأصيب فيها من أصيب ، فأنشئت مستشفيات لعلاج الجنود المصابين الذين ذهبت عقولهم فى ساحات القتال ، فكانت معارف رفرز وتجاربه وأبحاثه فى علم النفس وعلوم الاجتماع خير ما يجعل مثله أهلا للاشتغال بهذه المستشفيات ، وهذا ما وقع بالفعل ، فقد منح الدكتور رفرز الوسام الملكى من الجمعية الملكية سنة ١٩١٥ تقديرا لأعماله ، ثم انتدب مع غيره للاشتغال بمستشفى الحرب الذى أقيم ببلدة (مجهل Maghull) على مقربة من ليفربول ، وفى سنة ١٩١٦ انتدب للاشتغال بالمستشفى الحربى بأدنبرا ، وفى سنة ١٩١٧ عين مستشارا طبياً فى الأحوال العقلية بوزارة الطيران الملكية البريطانية .

وبتولى معالجة هؤلاء المرضى انفسح أمامه المجال للتوسع فى علم النفس الطبى ، وتوافرت لديه التجارب المتعددة للتحقق من مبادىء فرويد ، وقواعد علم النفس التحليلى ، ولمعرفة علاقة التطورات العقلية بالتطورات المخية العصبية ، وقد أعدته هذه التجارب وتلك الأبحاث لأن يكون من أكبر علماء النفس لا فى انجلترا فحسب ، ولكن فى العالم كله ، ولا غرو فان مؤلفاته المتعددة القيمة ، ومحاضراته التى ملأ بها بلاد الانجليز ، وآراءه المنتشرة فى بطون كتب علم النفس ، وتجاربه التى قام بها ووصفها وصفاً دقيقاً فى المجلات العلمية ، كل هذه تشهد له بالفضل ، وعلو القدر .

وقد بلغ الدكتور رفرز قمة الشرف وغاية المجد ، حينما اختاره حزب العمال البريطانى البرلمانى لأن يكون عضوا فى البرلمان ممثلا لجامعة لندن ، وذلك سنة ١٩٢٢ ؛ ولكنه لم يلبث أن عاجلته منيته بعد ذلك ببضعة أشهر فتوفى مأسوفاً عليه ، فحزنت عليه الجمعية الملكية وأبنه أحد أعضائها الدكتور تشارلز ميرز بخطبة أثار فيها العواطف ، وأبكى فيها أصدقاء الفقيد ، وأبان فيها فضله ، وأظهر أعماله المجيدة ، وخلد تاريخه النبيل ، وقد ختم هذه الخطبة بقوله : « ليكن الفقيد لنا فى حياته ، ورجاحة عقله ، وميوله وعلومه الجامعة ، وفى شخصيته الكريمة المخلصة ، وفيما حاز من علم وشرف مثالا حسناً نقتدى به للوصول إلى غرضنا المشترك ، وغايتنا الوحيدة التى هى ترقية العلوم » .

هذه هى حياة الدكتور رفرز وصفناها لك على وجه الاجمال ، والان نود أن نذكر لك خلاصة آرائه فى علم النفس على العموم ، وفى الأحلام على الخصوص ، فنقول :

إن التجارب العديدة التى قام بها رفرز وآخران (١) قد أثبتت له أن الحساسية الانسانية

---

[1] H. Head and G. Sherren.

نوعان : نوع يسمى الحساسية العامة الأولية (١)،وآخر يسمى الحساسية الظاهرية الدقيقة (٢)؛ وقد ظهر له أن موضع الأولى هو طبقات الجلد الباطنية ، بينما أن موضع الثانية هو طبقات الجلد الظاهرية ، وإنما سميت الأولى أولية عامة لأنها أبسط وأوفى منزلة فى سلم الرقى ، يشترك فيها الانسان والحيوانات العليا والدنيا ، وسميت الثانية ظاهرية لأن موضعها طبقات الجلد العليا وتظهر فى الحيوانات العليا ولا سيما الانسان؛هذا إلى أنه من الممكن إدراكها إدراكا تاماً ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، وتحديد موضعها بالضبط ، ومن خواصها : عدم ظهور أثرها عند المرض ، وفى الأحوال غير العادية ، وأثناء عمل بعض العمليات الجراحية .

كان لهذه التجارب آثارها فى آراء رفرز فى المجموع العصبى والعقل ، فهو يرى أن الرابطة وثيقة بين هذين ، لدرجة أنه من الممكن تفسير أية حادثة نفسية بارجاعها إلى أسباب جثمانية ، وبيان مشابهتها لحادثة جسمية ؛ فالعقل تابع للمجموع العصبى فى تطوره وأحواله على العموم؛فاذا كمل هذا كمل ذلك،وأى نقص أو خلل فى تكوين الأول ينشأ عنه ـ ولا محالة ـ نقص أو خلل فى أحوال الثانى ؛ وبذلك يظهر ارتباط علم النفس بعلم وظائف الأعضاء تمام الارتباط ، وتوقف سلوك العقل على أحوال المجموع العصبى تمام التوقف .

هذه هى النظرية الأساسية التى بنى عليها رفرز آراءه فى العقل ومظاهره .

فالعقل عنده كالمخ ، والمجموع العصبى يتكون من طبقات ظاهرية عليا،وأخرى سفلى ؛ فالعليا تكونت على مر الأجيال والقرون ، وكانت نتيجة للتطور الانسانى ، وتدرجه فى سلم الرقى ، أما الطبقات السفلى فهى الطبقات الأولية التى توجد فى الانسان والحيوان معاً ، وإن كانت تختلف فى الحيوانات تعقدا ورقياً باختلاف منزلتها من السلسلة الحيوانيه .

والسلوك الانسانى بناء على هذه النظرية نوعان:(١) سلوك راق دقيق خاضع للفكر الراقى والروية ، وهو الذى تضبطه طبقات العقل العليا ، ويرتبط بطبقات المخ الظاهرية الدقيقة الحساسية ، (٢) سلوك ساذج ابتدائى ، وهو المتصل بطبقات العقل السفلى الخاضع لتصرفات الطبقات السفلى من الجهاز العصبى .

ويقول رفرز بتطور الغرائز وانقسامها إلى قسمين : أولية وعليا ، أو Protopathie و Epicritie ؛ فالأولية هى التى يكون الغرض منها حفظ الذات والنسل ، كغرائز البحث عن الطعام والخوف والمقاتلة والغريزة التناسلية ، ومن الغرائز العليا الغرائز الاجتماعية ، وأرقاها غريزة حب الاختلاط ، التى ينشأ فيها نزعات ثلاث هامة هى : التقليد ، والمشاركة الوجدانية ؛

---

[1] Protopathie Senbilility.

[2] Epicritie Sensibility.

والاستهواء ؛ فالتقليد يمثل الناحية النزوعية لغريزة حب الاختلاط ، والمشاركة الوجدانية تمثل ناحيتها الوجدانية ، والاستهواء يمثل الناحية الفكرية أو الادراكية ؛ ويرى الدكتور رفرز أن هذه النزعات الثلاث ضرورية لتقدم النوع الانسانى ، ورقى العقل البشرى من نواحيه الثلاث : الارادية ، والوجدانية ، والادراكية .

ومن آراء رفرز – التى بذل مجهوداً كبيراً فى الدفاع عنها ، والبرهنة على صحتها – أن هناك علاقة متينة ، ورابطة قوية بين طبقات المجموع العصبى العليا من ناحية ، وبين طبقات العقل العليا من ناحية ثانية ، وبين الغرائز الاجتماعية والعواطف من ناحية ثالثة ، وبين السلوك الانسانى الراقى من ناحية رابعة ؛ فهذه الأربعة مرتبطة تمام الارتباط ، وكل منها يسمى فى اصطلاح رفرز Epicritie .

كما أن طبقات المجموع العصبى ، وطبقات العقل السفلى ؛ والغرائز الدنيا وما يتبعها من وجدانات وانفعالات ، والسلوك الانسانى الانبعاثى الشهوانى ؛ كل هذه شديدة الاتصال بعضها ببعض ، وتسمى « Protopathe » .

بعد أن يثبت رفرز أن للعقل ناحيتين : عليا ، وسفلى ؛ وبعد أن يبين علاقة هاتين الناحيتين بالغرائز ، ويثبت ارتباطهما بالمجموع العصبى ، يتوسع فى بحث السلوك الانسانى ؛ فيقسمه إلى : راق ، وساذج ؛ فالأول هو الخاضع لذكاء الانسان وغرائزه الاجتماعية المهذبة ، ويتجلى بأجلى مظاهره فى الانسان اليقظ المفكر المدبر ، الذى يفكر بعقلية الرجل المهذب ، ويخضع غرائزه الذاتية للغرائز الاجتماعية ، ويسعى فى إدخال السرور على غيره ، كما يسعى فى سرور نفسه .

أما الثانى فهو الخاضع للغرائز الدنيا ، وأظهر ما يكون فى الانسان المتوحش أو الأنانى الغارق فى لذاته الصبيانية ، الساعى فى إرضاء شهواته ، والحصول على رغباته بجميع الوسائل الممكنة .

وإن الانسان العاقل ليسلك المسلك الأول – وإن كلفه المشاق ، وجلب عليه المضار – ؛ ولا يسلك المسلك الثانى إلا كل غر ضعيف التفكير ، حقير النفس ؛ أو ضعيف العقل ، أو سيىء الفهم ؛ غير أن كثيراً من الناس يسلكون المسلكين ، ويطرقون النجدين ؛ ففى حالة الهدوء العقلى ، والسكون العصبى يسلكون الأول ، وفى الأحوال غير العادية يرجعون إلى الطبيعة الأولى ، ويتقهقرون إلى مرتبة السلوك الساذج ، ويسمى هذا فى اصطلاح رفرز « السلوك التقهقرى أو الرجوعى Regressive » ، ويبلغ السلوك التقهقرى غايته فى الأحوال غير العادية – كأثناء النوم ؛ أو التنويم المغناطيسى ، وعند الاضطرابات ، والأمراض العصبية .

ومن ذلك يتبين لك أن السلوك الراقى خاضع لما يسمى « العقل اليقظ » فى اصطلاح علماء النفس التحليلى : أما السلوك التقهقرى فخاضع لما يسمى بـ « العقل الباطن »

فالدكتور رفرز يوافق الدكتور سيجمند فرويد وأتباعه على وجود ناحيتين للعقل : إحداها ظاهرة يقظة ، والثانية باطنة فى حالة خمود أو سكون ، إلا أن هذين العالمين يختلفان فى أمور ، منها :

أولا — أن رفرز يتوسع فى محتويات العقل الباطن ، فلا يقصرها على التجارب التى كانت من نصيب المرء فى عهد طفولته ، بل يدخل فيها جميع التجارب والذكريات التى تنتقل من الشعور إلى اللاشعور ــ إما بنفسها وإما بكبتها ــ قصداً ، وذلك حيث يقول : « إن هذا العصر (أى عصر الطفولة) صالح ــ بصفة خاصة ــ لأن يهيء الفرص للتجارب الشعورية فتصير لاشعورية ، ولكن انتقال التجارب إلى عالم اللاشعور قد يحصل فى أى عصر من عصور الحياة الفردية ؛ وقد لفت الأنظار ــ إلى حد بعيد ــ حدوث هذه الظاهرة على أثر تجارب الحرب العظمى وفظائعها ... فقد شوهد ــ فى كثير من الأحوال ــ أن الجنود قد نسوا ــ تمام النسيان ــ حياتهم التى حيوها من قبيل الاصابة باغماء شديد، أو جهد عميق ، إلى أن وجدوا أنفسهم فى المستشفيات بعد الاصابة ببضعة أسابيع ، هذا مع أنهم كانوا أثناء جزء من هذه المدة — على الأقل — فى حالة شعور عادى على حسب الظاهر ، وأن ما حدث لهم أثناء هذه المدة قد يبقى مدفوناً فى عالم اللاشعور ، محجوباً عن عالم الشعور — شهورا بل سنين متوالية — بحيث لا يمكن تذكر شيء منه إلا باحدى طرق التحليل النفسى، كالتنويم المغناطيسى ، وتداعى المعانى المطلق »(١).

ثانياً — لا يشبه رفرز اللاشعور — كما يفعل فرويد وأتباعه — بحجرة أو مخدع يفصله عن الشعور فاصل ، له باب عليه رقيب (٢) ، يمنع محتويات اللاشعور من الدخول إلى حظيرة الشعور إلا إذا احتالت عليه ، وتزيت بغير أزيائها الحقيقية ، ولكنه يقول : إن للعقل طبقات ظاهرية عليا دقيقة ، وأخرى باطنية سفلى ساذجة — كما سبق شرحه — ، فالأولى هى التى تعمل وتظهر آثارها فى الأحوال العادية وقت اليقظة ، فاذا بطل عملها ، أو حيل بينها وبين وظائفها لسبب من الأسباب — كالاضطراب العصبى ، والنوم ، والتنويم المغناطيسى — حلت محلها الطبقات السفلى ، ويكون سلوك الانسان فى هذه الحالة خاضعاً لظاهرة خاصة تسمى التقهقر أو الرجوع « Regression » ؛ يريد بذلك الرجوع إلى الحياة الأولية البسيطة ، فتظهر التجارب الساذجة التى صادفها الفرد أو النوع فى حياته الماضية .

[1] See Instinct and The Unconscious P.P. 13-14. [2] Sensor.

ثالثا — أن رفرز لا يعنى بالغريزة الجنسية عناية فرويد وأتباعه بها ، فلا يقول كما يقول هؤلاء : إن الرغبات المكبوتة التى تظهر فى الأحلام ، والتى ينشأ عنها الأمراض العصبية والاضطراب العقلى هى ميول جنسية فى الغالب، ولكنه يقول : إن أية تجربة مؤلمة ـ أيا كان نوعها ـ صالحة لأن تنتقل من الشعور إلى اللاشعور ، وتكون سبباً فى حلم أو مرض عصبي ، وفى هذا يقول ـ مشيراً إلى التجارب التى قام بها ، والحوادث التى شاهدها وهو يعالج بعض المصابين بأمراض عصبية أثناء الحرب العظمى ـ :

« فلدينا الآن من الأدلة العديدة ما يبرهن على أنواع الشلل، وانقباض العضلات، والخوف والذعر ، وغيرها من الأمراض التى كان يعتبرها فرويد وأتباعه نتائج ميول جنسية مكبوتة ، تحدث كثيراً لأشخاص يظهر أن حياتهم الجنسية عادية ليس فيها شذوذ مطلقا، وأنهم لم يكونوا بحالة غير عادية عرضة للهموم الجنسية التى نراها شائعة فى عصر الحضارة الحديثة، وعلى الأخص بين طبقات المجتمع التى تتمتع بقسط أوفر من الراحة » .

ثم يقول بعد ذلك : « إذا تسنى لنا أن نهتدى بهدى النتائج التى شاهدناها ، فمن الحق أن تقول : إن مظاهر بعض الأمراض السالفة الذكر وأعراضها، تذهب وتختفى آثارها بدون تعرض لنقل عقد وجدانات ، أو وجدانات جنسية من اللاشعور إلى الشعور ، بينما أن أمراضا أخرى من النوع نفسه تبقى ولا تزول آثارها على الرغم من الوصول إلى أعماق نفس المريض ، والعثور على عقد رغبات جنسية وغير جنسية مكبوتة ، يرجع عهدها إلى ما قبل الحرب » (١) .

يريد رفرز بذلك أن يبرهن على أن كثيراً من الأمراض العصبية التى أصيب بها الجنود أثناء الحرب العظمى يرجع فى الغالب إلى كتم أفكار ووجدانات مؤلمة ، نشأت عن التجارب القاسية التى صادفها هؤلاء الجنود أثناء الحرب العظمى وأهوالها . وما لازمها من هياج واضطراب ومواقف خطيرة ؛ إذ كانوا يسمعون قصف المدافع ورعدها من حين لآخر ، ويرون انفجار القنابل ونيران القذائف على مقربة منهم ، ويشاهدون بأعينهم إخوانهم والموت يحصدهم حصدا فلا يبقى منهم ولا يذر ؛ وقد كان أعداؤهم يباغتونهم وهم فى خنادقهم فيبقون فيها طويلا بدون أكل ولا شرب ولا ضوء، ولا سبيل إلى الاتصال بأقرانهم وقوادهم .

هذه التجارب القاسية التى وقعت لهؤلاء الجنود فى الماضى القريب ـ لا تجاربهم فى الماضى البعيد أيام الطفولة ، ولا وجداناتهم الجنسية المكبوتة ـ هى المسئولة فى نظر رفرز عن الأمراض العصبية وما يتبعها من الأمراض الجسمية التى أصابت هؤلاء الجنود ، والتى كانت

---

[1] See Instinet and The Unconscious P.P. 165-166.

سبباً فى كثير من الأحلام المزعجة التى كانوا يرونها وهم نائمون .

رابعاً — أن رفرز لا يقصر وظيفة الأحلام على تحقيق الرغبات المكبوتة بطريقة رمزية ، ولكنه يقول إن كثيراً من الأحلام يخضع للظاهرة السابقة ـ ظاهرة التقهقر ـ التى تخضع لها جميع الأحوال العقلية الشاذة تقريباً ؛ فالأحلام التى يعتبرها فرويد وأتباعه رموزاً لرغبات مكبوتة تعد فى رأى رفرز تجارب من النوع الذى يحصل للانسان فى عهد طفولته ، أيام أن كانت أفكاره أشبه شيء بالأوهام البسيطة الساذجة ، أو من النوع الذى حصل للانسان الأول ، أو لابائه وأجداده فى أطوار حياتهم الأولى ؛ فاذا رأى الانسان فى نومه أنه يطير ، أو أن شجرة تتحرك نحوه ، أو أن ثعباناً يهاجمه ؛ فهذه الأحلام وما أشبهها ذكريات عن العصر الماضى عادت للانسان كما هى أو بتعديل بسيط أساسه امتزاج العناصر والحوادث بعضها ببعض امتزاجاً ناشئاً عن عدم التمييز أو نقصه أو تداعى المعانى ، وهذه ـ كما ترى ـ من خصائص التفكير عند الأطفال والانسان المتوحش ، وهاك ما قاله رفرز فى هذا الصدد :

« وهناك من الأسباب الكثيرة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الأحلام تمثل تجارب الطفولة الأولى ، وليس معنى ذلك أن موضوعات الأحلام مأخوذة من تجارب الطفولة الأولى ، ولكن معناه ـ على الأحرى ـ أن أية تجربة يحلم بها الانسان تتشكل بحيث يكون ما فيها من وجدانات ، أو إدراكات ، أو نزعات ، أو أعمال أشبه شيء بوجدانات الطفولة وإدراكاتها ونزعاتها ؛ وظهور الأحلام بهذه الصفة فى دائرة الشعور يرجع بالطبع إلى زوال رقابة الطبقات العليا العقلية أو ضعفها أثناء النوم ، فحينئذ تظهر الطبقات السفلى إلى الطبقات العليا ، فيتسنى لها أن تظهر بمظهرها الطبيعى (الملائم لعصر الطفولة الفردية أو النوعية) ، فأوهام الأحلام وخيالاتها وخروجها عن قوانين المنطق ليست ناشئة عن تحول الرغبات المكبوتة بتلك الطريقة المنظمة التى يصفها فرويد ويعزوها إلى تداخل كائن شيطانى (الرقيب) ، وإنما هى ـ على الأحرى ـ نتيجة مباشرة لنشاط أنواع أخرى من أنواع السلوك العقلى كانت تمنعها من الظهور الطبقات العقلية العليا ، أو التجارب التى حصل عليها الانسان فى أدوار حياته اللاحقة لدور الطفولة » (١) .

هذا هو رأى رفرز فى الأحلام لخصناه لك ، وهو يقرب من رأى يونج (٢) العالم السويسرى الشهير الذى سنحدثك عنه فى عدد آخر إن شاء الله تعالى .

حامد عبد القادر

---

[1] Sec Instinet and The Unconsious P.P. 230-1

[2[Dr. C. G. Jung. See McDougall's An Outline of Abnomal Psychology P.P.188.

ما مصير الكون؟

أعطني الطرس لأبكي   من ثناياه الدموع
فدموع الطرس تزكي   شجوَنا وقت الهجوع
إن عصانا الدمع يجري   أنهراً بين الضلوع
ما هتون الدمع إلا   نفثة القلب الجزوع

***

أعطني الطرس لأرثي   «حافظاً» في من رثاه
قد أصاب الشعر سهم   قيل: هل ينسى لظاه؟
أم ذوي زهر سقاه   سلسبيلا من مناه
قلت: كلا فهو زاه   ما سما نبل الحياة

***

أعطني الطرس أناجي   روحه بين الغصون
كم شدا في أيكها كم   هز أوتار الشجون
كم حبا النيل سلافاً   مهجة القلب الحنون
كم غزا بالعزم باغ   لم يزل فينا يخون

***

أعطني الطرس ودعني   من خؤون أو نذير
ما استراح الليث لما   فر من نار ونير
ذي مآسي الدهر إما   نصطلي أو نستجير
ما مصير الكون طرّاً؟   لست أدري ما المصير

مأمون محمد منصور

الثقافة الاسلامية المدرسية

ونظامية بغداد

بقلم الاستاذ مصطفى جواد (بغداد)

إن اتخاذ بناية وتعيين مدرس أو أكثر فيها لتدريس جماعة من طلاب العلم يحضرونها أو يقيمون فيها وينفق عليهم صاحبها أو يحبس عليهم من ماله وعقاره ، لم يكن ذلك معروفاً في صدر الاسلام ، وإنما المعروف من مواضع التعليم « المكتب » و « الكتَّاب » ، فقد جاء في الأخبار قول عبد الله بن مسعود الصحابي « لقد أخذت القرآن من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لغلام في الكتَّاب له ذؤابة » . وقال أُبيّ بن كعب « لقد قرأت القرآن وزيد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود في المكتب [1] » .

وكان المسلمون في المدينة قد رأوا لليهود فيها « مداريس » وهي جمع « مدراس » يعلمون فيها صبيانهم قراءة التوراة ويكتبونهم الخط العبري ، ولذلك قيل في زيد « يلعب بين صبيان اليهود في المكتب » ، وجاء في حديث عليّ أنه رأى قوماً قد سدلوا ثيابهم وهم في الصلاة فقال : « كأنهم اليهود خرجوا من فُهرهم » ، قال أبو عبيدة في تفسير الفهر « بضم الفاء موضع مدراسهم الذي يجتمعون فيه كالعيد يصلون فيه ويسدلون ثيابهم [2] » ، وفي رواية « خرجوا من فهورهم (٣) » ، فالمدراس عندهم كالمدرسة عند متمدني المسلمين المتأخرين ، قال الزمخشري « واجتمعت اليهود في مدراسهم ، وهو بيت تدرس فيه التوراة » وقال ابن الأثير : « المدراس هو البيت الذي يدرسون فيه ومفعال غريب في المكان (٤) » ، ومن ذلك العهد كثرت المكاتب والكتاتيب في بلاد الاسلام ، ومن آثار ذلك ما روى في أخبار أشعب الطماع ، أنه مر بمكتب وغلام يقرأ على الأستاذ « إن أبي يدعوك » فقال أشعب : « قم بين يديّ حفظك الله وحفظ أباك » فقال الغلام : « إنما كنت أقرأ وردي (٥) » ، وقالوا في أخبار عبد ربه الصغير الخارجي زمن عبد الملك بن مروان « إنه كان معلم كتَّاب (٦) » ، وكان المكتب أيضاً يطلق على محل الكتابة الخاص ، فقد جاء في أخبار أبي حنيفة النعمان بن ثابت أنه دخل المدينة فأتى أبا عبد الله الصادق جعفراً فسلم عليه قال هو : « ورأيت ابنه موسى في دهليزه قاعداً في مكتبه وهو صغير السن (٧) » .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد « ١ : ٢٣٧ » و « ٤ : ٤٥٩ » (٢) الشرح « ٤ : ٣٦١ » (٣) نهاية ابن الاثير « ٣ : ٢٢٠ » (٤) أساس البلاغة والنهاية « ٢ : ٢٠ » (٥) الشرح « ٤ : ٣٢٨ » (٦) الشرح « ١ : ٤٠٣ » (٧) أمالي المرتضى « ١ : ١٠٥ » .

وبقيت هذه الحال فى صدر الدولة العباسية وأواسطها ؛ قال النضر بن شميل: «كنا ثلاثة فى كتَّاب واحد أنا وأبو زيد الأنصارى وأبو محمد اليزيدى(١)»،وقيل فى ترجمة أبى الحسن محمد بن عبد الله السَلامِى الشاعر المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، إنه قال شعراً وهو فى المكتب (٢) ، ولما انتقلت المدارس العالية بالمعنى من البيوت والمساجد إلى المدارس الكبيرة بالاسم والحقيقة بقى المكاتب والكتاتيب على عهدها السابق ؛ فكانت بمثابة مدارس الاستعداد والتجهيز والابتداء اليوم ، ولسنا نعنى بانتقال المدارس من البيوت والمساجد إلى مواضعها المصطلح عليها انقطاعها بمرة من البيوت والمساجد ؛ فذلك ليس بمراد لأننا نرى فى كتب التاريخ من يقول : «قرأت عليه الكتاب الفلانى بداره» و «سمعت منه كذا فى المسجد الفلانى» فى حين كانت المدارس منتشرة بهيئتها المعلومة ، ومن ذلك قول عبد الحميد بن أبى الحديدفى خبر نبش القبور الأموية «قرأت هـذا الخبر على النقيب أبى جعفر يحيى بن أبى زيد العلوى بن عبد الله فى سنة خمس وستمائة وقلت له(٣)» ، وقال فى موضع آخر «حضرت عند محمدبن معد العلوى فى داره ببغداد وعنده حسن بن معالى الحلى المعروف بابن الباقلاوى وهما يقرآن هذا الخبر (٤) وهذه الأحاديث من تاريخ الطبرى ...» ، وقال فى موضع ثالث «حضرت عند محمد بن معد العلوى الموسوى الفقيه على رأى الشيعة الأمامية ــ رحمهم الله ــ فى داره بدرب الدواب فى سنة ثمان وستمائة وقارىء يقرأ عنده مغازى الواقدى(٥)»، وكانت المدارس ببغداد إذ ذاك نحو الثلاثين مدرسة،ومامنها مدرسة إلا وهى يقصر الوصف عنها (٦)،منها النظامية والتتشية ، والثقتية، والجيلية،والحنيفية،ودار الذهب الأصبهذية،والكمالية،والسهروردية ، والناصرية ، والتاجية ، فذلك الأسلوب من التعليم لم ينقطع استفحاله إلا فى هذا العصر ، ولم يبق منه إلا شىء قليل بحكم النادر .

وأول من أسس المدارس على هيئتها المعلومة ــ التى أشرنا إليها ــ السيد الشريف الرضى محمد ابن أبى أحمد الحسين الموسوى شاعر قريش المشهور المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، فقد كان متخذاً لتلاميذه دارا بالكرخ وسماها «دار العلم» ؛ وعين للطلاب جميع ما يحتاجون إليه،قيل : أرسل إليه الوزير المُهلّبى الحسن بن محمد بألف دينار ، فردها إليه أولى وثانية ، فبعث بها المهلبى ثالثة وقال فى رسالته : «يفرقها الشريف على ملازميه من طلاب العلم» ، فلما أحضر طبق الدنانير بين الطلاب قال الشريف للرسول : «ها هم حضور فليأخذ كل أحد ما يريد» ؛ فقام رجل وأخذ دينارا فقرض من جانبه قطعة وأخذها ورد الدينار إلى الطبق . فسأله الشريف

---

(١) الوفيات «١ : ٢٢٣» (٢) الوفيات «٢ : ١٠٣» (٢) الشرح «٣ : ٢٠٥» (٤) خبر غسل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتكفينه (٥) شرح ابن أبى الحديد «٣ : ١٩٢، ٣٩٠» (٦) رحلة ابن أبى جبير ص ٢٠٧

عن ذلك فقال : « احتجت إلى دهن للسراج ليلة ولم يكن الخازن حاضراً فاقترضت من فلان البقال دهناً وأخذت هـذه القطعة لأدفعها إليه » ، فأمر الشريف فى الحال بأن يتخذ لخزانة الحاجات مفاتيح بقدر عدد الطلبة ليأخذ كل ما يحتاج إليه ولا ينتظر خازناً ، ورد الطبق على هذه الصورة (١) ، هكذا كان طلاب العلم وقبسة العرفان ، ودار العلم هذه غير دار العلم التى اتخذها أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى المتوفى سنة ٤١٠ هـ ، فان هذه كانت خزانة كتب يردها ظماء العلم وعطاش الحقائق (٢) ، قلنا ذلك لأن الدارين كانتا ببغداد بالجانب الغربى فوجبت إزالة الالتباس .

فيظهر للمتحرى أن دار العلم الرضوية هى المدرسة الأولى فى نوعها ، ولكنها لم يطلق عليها اسم « المدرسة » ، وقد أخطأ قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان حيث قال عن نظام الملك الحسن بن على الطوسى المقتول سنة ٤٨٥ ما نصه « وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس » ، فبين وفاة الشريف ووفاته مدة ٧٩ سنة ، فأين يقع هذا القول من الحقيقة ؟

المدرسة النظامية ببغداد

شرع فى عمارتها نظام الملك المذكور فى سنة ٤٥٧ فى شهر ذى الحجة منها وانتهى منها سنة ٤٥٩ ، وفتحت يوم السبت عاشر ذى القعدة من السنة ، وكان نظام الملك أمر أن يكون المدرس فيها أبو اسحاق ابراهيم بن على الشيرازى ، وشرط فى أمرها أن لا يدرس فيها إلا شافعى ، وكان الوزير قد قرر مع أبى اسحق الشيرازى الحضور يوم افتتاحها للتدريس فلم يحضر ، وكان الناس قد حضروا المدرسة على اختلاف طبقاتهم فبحثوا عنه فلم يجدوه ، فاستدعى الوزير للتدريس فيها أبا نصر عبد السيد بن محمد المعروف بابن الصباغ ورتبه فيها مدرساً ، ثم ظهر الشيخ أبو اسحق الشيرازى فى مسجده الذى كان يدرس فيه ، وتغير عليه أصحابه بسبب فعلته وفتروا عن حضور دروسه وراسلوه فى أنه إن لم يدرس بالنظامية مضوا إلى ابن الصباغ وتركوه ، فأجابهم إلى ذلك وعزل ابن الصباغ من المدرسة بعد تدريسه عشرين يوماً (٣) .

قيل : ولما بلغ علماء ما وراء النهر خبر بناء النظامية اتخذوا للعلم مأتماً وحزنوا على سقوط حرمة العلم وقالوا : « إن العلم ملكة شريفة فاضلة لا يتطلبها إلا النفوس الشريفة الفاضلة لجاذب الشرف الذاتى والمناسبة الطبيعية ، ولما جعل عليه أجرة تتطلبه النفوس الرذلة وتجعله مكسباً لحطام الدنيا ، ويتزاحم عليه لا لتحصيل شرف العلم ، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية ، فيرذل العلم برذالتهم ، ولا يشرفون بشرفه » ، ألا ترى إلى علم الطب ، فانه مع كونه

(١) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب « ص ١٨٥ — ٦ » (٢) الوفيات « ١ : ٢١٧ » وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٢٣ ، ومعجم البلدان في مادة « بين السورين » (٣) الوفيات « ١ : ٣ ، ١٥٧ ، ٣٢٩ » ، ونكت الهميان ص ١٩٣ ، والاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٨١ ، والسيوطى ص ٤٣١ .

علماً شريفاً تعاطته أراذل اليهود فأزروا بشرف علم الطب. وهذا حال أكثر طلبة العلم في هذا الزمان الفاسد (١) . . . وقد شاع اسم المدرسة بظهور النظامية كما ظهرت دار الحديث ودار القرآن في التسمية .

نهج المدرسة النظامية

إن مراد القدماء بلفظ العلم هو الدين وما يؤيده ويمهده لا العلم المطلق المضاد للجهل كما هو في عصرنا ، فكان نهج النظامية قاصدا إلى غايات خمس هي (ا) تدريس مذهب الشافعي مع علم الخلاف بينه وبين المذاهب الأخرى (ب) تدريس علم العربية من لغة ونحو وصرف (ج) تدريس التفسير بفروعه (د) الوعظ في المدرسة والحث على التمسك بالشريعة (هـ) المحاضرات والمناظرات والمراجعات في الأمور المشكلة وذات الاختلاف .

كان مدرس النظامية واحداً في أول أمرها ـ كما مررنا به ـ وبمرور الزمان برزت شدة الاحتياج إلى أكثر من مدرس ، فصارت يعين لها « مدرس دين وفروعه » ومدرس لغة ونحو ، ومعيد وهو معاون للمدرس يعيد درسه على التلاميذ ليسمعوه جيدا ويستمكن من أذهانهم ، وعين لها واعظ مشهور ، وجعل فيها خزانة كتب مخطوطة بأقلام مشاهير الكتاب ، وكان يقيم فيها العلماء والشعراء الغرباء ويستعينون بأوقافها ، وكان المدرس يجلس على سدة التدريس ويرتدي الطرحة وهي كالطيلسان ، وعند تعيين المدرس يخلع عليه ، وبعد ما كان العلماء يتورعون عن تولي منصب التدريس ويزهدون فيه كل الزهد ، جاء زمان قوم يتنافسون في الدنيا ويتسارعون إلى تولي المنصب ، بل منهم من انتقل من مذهب إلى آخر للحصول على المنصب ، كان المبارك بن أبي طالب المبارك المعروف بابن الدهان الوجيه الواسطي حنبلياً وتفقه على مذهب أبي حنيفة ، فلما شغر منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية انتقل إلى مذهب الشافعي ليليه ، فقال فيه مؤيد الدين أبو البركات بن زيد التكريتي :

ومن مُبلغ عني الوجيه رسالة وإن كان لا تجدي إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت قول الشافعي تديناً ولكنما تهوى الذي منه حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر إلى مالك فافطن لما أنا قائل (٢)

أحوال المدرسة النظامية

قال ابن جبير بعد دخوله بغداد سنة ٥٨٠ في المدارس: «وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات

---

(١) الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٨١ ، والزمان المذموم زمان قطب الدين الحنفي مؤلف الاعلام .
(٢) كتابنا « الجذور الضائعة من الحوادث الجامعة سنة ٦١٢ » وهو من الكتب المخطوطة .

محبسة تصير إلى الفقهاء ، ويجرون منها على الطلبة ما يقوم بهم ؛ ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح » ، وقال فى الوعاظ والفقهاء «فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية ، والمشار إليه فى العلوم الأصولية؛حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور،فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة فتوقّقوا وشوّقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة،ثم اندفع الشيخ المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف فى أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله ـ عز وجل ـ وإيراد حديث رسوله والتكلم على معانيه ، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصر ... ودفعت إليه عدة رقاع فيها(.؟) فجعل يجاوب على(١) كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجمع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ، ظهرت فيه البركة والسكينة . . . وشهدنا له مجلساً ثانياً إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثانى عشر من الشهر المذكور ، وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية ورئيس الأئمة الشافعية ، ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آماق تشوقت له النفوس ، فأخذ الامام المتقدم الذكر فى وعظه مسروراً بحضوره ومتجملا به فأتى بأفانين من العلوم على حسب [illegible] المتقدم الذكر ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين (٢) الخجندى (٣)» .

وفى سنة ٥٨٩ ، أمر الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها (٤) ، وفى سنة ٦٤٦ غرقت المدرسة النظامية مع ما غرق من بغداد بفيضان دجلة ، وبلغ علو الماء فيها ست أذرع ، ثم غرقت سنة ٦٥٣ فوقع حائط رواقها ، وفى سنة ٦٧٠ احترق سوقها جميعه وهلك فيه كثير ممن كان فى الغرف وذهب من أموال الناس شىء كثير ، فأمر صاحب ديوان العراق علاء الدين عطا ملك الجوينى بعمارته من حاصل أوقافها (٥) .

وفى سنة ٦٧١ جلس الخواجة شرف الدين هرون بن الصاحب شمس الدين محمد الجوينى صاحب ديوان الممالك الايلخانية على السدة بالمدرسة النظامية وألقى دروساً ، وكان قد حضر المدرسة كافة أرباب الدولة والمدرسون والعلماء والفقهاء ليستمعوا دروسه ، وكان عمه مع الحاضرين ، ولما دخل محمد بن بطوطة بغداد أى سنة ٧٢٧ هـ كانت النظامية عامرة ، وقد

(١) يجاوب عليها : اى يكتب عليها جواباً ولذلك لم يقل « يجاوب عنها » لانه فى معنى آخر (٢) منسوب الى خجندة بما وراء النهر قيل : قتله سنقر الطويل سنة ٥٩٢ هـ في فتنة اصبهان (ابن الاثير ١٢ : ٥٢) (٣) رحلة ابن جبير (ص١٩٧ ــ ٨ ــ ٩ و٢٠٨) (٤) ابن الاثير « ١٢ : ٤٣ » (٥) الحوادث الجامعة في المائة السابعة .

أشار إليها فقال : « وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق تعرف بسوق الثلاثاء (١) كل صناعة فيها على حدة ، وفى وسط هذه السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الأمثال تضرب بحسنها، وفى آخره المدرسة المستنصرية »؛ ومن هذه الكلمة القصيرة تقف على تقصير ابن بطوطة فى وصف مدارس بغداد بعكس ابن جبير، مع أن الأول كثيراً ما أطنب وأسهب فى وصف جمال الولدان والنساء فى بعض البلدان .

وفى سنة ٧٣٩هـ ، أى بعد دخول ابن بطوطة الأول لبغداد ذكرها « حمد الله المستوفى » المؤرخ الفارسى فى كتاب «نزهة القلوب» الجغرافى ، وكناها «أم المدارس» فى بغداد (٢)، وجاء ذكرها مع ذكر على بن أبى القاسم أحمد القزوينى المدرس بها المتوفى سنة ٧٤٠ .

ثم إن الرحالة الألمانى « نيبهر كارستين » لما قدم بغداد فى منتصف القرن الثامن عشر للميلاد لم يجد للنظامية أثراً فيصفه مع ما وصفه من الآثار والأطلال (٣) ، وأسباب الزوال كثيرة فى أيام بغداد الأخيرة أيام التعصب الدينى والسياسى والجهل ونبذ العلم، ولاسيما فى عهد ولاة الأتراك الجهلة الظلمة ؛ وببغداد اليوم منارة فى زقاق من محلة باب الأغا لم تبق إلا قاعدتها وليس حواليها إلا البول والغائط ذهب بعضهم إلى أنها بقية منارة المدرسة النظامية ، وهو مذهب لا يرفضه العقل ، ولكن يقبل غيره ، لأن المؤرخين الخططيين ذكروا أن المدرسة التتشية (وتعرف بالبهائية أيضاً) كانت فى جوار النظامية ، فيجوز أن بقية المنارة منها أو من مسجد، ووضع المؤرخ الانجليزى لسترنج فى كتابه «بغداد على عهد الخلافة العباسية» رمز النظامية فى إحدى خرائطه « على شاطىء دجلة » بما يقرب اليوم من شريعة السيد على السلطان، وهذا من الغلط الواضح، لأن النظامية كانت بمحلة نهر المعلى ببغداد ، قال أبو القاسم مكى بن عبد السلام المقدسى فى موت الخطيب المؤرخ البغدادى « وأخرجت جنازته من حجرة تلى المدرسة النظامية من نهر المعلى (٤) » ، قال ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ ما صورته « نهر المعلى ، وهو اليوم أعظم وأشهر محلة ببغداد ، وفيها دار الخلافة ، وهو نهر يدخل من باب ييبرز ، باق إلى الآن مستمدة من الخالص (٥) ، فيسير تحت الأرض حتى يدخل دار الخلافة ، وهو المسمى بالفردوس منسوب إلى المعلى بن طريف» ، وقال صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٣٩ ما نصه « ولا أثر له الآن والمحلة المذكورة هى من عقد الحديد إلى العقد المصطنع فى الشارع الأعظم ، ومن الريحانيين وباب النوبى إلى باب جامع القصر إلى العقدين، وفيه السوق والدكاكين (٦) » وهذا ما يستحيل به كون النظامية على دجلة ، ولعل سبب

(١) هو اليوم سوق الميدان الممتد الى قرب جامع مرجان المنعطف نحو الغرب ويعرف بسوق البزازين
(٢) لسترنج ص٢٩٩ (٣) لسترنج ص٣٠٠ (٤) معجم الادباء «١ : ٢٥٩» (٥) الصواب «من نهر بين» كما فى تاريخ بغداد للخطيب ومناقب بغداد لابن الجوزى (٦) مراصد الاطلاع على الامكنة والبقاع ص٢٠٧

غلط هذا المؤرخ العلامة أن الخططيين ذكروا فى وصف القرية إحدى محال بغداد الغربية « أنها فى الجانب الغربى مقابل مشرعة سوق المدرسة النظامية » فظن أنها مشرعة المدرسة وما هى إلا مشرعة سوقها .

مدرسو النظامية المشهورون

أبو اسحق ابراهيم بن على الشيرازى المذكور (٣٩٣ - ٤٧٦ هـ) ، أبو نصر عبد السيد ابن الصباغ المتقدم خبره (٤٠٠ - ٤٧٧) ، أبو سعيد المتولى عبد الرحمن النيسابورى (٤٢٦ أو ٧ - ٤٧٨) ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالى (١) (٤٥٠ - ٥٠٥) ، أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالى (٥٢٠) ، أبو الفتح أسعد بن أبى نصر المهينى (٥٢٧) ، أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى (٤٢١ - ٥٠٢) ، معين الدين أبو منصور سعيد بن محمد الرزاز (٥٣٩) ، على بن محمد الفصيحى (٥١٦) ، أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى (٤٦٦ - ٥٣٩) ، وأبو الحسن على بن محمد الكياهراسى (٤٥٠ - ٥٠٤) ، أبو نصر أحمد ابن عبيد الله الشاشى ، درس سنة ٥٦٦ ، وعزل سنة ٥٦٩ ، رضى الدين أبو الخير أحمد بن اسماعيل القزوينى المشار إليه آنفاً (٥٩٢) ، أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد ، كان بها معيداً لمدرس (٦٣٢) ، السديد السلماسى محمد كان معيداً مع ابن شداد ، المبارك بن المبارك ابن الدهان (٥٣٢ - ٦١٢) ، شهاب الدين محمود بن أحمد الزنجانى (٦٥٦) ، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان (٦٣١) ، أحمد بن ثبات الهمامى (٦٣١) ، أبو محمد نجم الدين عبد الله البادرائى (٦٥٥) ، شمس الدين محمد بن الكبشى (٦٩٤) ، أبو البيان نور الدين الحلبى (٦٨٧) ، مجد الدين على بن جعفر درس بها ، ثم نقل سنة (٦٨٢) ، نجم الدين بن أبى العز درس بها سنة (٦٨٧) ، نصير الدين الفاروقى عين للتدريس بها سنة ٦٨٧ ، على بن أبى القاسم أحمد القزوينى توفى سنة ٧٤٠ ، وقد قدمنا ذكره ، على ابن أحمد الموصلى كان معيداً بها ، وفى سنة ٦٩٢ أنجز كتابة ترجمة الشاهنامة بالعربية للبندارى .

بعض خُزّان الكتب النظامية

محمد بن أحمد الأبيوردى المتوفى سنة ٥٠٧ ، أبو يوسف يعقوب بن سليمان الاسفرائينى ، عبد القادر بن داود الواسطى المعروف بمحب الدين ، ذكره عبد الحميد بن أبى الحديد قال : « حضرت أنا وغلام بالنظامية ببغداد فى بيت عبد القادر بن داود الواسطى المعروف بالمحب خازن دار الكتب بها ، وعنده فى البيت باتكين الرومى الذى ولى إربل أخيراً وعنده أيضاً جعفر بن مكى الحاجب ... (٢) » .

(١) بتخفيف الزاي على الصحيح كما فى غزل من المصباح

(٢) شرح ابن ابى الحديد « مج ٣ ص ٣٨٢ »

هذه خلاصة ما نكتب عن المدرسة النظامية ببغداد ، وكانت عدة مدارس تعرف إذ ذاك بالنظامية منهن نظامية نيسابور .

وقد شاعت المدارس بعد نظاميات الوزير نظام الملك شيوعاً عظيما ، وتأثر الوزراء آثار هذا الوزير ، فبنى تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو وزير ملكشاه السلجوقى أيضاً مدرسة ببغداد للشافعية سماها التاجية ، وجعل الشيخ أبا بكر الشاشى مدرسها ، وكان افتتاحها سنة ٤٨٢ هـ ثم بنيت ببغداد المدرسة الثقتية نسبة إلى ثقة الدولة بن الأنبارى ، والمدرسة التتشية بناها خمارتكين التتشى ، وقد قدمنا أنها تعرف بالمدرسة البهائية، ومدرسة فخر الدولة ابن المطلب ، والمدرسة الكمالية ، والمدرسة الشرقية ، والمجاهدية ، والزمردية ، والبشيرية ، والعصمتية ، والبكرية ، والمستنصرية ، والجيلية ، والنعمانية، ومدرسة عبد الوهاب، ومدرسة ابن الأثير ، والمدرسة الاسماعيلية ، والمرجانية ، والمسعودية ، ومدرسة الايكجية (١) .

وأعظمهن أوقافاً وسعة واحتفالا وتأثيراً واشتهاراً ونشراً للثقافة الاسلامية « المدرسة المستنصرية » نسبة إلى المستنصر بالله العباسى ، ولا تزال آثارها قائمة على شط دجلة ببغداد الشرقية ، وتليها فى العظمة المدرسة المرجانية نسبة إلى أمين الدين مرجان بن عبد الله الرومى والى بغداد فى زمن السلطان أويس الجلايرى ، وهو من السلاطين المعروفين بالشيخ حسنية ، وأصلهم من المغول ، وهذه المدرسة اليوم اسمها « جامع مرجان » بديعة البناء عظيمة الأوقاف مدهشة الزيارة منقوشة جدرانها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشروط الوقفية وذكر الوقوف ، وهى من مبتنيات منتصف القرن الثامن للهجرة .

ههنا نقف القلم اليوم وسنبتهل الفرص للكتابة عن المدرسة المستنصرية التى ذاع صيتها فى الآفاق ، وانتشر طلابها فى أقطار الأرض ، وشاع فضلها فى أرجائها حتى غطت على شهرة المدارس كلها ، والله المعين .

[بغداد] مصطفى جواد

(١) ذكرنا بعض هذه المدارس مع قول ابن جبير آنفا

النيترون بعد الالكترون والبروتون

بقلم الاستاذ محمد محمد السيد

مدرس العلوم بالمدارس الأميرية

من الألغاز التى كانت شائعة عند قدماء اليونان لغز (أكليس) والسلحفاة ، يدللون به على أن (أكليس) مهما بلغ من سرعة السير لن يلحق السلحفاة مهما كان سيرها بطيئاً .

لنفرض مثلا أن السلحفاة سبقت فى المبدأ أكليس بمائة ذراع ، ويحاول أكليس قطع هذه المائة ذراع ، فاذا ما فرغ منها وجد السلحفاة قد تقدمت مسافة أخرى - ولنقل أربعة ذرع - فاذا ما قطع هذه المسافة الثانية تكون السلحفاة قد تقدمت مسافة ثالثة - وهكذا - فلا يلحقها أبداً .

وقد حاول بعض مفكرى اليونان كشف المغالطة فى هذا التدليل ، ففرض أحدهم أن قابلية المسافات للانقسام ليست غير محدودة، فلا يصح لنا أن نستمر فى تصغير البعد بين أكليس والسلحفاة إلى ما لا نهاية له من الصغر ، بل هناك حد أدنى للمسافات لا تتعداه، وبعد لا يوجد أصغر منه ، وهو ما نطلق عليه الآن اسم الذرة .

فوجود حد لتجزأ المواد - إذن - فكرة قديمة ، ولكنها لم تنل حظاً من الذيوع والانتشار إلا فى علم الطبيعة الحديث حيث يبنى عليها أساس تركيب المادة .

ويجب - لعرض الأفكار الحديثة عن المادة وتركيبها - أن نلخص الأسس الأولية التى تقوم عليها هذه الأفكار ، ولذلك سنحاول أن نمر عليها فى لمحة .

العناصر : يقسم العالم الكيماوى المواد إلى قسمين : مركبات وهى التى يمكن أن تتحلل إلى مواد أبسط منها ، وعناصر وهى التى لا تتحلل مهما سلطنا عليها من القوى .

فالماء مركب، إذ يمكن بواسطة الكهرباء تحليله إلى عنصرين بسيطين هما : غازا الايدرجين والاكسيجين ، وكلا من الايدرجين والاكسجين عنصر لا يتحلل .

والعناصر المعروفة للآن ٩٠ عنصراً ، وهناك ما يحملنا على الاعتقاد بوجود عنصرين آخرين - على الأقل - لم يكشفا بعد .

من هذه الاثنين وتسعين عنصراً تتكون كل المواد التى تخطر ببالنا، سواء أكانت صلبة ، أو سائلة ، أو غازية ، حية أو ميتة ، نباتية أو حيوانية .

فالماء مكون - كما قدمنا - من عنصرى الايدرجين والأكسجين، والملح الذى نستعمله فى الطعام مركب من عنصرى الكلور والصوديوم ، والورق مركب من عناصر الكربون والايدرجين والأكسجين وهكذا ، وما العناصر إلا قوالب البناء التى تبنى بها الطبيعة المواد المختلفة التى تملأ العالم باتحاد عنصرين أو أكثر منها ، وبتغيير فى النسب بين العناصر التى تستعملها فى بنائها .

هناك عناصر مألوفة نراها ونستعملها كل يوم ؛ فالحديد والنحاس والرصاص والكبريت والذهب كلها عناصر ، ويوجد بجانب هذه عناصر أخرى غريبة الأسماء لندرتها ، ولكن يجب ألا ننسى منها عنصر الهليوم (وهو غاز خفيف يستعمل فى ملء البالونات الأمريكية ، ويفضل فى ذلك على الايدرجين لعدم قابليته للاشتعال رغم كونه أربعة أمثاله فى الكثافة) ، وعنصر النيون (وهو غاز يستعمل كثيراً فى الأجهزة اللاسلكية) .

الذرات : لنتصور أننا أخذنا قطعة من النحاس وقسمناها إلى نصفين ، ثم قسمنا أحد النصفين إلى نصفين آخرين وهكذا . . . فهل من نهاية لهذه العملية ؟

الجواب نعم ، فهناك حد لا يمكن استمرار التقسيم بعده ، ذلك هو عند ما نصل إلى الذرة ، والذرة هى أصغر جزء من المادة لا يتجزأ ، ولا يمكن عملياً الاستمرار فى تجزئه قطعة النحاس حتى نصل إلى الذرات المكونة لها ؛ فإن أبعاد الذرة أصغر من أن تدركها مقاييسنا وأجهزتنا .

تختلف ذرات العناصر المختلفة حجماً ووزناً ، وذرة الايدرجين أصغرها ، فمائة مليون ذرة من ذرات الايدرجين لو وضعت جنباً لجنب فى خط مستقيم لما بلغ طولها سنتيمتراً واحداً ، وإذا كانت الذرة - لو تخيلناها - كالكرة صغيرة فى القطر إلى هذا الحد ؛ فحجمها إذن من الصغر بحيث يكاد يستحيل تصوره ، وعدد الذرات فى سنتيمتر مكعب من الهواء كبير جداً لا تعطينا الأعداد فكرة محدودة عن كبره .

اكتشافات هامة : فى سنة ١٨٧٩ أرسل السير (وليم كروكس) تياراً كهربائياً فى أنبوبة مفرغة من الهواء تقريباً ، وشاهد أشعة متألقة تمر فى الأنبوبة ، وقد وجد أن هذه الأشعة لها خواص غريبة غير مألوفة للأمواج الضوئية ، فهى تنحرف بواسطة المغناطيس ، ويمكنها أن تحرك عجلة صغيرة موضوعة فى طريق سيرها .

وبتجارب دقيقة أمكن تعرف كنه هذه الأشعة، وقد وجد أنها ليست أشعة بالمعنى العلمى لهذه الكلمة - بل هى جسيمات صغيرة جداً ، كتلة كل منها نحو ١ على ٢٠٠٠ من كتلة ذرة

الايدرجين ، وأنها مشحونة بالكهربائية السالبة،وقد أطلق عليها فيما بعد اسم الالكترونات.

وقد كشف (ولهلم رنتجن) أشعة مجهولة تنبعث من الأنابيب المفرغة من الهواء أثناء مرور التيار الكهربائى فيها وسقوطه على حائل، وسميت هذه الأشعة بأشعة (إكس)،وقد كان كشفها صدفة ، إذ لاحظ (رنتجن) أن ألواحاً فوتوغرافية مغطاة بجوار الأنابيب المار بها التيار الكهربائى تالفة نتيجة اختراق الأشعة المجهولة للغطاء وتأثيرها فى الألواح .

وتقدمت الأبحاث عن هذه الأشعة ، فقد وجد (هنرى بكريل) فى سنة ١٨٩٦ أن بعض أملاح عنصر الأورانيوم تشع نفس هذه الأشعة التى تنفذ من الأجسام غير الشفافة ، وكان هذا بدء العهد بالمواد المشعة .

وفى سنة ١٩٠٣ أمكن لمدام كورى وزوجها فصل عنصرين يشعان بشدة وباستمرار أكثر من أملاح الأورانيوم،وهما عنصرا الراديوم والبولونيوم، ووجد أن الأشعاع الخارج من عنصر الراديوم هو فى الواقع ثلاثة أشعة مختلفة فى الخواص دعيت بالأحرف اليونانية (الفا وبيتا وجاما) .

الجسيمات الفا : وجد (رذرفورد) -وهو من العلماء الانجليز المعاصرين- وغيره منذ نحو عشرين عاماً أن ما يسمى بالأشعة الفا ، ليس أشعة بالمعنى المصطلح عليه،بل هى جسيمات صغيرة جداً تنفذ خلال لوح زجاجى رقيق سمكه ١ على١٠٠ من المليمتر ، فاذا جمعت هذه الجسيمات فى صندوق سميك الجدران ، وجد بعد مدة أن الصندوق يتجمع فيه غاز الهليوم .

وبدرس هذه الجسيمات أمكن تقدير كتلها ، وقد وجد أنها تتحرك بسرعة كبيرة تختلف باختلاف العنصر الذى يشعها ، فأسرع هذه الجسيمات هى التى تخرج من العنصر المعروف باسم (ثوريوم ح) إذ تتحرك بسرعة ١٢٨٠٠ ميل فى الثانية،أى أسرع من السيارات السريعة مليون مرة .

أما الجسيمات التى يشعها عنصر الأورانيوم فتتحرك بسرعة ٨٨٠٠ ميل فى الثانية . وهذه الجسيمات المادية مشحونة كلها بالكهربائية الموجبة .

الجسيمات بيتا : بفحصها فى مجال مغناطيسى ، وجد أنها ألكترونات سالبة الشحنة تتحرك بسرعة كبيرة جداً تزيد كثيراً عن عشرة أمثال سرعة الجسيمات الفا ، وتقرب سرعتها كثيراً من سرعة الضوء .

وقد اخترع الأستاذ(ولسون)من كمبردج طريقة لتصوير مسار الجسيمات الفا وبيتا أثناء حركتها فى إناء مقفل مشبع هواؤه بالرطوبة ، وذلك بتبريد الاناء فجأة ، فتتجمع قطرات الماء على الشحنات الكهربائية الموزعة على تلك الجسيمات أثناء حركتها ، فاذا أضىء الاناء من الداخل أمكن تصوير مسار هذه الجسيمات ،وقد وجد أن مسارات الجسيمات الفا مستقيمة سميكة (لكبر كتلة تلك الأجسام) ،أما الجسيمات بيتا فمسارها خطوط متعرجة دقيقة تشبه أنسجة العنكبوت.

الأشعة جاما : هذه أشعة وليست جسيمات مادية ، ولا تتأثر بالمغناطيس ، وهى تشبه إلى حد ما الأشعة الضوئية والحرارية ، إلا أنها تختلف عنهما فى قدرتها على النفوذ من الأجسام غير الشفافة إلى مسافات طويلة .

تركيب الذرة : عقب تجارب كروكس وكشف العناصر المشعة،اتجهت الأفكار إلى البحث فى تركيب الذرة،فها هم العلماء يعثرون فى الأشعة بيتا على جسيمات أصغر كتلة من ذرة الايدرجين التى كانت تعتبر أخف الذرات .

لا بد إذن أن تكون الجسيمات بيتا هى أجزاء من الذرة،ولما كانت هذه الجسيمات تخرج من كثير من العناصر المشعة رغم اختلافها ، فلا بد أن تكون موجودة فى كل ذرات هذه العناصر .

الذرة إذن تحتوى على الجسيمات بيتا أو ألكترونات ، ولكن هذه مشحونة بكهربائية سالبة ، بينما الذرة لا يبين عليها آثار الكهربائية ، إذن لا بد من وجود جزء آخر فى الذرة يحمل شحنة كهربائية موجبة حتى يتم باجتماع هذا الجزء مع الألكترونات السالبة الشحنة ذرة متعادلة كهربائياً .

لهذا فرض (رذرفورد) أن الذرة مكونة من نواة موجبة تدور حولها ألكترونات سالبة الشحنة كما تدور الكواكب والأرض حول الشمس .

بقى أن نعرف حجم كل من النواة والألكترونات ،وللوصول إلى ذلك صوب العلماء الجسيمات الفا الخارجة من العناصر المشعة على ذرات العناصر المختلفة فى صندوق مقفل مصوبة عليه آلات فوتوغرافية لتصوير ما يحدث من التصادمات داخله بطريقة (ولسن) التى أشرنا إليها .

ولكن التصادمات التى كانت تحدث بين الجسيمات الفا وذرات العناصر الموجودة أمامها كانت قليلة العدد ، وهذا ناتج من صغر نواة الذرة والألكترونات فيها بالنسبة لحجم الذرة كلها ، فقطر النواة يبلغ نحو جزء من ١٠٠٠٠ جزء من قطر الذرة .

أغلب الذرة إذن فراغ ، والجزء المادى فيها من نواة وألكترونات (إن صح تسمية هذه بالمادة) لا يبلغ جزءاً من الف مليون مليون جزء من حجم الذرة كلها ، وما دامت الأجسام التى حولنا مكونة كلها من ذرات مثل هذه ، فما أشد فضاء المادة ! وما أكثر الفراغ فيها ! إننا لا نستغرب إذن إذا قال لنا السير(جينز) العالم الانكليزى بأن توزع المادة فى ذرة الكربون ومقدار ازدحام هذه الذرة بالألكترونات هو كازدحام محطة(واترلو) إذا أطلقت فيها ستة زنابير!

ذرات العناصر المختلفة : الذرة إذن مكونة من نواة يدور حولها ألكترون أو أكثر ، وتختلف العناصر باختلاف ذراتها، والاختلاف بين الذرات راجع للاختلاف أولا فى النواة ، وثانيا فى عدد الألكترونات التى تدور حولها ثانيا .

فى الايدروجين وهو أبسط العناصر وأقلها كثافة تتكون الذرة من نواة يطلق عليها

اسم البروتون مشحونة بشحنة كهربائية موجبة،وألكترون يدور حول هذه النواة كما يدور القمر حول الأرض .

وذرة عنصر الهليوم — وهو الثانى فى ترتيب العناصر بعد الايدرجين — مكونة من نواة وألكترونين اثنين يدوران حولها فى مسارات مختلفة .

ولما كان وزن ذرة الهليوم نحو أربع مرات قدر وزن نواة الايدرجين، كان لا بد لنواة الهليوم أن تكون نحو ٤ مرات قدر وزن نواة الايدرجين (ويلاحظ أن وزن الألكترون صغير جداً ويمكن إهماله) ، وهذا ما دعا العلماء لفرض أن نواة الهليوم مكونة من أربع بروتونات (ويلاحظ أن البروتون هو نواة ذرة الايدروجين) وألكترونين مندمجة كلها ببعضها حتى تصير شحنة نواة الهليوم الموجبة قدر شحنة البروتون مرتين فتصير بذلك متعادلة كهربائياً مع الشحنتين السالبتين على الألكترونين اللذين يدوران حولها .

ونواة الهليوم هى التى يطلق عليها اسم الجسيمات الفا ، وهى التى تخرج من العناصر المشعة عند تفتتها .

وأثقل العناصر المعروفة وهو (الأورانيوم) ووزن ذرته ٢٣٨ مرة قدر وزن ذرة الايدرجين مكونة ذرته من ٩٢ ألكتروناً تدور كلها فى مسارات مختلفة حول نواة مركبة من ٢٣٨ بروتوناً و ١٤٦ الكترونا مندمجة كلها معاً .

تحول العناصر : يمكن إذن تفسير خاصية العناصر المشعة كالراديوم والأورانيوم وغيرها بأن ما يخرج منها من الجسيمات الفا وبيتا أو من الأشعة جاما إنما هو ناتج من تفكك ذراتها وتحولها إلى ذرات عناصر أخرى، فعنصر الأورانيوم يتحول بالتدريج إلى عنصر الراديوم، وهذا يتحول بالتدريج إلى رصاص، وكل ذلك نتيجة فقد هذه العناصر بعض البروتونات والألكترونات من ذراتها .

وإذا كانت العناصر المشعة تتحول من تلقاء نفسها وبمضى الزمن إلى عناصر أخف منها ، فان العالم الطبيعى قد تمكن من عمل نفس العملية لعناصر كثيرة ، فأمكن لرذرفورد فى سنة ١٩١٩ أن يحصل من ذرات الأزوت (وهو الغاز المكون لأربعة أخماس الهواء) على ذرات إيدرجين ، وذلك بتصويب الجسيمات الفا عليها فتتحد الدقيقة الفا (وهى نواة هليوم كما أسلفنا) بنواة الأزوت مكونة نواة عنصر آخر يدعى الفلور ، ثم تتحلل نواة الفلور فى الحال إلى نواة إيدرجين ونواة أكسيجين (ويختلف الأكسيجين المتكون من الأكسيجين العادى فى الهواء فى بعض الخواص) .

كذلك أمكن الحصول بنجاح على ذرات الايدرجين من ذرات عناصر مختلفة كالصوديوم والألومنيوم والفوسفور ، وأمكن تصوير تصادم الجسيمات الفا بنوى تلك العناصر ومسار النوى الناتجة بعد التصادم .

فالعناصر — كما ترى — ليست غير قابلة للتحول ، بل هى تتحول — إما من تلقاء نفسها كما فى الراديوم ، أو بواسطة قوى شديدة كالأزوت — إلى عناصر أخرى ، وهذا هو الذى دعا إلى بعث فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، تلك الفكرة التى كان العرب يسعون لتحقيقها قديماً ، والتى كان العلم الحديث يعتبرها حتى أوائل القرن العشرين من المستحيلات ، ولو أنها لم تتم حتى الآن .

النيترون : فى سنة ١٩٣٠ أبان باحثان ألمانيان أن الجسيمات الفا لو صدمت ذرات عنصر البريليوم (وهو عنصر معدنى أبيض أخف من الألومنيوم وكثافته ١٫٨٥ جراما) يخرج نتيجة التصادم إشعاعاً شديد النفوذ فى الأجسام ، وهو فى ذلك أقوى من الأشعة جاما .

واهتمت الأوساط العلمية بهذا الاشعاع الجديد، وبحثت مدام كورى جوليو (وهى ابنة مدام كورى الشهيرة) وزوجها ، وكشفا لهذا الاشعاع الجديد خواص غريبة تختلف عن خواص الأشعة المألوفة .

وأبانت المباحث التى كان يجريها الدكتور شدويك وبستر وغيرهما فى انكلترا أنها ليست أشعة كأشعة الضوء مثلا ، بل هى جسيمات صغيرة كالجسيمات الفا وبيتا ، لها كتلة ولكنها لا تتأثر تأثراً ظاهراً إذا وضعت فى مجال مغناطيسى كالجسيمات الفا وبيتا ، وذلك راجع إلى كونها متعادلة كهربائياً ، فهى لا تظهر عليها أى شحنة موجبة أو سالبة ، وأطلق على هذه الجسيمات اسم نيترونات .

والمعروف الآن أن النيترون هو ذرة إيدرجين تقارب بروتونها والكترونها جداً أو اندمجا معاً، فالبروتون كما قدمنا يحمل شحنة موجبة، والالكترون شحنته تساوى شحنة البروتون إلا أنها سالبة ، فاندماجهما معاً يكون نيتروناً متعادلا لا تظهر عليه الكهربائية .

وتتحلل نواة البريليوم بفعل الجسيمات الفا مخرجة نيوترونات ، ويتكون من تحلل نوى البريليوم نوى ذرات عنصر الكربون .

وفكرة وجود النيترون ليست جديدة عند العلماء الطبيعيين، فقد تنبأ رذرفورد بوجود النيترون قبل كشفه بعشرة أعوام ، وتنبأ أيضا بشدة نفوذه من المادة ، وقد حققت التجارب العملية ذلك .

وبالتأكد من وجود النيترون صار فى الامكان أن نتخيل وجود مواد أثقل بملايين الملايين من المرات من المواد التى نراها على سطح الأرض، وذلك بتكدس النيترونات إلى جانب بعضها، وهذا يجعل — من السهل — تفسير الكثافة العظيمة للمواد المكونة لبعض النجوم والتى قد تبلغ ألف مرة قدر كثافة الماء .

هناك فى الوقت الحاضر محاولات كثيرة فى الصحف العلمية لتفسير تكون ذرات العناصر المختلفة بعضها عن البعض الآخر باضافة نيوترونات أو بروتونات إلى النوى ؛ ولا شك أن علماء الطبيعة فى حاجة إلى بعض الوقت للاتفاق على نظرية مقبولة، وكلنا نرجو ألا يكون هذا الوقت طويلا . م؟

محمد محمد السيد

بلوتان

أبو التصوف الاوربي وتساعياته

بقلم الأستاذ أحمد الشنتناوى
ليسانسيه فى التاريخ والآداب وليسانسيه فى الأدب والاجتماع

ولد « بلوتان » حوالى عام ٢٠٥ م . ببلدة (ليكوبوليس Lycopolis) من بلاد القطر المصرى ؛ ولقد ذكر تلميذه وكاتب حياته « فورفوريوس » : أن بلوتان كان خجولا من كونه محبوساً فى هذا البدن ، وقد كان متأثراً جد التأثر بهذا الشعور ، حتى إنه لم يذكر شيئاً قط عن سلفه ولا عن أبويه أو محل ميلاده .

وكانت الفلسفة السائدة قبل عهد بلوتان هى فلسفة أبيقور وفلسفة الرواقيين ، وهى فى جملتها فلسفة مادية ، بل عريقة فى المادية ؛ إذ كانت تفسر النفس بأنها نتاج اجتماع الجواهر الفردة بعضها إلى بعض ؛ أما بلوتان فكان على نقيض المذهب المادى ، بل كان يعتقد أنه ليس للمادة أى وجود حقيقى فهى عديمة القيمة ، وإنما النفس أو الفكر هو الذى يؤلف حقيقة هذا الكون .

ولهذا السبب لم يخلف لنا بلوتان صورة نعرف منها هيئته وتقاطيعه ؛ فهو لم يجلس قط لمصور أو حفار لينقش له صورته ، إذ كان يعتقد أنه من العبث أن يترك لأحفاده صورة لصورته الجسمانية ، وقد ذكر البعض أن أشهر مصورى ذلك العهد حضر إلى الفيلسوف وصنع له صورة متقنة ، ولو صح ذلك تكون هذه الصورة قد فقدت منذ أجيال بعيدة .

كان بلوتان ـ منذ حداثته ـ شغوفاً بمعرفة حقائق الأشياء وكنهها ، وكم كان يرغب فى الوصول إلى حل أسرار هذا الكون ؛ لهذا عكف على دراسة الفلسفة بالاسكندرية مدة طويلة ، ولكن لم تفده تلك الدراسة شيئاً ولم تشف نفسه منها ؛ وأخيراً عند ما بلغ السابعة والعشرين من عمره حضر محاضرات الفيلسوف أمونيوس Ammonius ، فلم يكد يستمع له حتى قال : « هذا هو الرجل الذى أبحث عنه » ؛ وظل مواظباً على سماع محاضراته إحدى عشرة سنة إلى أن ترك البلاد المصرية .

ونحن لا نعرف كثيراً عن تعاليم أمونيوس هذا ، ولكن يمكن أن نقول بالاجمال إن الأفلاطونية الجديدة قد ظهرت مع هذا الفيلسوف فى القرن الثالث الميلادى بالاسكندرية ، وهى عبارة عن تقوية دينية صوفية لأفكار أفلاطون ، فهى مزيج من مذاهب قديمة وجديدة ، وبلوتان هذا أكبر ممثل لهذا المزيج الجديد .

وكانت الاسكندرية ـ كما ذكرنا فى مقال لنا عنها فى «المعرفة» عدد أغسطس سنة ١٩٣٢ ـ فى أوائل القرن الثالث الميلادى مركز حركة علمية فلسفية عظيمة كانت باعثاً على إيقاظ الهمم وإيقاد الأذهان ، وقد ظلت هذه الحركة مشتعلة مدى أربعة قرون طوال ، تبادلت الفلسفة والدين فيها أهم مع ما يحتويانه من آراء ؛ وفى تلك المدينة كذلك احتكت المسيحية مع فلسفة الرواقيين وفلسفة أبيقور ومع فلسفة أفلاطون وأرسطو ، فشحذت الأذهان ، وقويت المجادلات ، وأخذت الكنيسة الكاثوليكية فى تدعيم معتقداتها بآراء وأفكار هى خلاصة محاورات ذلك العصر ؛ ونحن نرى صورة واضحة جلية للصراع بين المسيحية والأفلاطونية الجديدة فى القرن الذى أعقب وفاة بلوتان فى رواية «هيباتيا Hypatia» لمؤلفها شرلس كنجزلى ، وهى رواية جدير بكل مؤلف وفيلسوف أن يقرأها ، لأنها تصف لنا ذلك العصر الذى اشتهر بمنازعاته الدينية والفلسفية بدقة وجلاء .

والفيلسوف بلوتان له أثر عميق فى المسيحية ، وكتاباته تعد أعظم الأسباب التى هدت القديس أوغسطين ، كذلك يعتبر بلوتان أستاذاً للقديس أنسيلم Anselm ، والقديس توماس أكويناس Aquinas ، وكلاهما قديس كبير وفيلسوف عظيم ، كذلك أثر بلوتان فى اسبينوزا عن طريق يهود القرون الوسطى ، ولا يخلو التفكير المسيحى الحديث من أثر بلوتان عليه ، فآراؤه ـ على الجملة ـ ممتزجة بالمسيحية منذ أقدم عصورها حتى الآن ، مع أنه لم يذكر شيئاً قط عن المسيحية ، ويعتبره كثير من تلامذته أنه كان مسوقاً فى تفكير بقوة إلهية ، وأنه كان يأتى من الأفعال ما يعجز عنه سائر البشر .

وكان أتباع بلوتان ـ وبالأخص تلميذه بروكتوس Proctus ـ يهاجمون المسيحية بشدة ، ويرجع هذا ـ لحد كبير ـ إلى أن مذهب التجسد Incarnation الذى هو عماد العقيدة الكاثوليكية لا يمكن أن يتفق مع الأفلاطونية الجديدة ، كما يرجع هذا كذلك إلى العناد والسخرية التى أظهرها بعض رجال المسيحية المحافظين نحو تعاليم بلوتان ، إذ كانوا يعتقدون أن انتصار هذا الدين الجديد معناه هدم القيم الحقيقية للحضارة والتمدن ؛ وعلى الجملة فقد كانت الأفلاطونية الجديدة المحور الذى تدور عليه بقايا الوثنية ، فإن الامبراطور جوليان ـ وهو من ألد أعداء المسيحية ـ كان من أتباع الأفلاطونية الجديدة ، ومن أكبر المشايعين لها .

ذهب بلوتان إلى روما حيث قضى هناك بقية حياته ، وأخذ فى إلقاء المحاضرات المختلفة المنوعة ، وقد واظب على سماع هذه المحاضرات عدد كبير من نساء روما ورجالها من مختلف الطبقات ، وكان المستمعون يناقشون ويطرحون الأسئلة ويطلبون الاجابة عنها بحرية وجلاء ، لأن الغرض من كل هذه المحاضرات البحث وراء الحقيقة ، ولأجل تهذيب الناس وجعلهم خيرين ، لأن بلوتان وتلامذته كانوا يعتقدون أن الفلسفة والدين شيئان لا يمكن فصلهما عن بعض ، لذلك أراد بلوتان أن يوقظ فى الناس الناحية الروحية من حياتهم ، وقد قال

فورفوريوس - أشهر تلاميذه - : « إن غرض الفلسفة هو خلاص النفس » .

عاش بلوتان عيشة زهد وتقشف كما يفعل أغلب الفلاسفة الروحيين ، فهو لم يأكل قط لحم الحيوان أو شيئاً من منتجاته ، كذلك كان قليل النوم ، وكان لباسه فى غاية البساطة ، وكان يرشد الناس إلى طريق الخير والسواء دون أن يبغى من وراء هذا العمل أجراً أو شكوراً ، وقد قال فى إحدى رسائله : « إن من يبغى من وراء حياته الخيرة شيئاً غير تلك الحياة ، فإن ما يبغيه ليس من الحياة الخيرة فى شىء » .

وأخيراً توفى بلوتان بعد حياة كلها جهاد ونصب فى سبيل نشر مذهبه وتعاليمه عند ما بلغ السادسة والستين من عمره بعد مرض طويل مضن ، ولقد حضر صديقه الطبيب استوشيوس Eustochius ساعة وفاته ، واستمع لآخر كلمات الفيلسوف الراحل، وهى : « إننى كنت أنتظرك منذ زمن طويل ، إننى أكافح وأجاهد كى أرد كل ما هو سماوى فى نفسى إلى ما هو سماوى فى الجميع » .

قام فورفوريوس عقب وفاة أستاذه بلوتان ، وأخذ فى جمع محاضراته ورسائله وهذبها ، ثم رتبها حسب الموضوعات فى ستة كتب ، وقسم كل كتاب إلى تسعة فصول ؛ لهذا تسمى أعمال بلوتان باسم « Enneads » ، وهذه كلمة مشتقة من أصل يونانى بمعنى تسعة ، فلا مانع إذن من أن نسمى أعمال بلوتان باسم « التساعيات » ، وهى من بين أصعب الكتب العالمية ، أولا لصعوبة لغتها اليونانية ، وثانياً لدقة ما بها من أفكار وآراء عميقة لا تخلو من بعض الغموض فى كثير من نواحيها ، ولقد وصف هذه التساعيات بعض تلامذته — ممن كانوا يحترمونه ويقدسونه — بأنها « خشنة غير مفهومة، ومفككة غير مرتبة » ، ومع ذلك ففى هذه التساعيات بعض صحائف هى آية فى دقة التفكير وسلامة التعبير .

ولقد رأينا أن نلخص لقراء « المعرفة » الغراء إحدى هذه التساعيات، وهى الخاصة بكلامه عن خلود النفس ليتبينوا منها نوع تفكير هذا الفيلسوف الكبير ، وإليك هذا الملخص :

« لو قال قائل : إنه من الممكن لمجموعة من الذرات أن تولد نفساً باتحادها (١) ، فإنه من السهل دحض ذلك القول ، لأن النفس منفعلة بذاتها ، وإن المنفعل من ذاته لا يمكن أن يكون ناتجا من أجسام لا انفعال لها ، والجسم البسيط لا يمكن أن يكون له حياة من ذاته من حيث هو جسم مادى ، لأن المادة خالية من كل كيفية ، فلا تعطى لنفسها أية هيئة كانت، كما أنها لا تضم نفساً فى داخليتها ، فلا شىء يوجد إذا لم يكن هناك قوة روحية ، لأن المادة فى جريان مستمر ، ولكان العالم يفنى سريعا إن لم يكن هناك سوى أشكال وهيئات جسمانية مادية ، ومن المحقق أنه لا يمكن لأى هيئة مادية أن توجد فى غياب النفس ، ونحن فى شك مما إذا كان للمادة أى وجود ما » .

(١) مشيراً هنا الى فلسفة أبيقور .

« لهذا لا بد أن يكون هناك شيء آخر من طبيعة أخرى له الوجود من ذاته ، وبدون ذلك فان جميع الكائنات تختفى فى العدم حيث لا رجعة لها من جديد ، ولكن هى النفس التى تعطى الوجود لكل ما فى هذا العالم ثم تحفظ عليه هذا الوجود ، والنفس مبدأ الحركة تحرك نفسها وتعطى الحركة لغيرها من الأجسام المتحركة ، كذلك يجب أن نذكر أن الحياة التى للنفس هى حياة أبدية ، لأنها مستمدة من ذاتها ، ولو كان لكل الأشياء حياة لذهبنا هكذا على التوالى إلى ما لا نهاية ، ولكنه من الضرورى أن تكون هناك حياة بدائية أولى، كما أنه من الضرورى أن تكون تلك الحياة أبدية غير فانية »

« وهنا كذلك نرى أن من اللازم أن يكون لكل شىء إلهى حياة من ذاته،وأن يكون جوهره عدم التغير ، فلا هو محدث ولا هو قابل للعدم ، لأنه على هذا الاعتبار من أى شىء يحدث ، وإلى أى شىء ينتهى أمره ؟»

« أما جزؤه الذى ينتهى أمره إلى الاختلاط بالعالم المادى (كالنفوس الحالة فى الأجسام) ، فانه لا يفقد طبيعته بهذا الاختلاط ، ولو أن هذا يكون عائقاً له من استكمال أوفى كمالاته ، ولكنه يستعيد حالته الأولى من الكمال عند مفارقته هذه الأجسام المادية والرجوع إلى مصدره الأول »

« والنفس لا تدرك معانى الطيبة والعفة والعدل وما شابه ذلك من المعانى عن طريق الاحساسات ، ولكنها تدرك هذه المعانى الالهية فى نفسها وبنفسها ، فانها بقوتها المفكرة ترى هذه الأشياء كامنة فى أعماقها وكأنها التماثيل قد علاها الصدأ لتعاقب الدهور عليها ؛ فالنفس كالذهب الذى احتواه باطن الأرض لمدة طويلة حتى خبا وهجه فلا يدرك نفسه أنه ذهب وهاج ، ولكنه بعد ذلك ينفض عن نفسه الغبار الذى تكدس حوله ، فسرعان ما يندهش عند ما يرى نفسه نقياً وهاجاً ؛ فلو أن النفس تنقى ذاتها بذاتها لشعرت بعد ذلك أنها ليست فى حاجة إلى أى جمال عرضى ، وأنها بذاتها كانت فى أحسن الحالات وأطيبها ، فليجرد أى شخص نفسه من جميع أعراضه الدخيلة ، ولينظر إلى نفسه على أنه قوة مفكرة ليس إلا(١)، تعيش فى عالم من الأفكار ، فسرعان ما يعتقد بأن نفسه خالدة أبدية ، فهو يدرك قوة العقل الأبدية ، وهى تتحول عن عالم الأشياء الفانية التى هى موضوع الحس ، ويصبح همها فقط التأمل فى كل ما هو خالد أبدى ؛ فالنفس وكل ما تراه فى عالم الأفكار سيكون براقاً منيراً مشرقاً بنور الحق الذى ينبعث من الله الذى ينير كل الأفكار بنوع من الحقيقة الالهية ؛ فمن ذا الذى يشك إذاً أن شيئاً من هذا النوع له من ذاته مبدأ الحياة ، ولا يكون خالداً أبدياً ؟

---

(١) هذه هى بذور فلسفة ديكارت بعينها .

وإنه من الواضح كذلك أن النفس تعطى الوجود لذاتها قبل إعطائها الوجود للجسم الذى تحل فيه ، ولكن كيف تتنزل النفس من عليائها حتى تستقر فى البدن ؟ »

« الفكر الصرف لا يتأثر بشىء ما، بل له حياة عقلية خاصة به ، فهو يسبح للأبد فى عالم الأفكار الأبدى ، لأنه ليس له أى باعث أو مشتهى ، ولكن النفس مكونة من رغائب كما هى مكونة من فكر ، وبدل أن تظل ثابتة فى تأمل الأشياء فهى ترغب فى تقليدها ، لذلك هى دائمة الرغبة فى تقليد مظاهر الله الفكرية والحكمية ، ولكن لكى تسوس جزءاً من العالم يجب أن تسوس هذا الجزء بمفرده ، لذلك هى تنفصل عن نفس الكون وتحل فى جسم محدود ، ولكنها مع ذلك لا تتيه فى هيئتها المادية الجديدة ، بل تظل محتفظة بشىء آخر خارج عن المادة ، كما أننا نلاحظ أن حلول النفوس فى الأجسام معين على إتمام كمالات العالم » .

هذه هى إحدى تساعيات بلوتان قد ثابرنا على قراءتها مراراً وتكراراً حتى أمكننا أن نخرج بهذا الملخص الوجيز ، وهو فى جملته يدل على اتجاه تيار أفكار الفيلسوف بلوتان ، فهو قد تناول العناصر الدينية والفلسفية فى فلسفة سقراط وأفلاطون ، ثم أخذ فى تأكيدها وتدعيمها ، وقد بدأ بلوتان كلامه عن العالمين : المحسوس ، والروحى ؛ وكان همه هدم المذهب الثنائى ، وأن يثبت أن العالم الروحى هو فقط لب الحقيقة وجوهرها ، أما عالم المحسوسات فما هو إلا صورة ولدها العالم الروحى على مثاله وفق نظام عام شامل .

وقد ذكر بلوتان كذلك أن مصدر جميع الكائنات وكل ما هو حقيقى هو الكائن المطلق الفرد ، وأن هذا الكائن غير متناه ، ولا يمكن تعريفه أو الاحاطة به ؛ فكل ما يمكن أن يوصف به من الأوصاف السامية يقصر عن إدراك حقيقته ، ولا يمكن أن يصدق عليه إلا إذا ذكرنا بجانب كل صفة منها « بل هو أعظم من ذلك » ؛ كذلك تكلم بلوتان عن الثالوث، ولكن ثالوثه يختلف كثيراً عن ثالوث الكنيسة المسيحية ، فهو ليس مستمداً منها أو متأثراً بالأفكار المسيحية ، فالثلاثة الذين يكونون ثالوث بلوتان ليسوا أشخاصاً جسمانيين ، كذلك ليسوا فى مستوى واحد ، إنما الثانى والثالث فى هذا الثالوث الجديد أحط درجة من الأول وهما تابعان له، وغير ذلك من التفصيلات التى لا داعى لذكرها فى هذا المقال.

وكان من رأى بلوتان أن العالم الذى ندركه بحواسنا ليس هو فى الحقيقة إلا صورة ، وأن الانسان يعرف هذه الصورة بحواسه كما يعرف عالم الأنفس بعقله ، وأنه من الممكن للفرد أن يفهم الكائن المطلق ، لأن الانسان فى أعماق نفسه يؤلف مع هذا الكائن المطلق وحدة واحدة ، فاذا ما نظر فى أعماقه فانما ينظر إلى هذا الكائن المطلق غير المتناهى، وهذا الاتحاد مع الكائن المطلق هو ما يسمى بالتصوف ، وهذا ما حدا بالبعض أن يسمى تساعيات بلوتان الفيلسوف بـ « توراة التصوف الغربى » .

أحمد الشنتناوى

٢ – المعانى الافلاطونية عند المعتزلة *

للاستاذ محمود الخضيرى
عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس

علم الكلام عند المسيحيين

وقد فعل المسيحيون – على كل حال – أكثر مما فعل غيرهم من أهل الديانات الأخرى فى تعريف علماء الدين المسلمين بالفلسفة الاغريقية قبل عهد النقل والترجمة ؛ ذلك أننا نعرف أن علماء الدين المسيحيين فى ذلك العصر كانوا على خبرة كبيرة بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وقد عنى المسلمون أكبر العناية بمجادلاتهم فيما بينهم حول اتحاد الطبيعتين : الالهية، والانسانية ، فى شخص المسيح ، وذلك لأن القرآن تكلم فى هذا الشأن ؛ ويحدثنا مؤرخو الآراء الدينية من المسلمين عن اليعاقبة الذين ذهبوا إلى أن الله والانسان هما طبيعة واحدة فى شخص المسيح ، وعن النسطوريين الذين قالوا بالتمييز بين الطبيعتين ،وعن الملكية وهم التابعون لكنيسة الدولة الذين فرقوا بين الكلمة (أقنوم العلم)،وروح القدس (أقنوم الحياة)(١) ، وذلك مضاف بالطبع إلى الجوهر ليتم التثليث ، ولم يرض هذا بحال من الأحوال الموحدين المسلمين (٢) ، ولكنهم استخلصوا من تلك المناظرات ما تضمنتها من مقدمات وعناصر فلسفية يصلح استخدامها كمنهج على العموم .

وقد أشار الشهرستانى إلى وجه شبه بين قول العلاف (٢٣٥ هـ – ٨٤٩م) أحد شيوخ المعتزلة فى الصفات الالهية ، وبين التصور المسيحى للأقانيم؛وذلك لأن العلاف يقول : « إن الله عالم بعلم وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حى بحياة وحياته ذاته ؛ وإنما اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معانى قائمة بذاته ، بل هى ذاته ... والفرق بين قول القائل عالم بذاته لا بعلم ، وبين القائل عالم بعلم هو ذاته ، أن الأول نفى الصفة ، والثانى إثبات ذات هو بعينه صفة ، وإثبات صفة هى بعينها ذات ؛ وإذ أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوهاً للذات ، فهى بعينها أقانيم النصارى أو أحوال أبى هاشم (٣) » .

(*) نشرنا الجزء الاول من هذا البحث فى عدد أغسطس سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » فليرجع اليه القارىء

(١) الشهرستانى (الملل والنحل) ج ٢ ص ٤٩ – ٥٧ من طبعة خليفة . القاهرة ١٣٤٧

(٢) راجع على الخصوص : ابن الباقلاني (٤٠٣ هـ – ١٠١٢ م) كتاب التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة . مخطوط في المكتبة الاهلية بباريس : القسم العربى رقم ٦٠٩٠ (الحيازات الجديدة) صفحة ٢٤ وجهاً الي ص ٣١ وجهاً .

(٣) الشهرستانى الكتاب المذكور ج ١ ص ٥٧ .

وكذلك كتب الشهرستانى عن النسطورية فى معرض كلامه عن الفرق المسيحية : « النسطورية أصحاب نسطور الحكيم الذى ظهر فى زمان المأمون (١) ؛ وتصرف فى الأناجيل بحكم رأيه وإضافته إليها إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة ؛ قال : إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة ، وهذه الأقانيم ليست زائدة عن الذات ، ولا هى هو؛واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام ، لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ، ولا على طريق الظهورية كما قالت اليعقوبية ؛ ولكن كأشراق الشمس فى كوة ، أو على بلاور ، أو كظهور النقش فى الخاتم ؛ وأشبه المذاهب بمذهب نسطور فى الأقانيم أحوال أبى هاشم من المعتزلة ، فانه يثبت خواص مختلفة لشىء واحد » (٢) .

والظاهر أن الشهرستانى يحاول أن يقتصر على الاشارة إلى بعض وجوه الشبه بين أقوال العلاف وأبى هاشم وبين بعض التصورات المسيحية ، ومن المحتمل أنه يتعمد هذه المقارنة(٣)؛ على أن الذى نستطيع أن نثق منه هو أن الشهرستانى نفسه يثبت لنا علاقة تشابه بين أقوال كبيرين من شيوخ المعتزلة ، وبين مذهب مسيحى نشأ قبيل ظهور الاسلام وظل يدرس وينتشر فى الأوساط المسيحية التى كان يسود فيها المسلمون .

ولننتقل الآن لننظر نظرة عاجلة فى نظرية موسى بن ميمون (مات سنة ١٢٠٤ م) الذى يذهب إلى أن المعتزلة أخذوا كلامهم عن متكلمى النصارى ممن سبقوهم فى الزمن ، أو عاصروهم .

يقول ابن ميمون : « إن كل ما قاله المسلمون فى الكلام معتزلة كانوا أو أشعرية ، إنما هو آراء مبنية على مقدمات«مأخوذة من كتب اليونانيين والسريانيين الذين راموا مخالفة آراء الفلاسفة ودحض أقاويلهم ؛ وكان سبب ذلك أنه لما عمت الملة النصرانية لتلك الملل ودعوى النصارى ما قد علم ؛ وكانت آراء الفلاسفة شائعة فى الملل ، ومنهم نشأت الفلسفة ، ونشأ ملوك يحمون الدين ، رأوا(٤) علماء تلك الأعصار من اليونان والسريان أن هذه دعاوى تناقضها الآراء الفلسفية مناقضة عظيمة بينة ، فنشأ فيهم هذا علم الكلام (٥) ، وابتدأوا ليثبتوا مقدمات نافعة لهم فى اعتقادهم ، وردوا على تلك الآراء التى تهد قواعد شريعتهم ،

---

(١) الصحيح أن نسطور Nestorius مات قبل ظهور الاسلام (٢) الكتاب المذكور ج ٢ ص ٥٢و٥٣.

(٣) يقول الاستاذ كرا دى فو Carra de Vaux تعليقاً على مقارنة الشهرستانى بين قول العلاف فى الصفات ، وبين قول المسيحيين بالاقانيم : « لا تبدو هذه المقارنة مرضية جداً » ابن سينا Avicenne باريس سنة ١٩٠٠ ص ٢١ . (٤) كذا فى النص ، والصواب « رأى » . (٥) كذا فى الاصل ، وهذه الصيغة من خصائص لغة ابن ميمون ، وربما كانت من خصائص اللغة العربية الدارجة فى مصر فى عصره ، والصحيح « علم الكلام هذا » .

فلما جاءت ملة الاسلام ونقلت إليهم (١) كتب الفلاسفة ، نقلت إليهم أيضاً تلك الردود التى ألفت على كتب الفلاسفة ، فوجدوا كلام يحيى النحوى وابن عدى وغيرهما فى هذه المعانى فتمسكوا به ، وظفروا بمطلب عظيم بحسب رأيهم ... الخ » (٢) .

ويحيى النحوى الذى يذكره ابن ميمون هو يحيى فيلوبونوس الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن السابع للميلاد ؛ كما أن يحيى بن عدى هو أحد الفلاسفة المسيحيين ، ومن المترجمين إلى اللغة العربية ، توفى عام ٩٧٥ ميلاية (٣٦٥ هجرية) ، وعلى ذلك فهو متأخر عن المعتزلة الذين سنتولى دراستهم ، وإذن فمن المستحيل أن يكون له أى تأثير فيهم ، بل نحن نعتقد أنه لم يكن له تأثير قط على الاعتزال وعلم الكلام على العموم ، ويؤيدنا فى هذه الدعوى ما جاء فى كلام أبى سليمان السجستانى المنطقى (٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) ، حيث يتضح موقف يحيى بالنسبة إلى المتكلمين ، قال أبو سليمان : « وكان شيخنا يحيى يقول : إنى لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس : نحن المتكلمون ، ونحن أرباب الكلام ، والكلام لنا ، بنا كثر وانتشر ، وصح وظهر ! كأن سائر الناس لا يتكلمون ، أو ليسوا أهل الكلام ؟ لعلهم عند المتكلمين خرس أو سكوت ! أما يتكلم يا قوم الفقيه ، والنحوى ، والطبيب ، والمهندس ، والمنطقى ، والمنجم ، والطبيعى ، والالهى ، والحديثى ، والصوفى ؟ » (٣) . وفى نهاية مقالته يعارض بين « كلام » المتكلمين وجدل أرسطوطاليس .

وعلى كل حال فان ابن ميمون لم يقف عند هذا القول ، إذ أنه زاد على ذلك أن المتكلمين المسلمين « اختاروا أيضاً من آراء الفلاسفة المتقدمين كل ما رآه المختار أنه نافع له ، وإن كان الفلاسفة المتأخرون قد برهنوا بطلانه كالجزء والخلاء ، ورأوا أن هذه أمور مشتركة ومقدمات يضطر إليها كل صاحب شريعة ؛ ثم اتسع الكلام ، وانحطوا إلى طرق أخرى عجيبة ما ألم بها قط المتكلمون من يونان وغيرهم ، لأن أولئك كانوا على قرب من الفلاسفة ؛ ثم ـ أيضاً ـ جاءت فى الاسلام أقاويل شرعية خصيصة بهم (٤) احتاجوا ضرورة أن ينصروها ، ووقع بينهم اختلاف فى ذلك ، فأثبتت كل فرقة منهم مقدمات نافعة لها فى نصرة رأيها (٥) » .

ويلاحظ أن ابن ميمون يواجه المعتزلة والمتكلمين كأنهم أهل مذهب فلسفى واحد تولوا

(١) كذا فى الاصل والمقصود « الى المسلمين » ، وهذا أيضاً من أخطاء ابن ميمون العادية .

(٢) دلالة الحائرين طبعة مونك Munk المجلد الاول (من النص العربى ـ العبرى) ص ٩٤ ظهراً .

(٣) مقابسات أبى حيان التوحيدى ص ٢٢٤ ، ومما يؤيد دعوانا أيضاً ما نقله ابن القفطى عن يحيى بن عدى وأوردناه فى الفصل الاول من هذا البحث حيث يعترف أن المتكلمين لا يفهمون عبارته ، كما أنه لا يفهم اصطلاحهم . (٤) كذا والمقصود « خصيصة بالمسلمين » .

(٥) دلالة الحائرين ج ١ ص ٩٤ ظهراً و ٩٥ وجهاً .

الدفاع عن الدين بحجج فلسفية ، وهذا ما جعل ناشره (سلمون مونك S. Munk) يجمعهم تحت عنوان واحد ، إذ سماهم جميعاً « أصحاب الجزء الذى لا يتجزأ »(١) ، ولكننا سنبين فيما بعد أن القول بالجزء الذى لا يتجزأ لا يعم المعتزلة ، وليس من خصائصهم .

ونحن نعتقد أنه إذا كان المعتزلة ـ ولا سيما هؤلاء الذين سنتولى دراستهم ـ مدينين بشىء إلى رجال الدين المسيحيين ، فذلك بما أخذوه عنهم من فلسفة الاغريق، وقد تعلم المعتزلة عنهم شيئاً كثيراً منها بالرواية الشفوية قبل عهد الترجمة (٢) ، ولكن لما كانت الفلسفة التى يشتمل عليها كلام المعتزلة تمتاز بصفات خاصة ، وتختلف اختلافاً كبيراً عن فلسفة رجال الدين المسيحيين الذين عاصروهم ؛ وإذن فان لنا الحق فى أن نؤكد أن مصادرهم لم تكن مستفادة من مصدر واحد .

الأصل التاريخى للمعتزلة

يرى ابن المرتضى الزيدى (٨٤٠ هـ — ١٤٣٧ م) أن المعتزلة هم أهل الحق فى الاسلام، إذ أنهم « لم يخالفوا الاجماع ، بل عملوا بالمجمع عليه فى الصدر الأول ، ورفضوا المحدثات المبتدعة » ؛ ثم يذكر ابن المرتضى الحديث المشهور المنسوب إلى النبى الذى يقول ما معناه : إن اليهود انقسموا إلى إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى إلى اثنتين وسبعين ، وسيفترق المسلمون إلى ثلاث وسبعين فرقة واحدة منها ناجية ؛ وهو يذكر هذا الحديث على روايتين لا تختلفان فى المعنى ، ولكن لم ترد واحدة منهما عن طريق المؤرخين والرواة من خصوم المعتزلة، أولى هاتين الروايتين : « ستفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة ، أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة » ؛ والرواية الثانية : «ستفترق أمتى على فرق ، خيرها وأبرها المعتزلة »(٣) ؛ ويقسم ابن المرتضى المعتزلة إلى اثنتى عشرة طبقة : الأولى منها مؤلفة من الخلفاء الأربعة وعبد الله ابن عباس .

ونحن نرى فى ذلك مجرد دفاع عن المعتزلة ، إذ أن مثل هذا القول يستبعد كل أصل أجنبى

(١) خليط من الفلسفة اليهودية والعربية Mélanges de Philosophie juive et arabe باريس سنة ١٨٥٩ ص ٣٢٨ . (٢) انظر جولدسيهر Goldziher الفلسفة الاسلامية واليهودية فى العصور الوسطى فى مجموعة ثقافة العصر الحاضر Die Kultur der Gegenwart القسم الأول الجزء الخامس لايبسيك وبرلين سنة ١٩١٣ ص ٣٠٢ . (٣) باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والامل فى شرح كتاب الملل والنحل لأحمد بن يحيى المرتضى طبعة ت. و. ارنولد ، لايبسك وحيدر آباد الدكن سنة ١٩٠٢ ص ٢ — ٤ .

لمذاهبهم ، ونحن نبحث الآن لديهم عما لم يوجد عند الجيل الأول من المسلمين، ولا سيما ما لا يمكن فهمه دون وصله بالتيار الأفلاطوني .

ومن ناحية أخرى ، فإن أكثر المؤلفين الذين بحثوا عن أصل المعتزلة اقتصروا على إرجاعه إلى أصل الكلمة واشتقاقها ، وقد بحث أكثر المؤلفين المسلمين الذين عنوا بهذه المسألة عن حادثة تاريخية لتعليل نشأة الاعتزال ؛ ومن التعليلات الكثيرة ما ذهب إليه أبو الحسين الطرائفي الشافعي (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ — ٩٨٧ م) إذ قال : « وهم سموا أنفسهم معتزلة ، وذلك عند ما بايع الحسن بن علي عليه السلام معاوية وسلم إليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس — وكانوا من أصحاب علي — ولزموا منازلهم ومساجدهم ، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة ، فسموا بذلك معتزلة » (١) ؛ وعلى هذا النحو تعلل نشأة الفرقة بعلة سياسية كما تعلل كل الاختلافات التي حدثت في الاسلام قبل ذلك منذ وفاة النبي .

ثم إن هناك القصة المشهورة التي يراد بها إثبات أن واصل بن عطاء (١٠٣ هـ — ٧٢١ م) هو أول من سمي معتزلا، وذلك لأنه قال في مجلس أستاذه الحسن البصري (١١٠ هـ — ٧٢٨م) إن مرتكب الكبيرة لا مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، ثم قام «واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد» ليدافع عن حجته أمام جماعة من أصحاب الحسن ، « فسمي هو وأصحابه معتزلة » (٢) .

ولا يوافق الأستاذ جولد سيهر على هذا التعليل المشهور ، ويرى أن الاعتزال نشأ عن الميل إلى العبادة والتقوى ، وهو يقول ما خلاصته : إن المعتزلة كانوا رجالا أتقياء متقشفين ، وإن كلمة معتزلة تدل على زاهدين في الدنيا ، ضاربي الصفح عن ملذات هذه الأرض (٣) ؛ وكذلك نبه الأستاذ جولدسيهر في كتاب آخر له على أن كلمة «معتزلة» وردت في ترجمة نسطورية قديمة للعهد الجديد ، يرجع تاريخها إلى عام ١٢٣٣ بعد الميلاد للدلالة على « الفريسيين » ، (وهذه ترجمة حرفية في الواقع (٤)) ؛ ولا يريد الأستاذ جولد سيهر أن يقول بهذا بأصل

---

(١) نص مقتبس من مقدمة كتاب «تبيين كذب المفترى فيما نسب الى الامام أبي الحسن الاشعري» تأليف ابن عساكر (٥٧١ هـ — ١١٧٥م) ص ١٠ في الهامش . دمشق سنة ١٣٤٧ هـ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ، الطبعة المذكورة ج ١ ص ٥٥ .

(٣) الفلسفة الاسلامية واليهودية في العصور الوسطى ص ٣٠٢ .

(٤) انظر محاضرات عن الاسلام Vorlesungen uber den Islam ظهر في هيدلبرج سنة ١٩١٠، ولهذا الكتاب ترجمة فرنسية بعنوان أصل الاسلام وشريعته Le pogme et la loi de l'Islam باريس سنة ١٩٢٠ ص ٨٠ و ٢٠٦ .

يهودى أو مسيحى للكلمة، وإن كان لا ينكر التأثير المسيحى على نزعة الرهبنة فى الاسلام(١). أما الأستاذ أحمد أمين فانه لا يستبعد أن يكون هذا اللفظ قد أطلقه على المعتزلة قوم ممن أسلموا من اليهود لما رأوه من الشبه فى القول بالقدر بين معتزلة الاسلام والفريسيين اليهود الذين كانوا يقولون أيضاً بحرية الارادة الانسانية (٢).

ونحن لا نهتم هنا ـ بوجه خاص ـ بتاريخ الكلمة ، إذ أن هذا يشط بنا عن موضوعنا بعض الشطط ؛ ولكننا نقول ـ مع ذلك ـ إنه إذا كان واصل بن عطاء أول من سمى معتزلا فانه ليس من أجل هذا مؤسس الفرقة ، إذ أنها وجدت قبله وكان اسمها « القدرية » ، وإنما هو الذى أحدث فى مبادئها القول بالمنزلة بين المنزلتين ؛ وكذلك فان ابن المرتضى يعتبره من أهل الطبقة الرابعة من المعتزلة ، ونحن نعتبر أن المعتزلة بدأوا ممثلين للتسامح (٣) ، والثقة فى العقل بين رجال الدين فى الاسلام ، وقد بدأت فرقتهم بنفى الجبر والقول بحرية الارادة ـ كما سنشرح ذلك عن قريب ـ ؛ ثم أخذت توسع فى مقالاتها وتهذبها على حسب اتصال شيوخها بالثقافة الأجنبية ؛ وسنعالج فى المقالات التالية نشأة مذاهبهم وتطورها . ؟

محمود الخضيرى

---

(١) وكذلك يسلم الاستاذ مكس هرتن Horten بتأثير الرهبنة المسيحية على الاعتزال ، على أنه يضع هذا التأثير بجوار تأثيرات أخرى سياسية ، انظر كتابه « المذاهب الفلسفية للمتكلمين فى الاسلام » ص ١٠٩ ـ ١١٠

(٢) فجر الاسلام ، القاهرة سنة ١٩٢٨ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥

(٣) وكذلك يسميهم أكثر مؤرخى الآراء الاسلامية من شميلدرز Schmolders ورينان Renan حتى مكس هرتن Horten ، الا أن الاستاذ جولد سيهر Goldziher يأبى أن يصفهم بصفة التسامح وحرية الفكر بدعوى أنهم كانوا متعصبين ، واذن كانوا أصحاب أصول لا يتجاوزون عنها ولا يفرطون فيها ، وذلك لأن شأن التعصب أن لا ينفصل عن التشبث بالاصول ، انظر كتابيه « الفلسفة الاسلامية واليهودية فى العصور الوسطى » ص ٣٠٣ ، ومحاضرات عن الاسلام ، الترجمة الفرنسية ص ٩٦ ـ ٩٨ . ومما يؤسف له أن المستشرق الكبير لا يقيم دعواه الا على مثال واحد للتعصب عثر عليه فى أقوال القوطى ، أما الاستاذ هرتن فانه يلاحظ بدقته المعهودة ، أنهم كانوا متعصبين فيما يختص بالعمل ، أحرار الفكر فيما يختص بالنظر ، راجع « المذاهب الفلسفية للمتكلمين فى الاسلام » ص ١١١ فى الهامش .

المعرفة فى تونس

تطلب « المعرفة » فى تونس من المكتبة العلمية لصاحبيها ووكيلينا : السيد محمد الأمين والسيد طاهر . بنهج الكتبية رقم ١٢

وتطلب أيضاً من مكتبة الاستقامة لصاحبها السيد محمد بن الحاج صالح الثمينى .

صفحات فى الأدب الألمانى

لسنج LESSING

بقلم الدكتور على مظهر

ولد (جوتهولد إفراين لسنج) فى الثانى والعشرين من شهر يناير سنة ١٧٢٩ فى (كامنتز) الواقعة فى (الأوبرلافيتز)، وكان أبوه فيها رئيس الوعاظ دخل مدرسة الأمراء بـ(ميسن) سنة ١٧٤١، فدرس اللغات القديمة وأظهر ميلا للرياضيات، وكان أحب الكتاب إليه (تيوفراست) و(بلاوتوس) و(تيرينز) الرومانيين، فأخذ فى دراسة ما خلفوه من أثر بعزم وجد، وقال عنه مدير المدرسة: إن الدروس التى يتلقاها زملاؤه أصبحت لا تصلح له، وقال عنه (جوإداليس): إنه فى كبير حاجة للمهماز ولا حاجة له بالعنان، ولكن يجب أن يقدم له العلف مضاعفاً، ثم ابتدأ الدراسة فى جامعة ليبتزج منذ سنة ١٦٤٦ ليدرس اللاهوت فيها، ويحقق بذلك رغبة والديه، ولكنه سرعان ما أبدله بالطب، ولم يقنع بذلك، بل بدأ يدرس اللغات والفلسفة وفنون الشعر، ومال إلى كتاب المآسى على وجه خاص، وكان قد عرف شيئاً منها بمطالعته للأديبين الرومانيين المذكورين سابقاً، وكان يصحب الممثلين بدلا من التردد على العلماء، وكان يقول فى ذلك: إن التردد على دور التمثيل يعلمه مئات من الأشياء الصغيرة الهامة التى يجب على شعراء المآسى معرفتها، ولا يمكن تحصيلها بالانقطاع إلى المحاضرات مطلقاً، وتعرف إلى صديقه (ميليوس) وائتمنه على سره، وكان يشغل نفسه بالأدب، ولكنه كان ذا روح حائرة، فلما ذهب إلى برلين تبعه فيها، ولبث فيها أربعة شهور ذهب بعدها إلى فيتينبرج فى نوفمبر سنة ١٧٤٨، ومازال من ذلك الحين كثير النقلة من مكان لآخر، فتردد على برلين ثلاث مرات، وكان يكثر التردد على الفيلسوف اليهودى (موسوس مندلزون)، وعلى الوراق (فريدريش نيكولاى)، وعلى الشاعر (رملر)، وكان يتردد فى تلك الأثناء على (فيتينبرج) إلى أن عين مدرساً للفنون الحرة، ثم عاد إلى ليبترج، وهناك تعرف بكريستيان إيفالد فون كلايست وعقدت بينهما أواصر الصداقة، وأخيراً ذهب إلى (برزلاو) وعين كاتماً لأسرار القائد فون تونزين، ولما كان فى برلين سنة ١٧٦٧ دعى إلى هامبورج ليعد المسرح الذى كان هناك ليكون داراً للتمثيل الوطنى، ولكنهم رجعوا عن تنفيذ المشروع، فعين فى سنة ١٧٧٠ أميناً لمكتبة (فولفنبوتل) ولبث فى منصبه هذا حتى آب لربه، وقد رحل إلى إيطاليا فى ركاب أحد الأمراء رحلة طويلة وعاد إلى مقر عمله فينا بأرملة كان يكثر التردد على منزل زوجها الراحل لما كان فى هامبورج، وتم العرس سنة سنة ١٧٧٦، ولكن لم يدم هناء العروسين طويلا، فقد حملت له طفلا مات تالى يوم ولادته،

ثم ماتت أمه بعده ، بعد زواجها بسنتين ، أو أقل قليلا ، فتملكه الحزن والأسى وجد فى عمله جداً متواصلا علّه يسلو ولبث كذلك حتى قضى فى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٧٨١ فى مدينة براونشفايج .

كان لسنج كبير الاطلاع كثير العلم محباً للبحث نهماً لا يشبع ، وكان يجد سروره وسعادته فى العمل للوصول إلى المعرفة أكثر مما يجد هذا السرور فى العلم نفسه ، ولم تمكنه الفرص إلا من الحصول على قليل من علم الجمال واللغة والفلسفة وتاريخ الأدب والآثار واللاهوت وغيرها ، ولبثت مجهوداته فى ذلك غير تامة ؛ ومن ذلك نشأت عدم طمأنينته وعدم كلاله من العمل اللذان لازماه طول حياته ، وترتب على ذلك ابتعاده عن المراجع التى كانت تضيق له السبل فى البحث ، ولكنه كان إذا تحرك للعمل ولبحث موضوع من المواضيع فانه يبذل جهده ويجد فيه جداً خارقاً للعادة ، ويعمل فى حله خاطراً حاداً وروحاً متوقدة .

وكانت له قدرة على النقد لما اتصف به من حسن الفهم ووضاحة العقل ، فكان يقلب بصره الشديد فى كل ما يظهر من منتجات العقول فى الأدب الألمانى ، وبذا حرر أدب لغته مما كان ينتابه أثر إعجاب بما هو أجنبى ، وجاهد لسنج حتى أسقط تلك المثل الفاسدة التى كانت تعلق بها أمته وتتخذها نموذجاً تحكيه وتقلده ، فكان إذا نقد كان نقده تاماً واشتد فيه ، ولم يكن يتهاون فى نقد نفسه وتبين معايبه ، فكان يفعل بنفسه ما يفعله مع الآخرين عند النقد ، وتلحظ قدرته الفائقة فى ذلك فى ما يعرف من (كتب الأدب) التى نشرها بالاشتراك مع مندلزون ونيكولاى فى برلين ، بدأ بسنة ١٧٥٩ وفيها ترى نقده لكل ما ظهر من فنون الأدب فى عصره وتراه يصدر حكمه فيها حكماً غير هياب ولا وجل ، ولم يبق على عيب أو هفوة لأحد من أصحابه إلا أعلنه ، فتراه ينقد كلوبشتوك وفيلاند وكلايست وجلايم وغيرهم من أصدقائه ومن لم يكونوا أصدقاء له ، وكان من رأيه واعتقاده أن التمثيل الفرنسى لا يتفق وما للألمان من طرق فى التفكير ، وأن الألمان قادرون على ما هو خير من ذلك الأدب الفرنسى وتلك الرقة وذلك الحنان والحب عند الفرنسيين ، أما الذى يلتئم والطبع الألمانى فهو العظمة والضخامة والجلال كما يرى ذلك فى آثار شكسبير ومؤلفاته .

ونرى لسنج ينشر (لوكون) فى سنة ١٧٦٦ ، والذى بعثه على تأليفها هو (فينكلمان) ، وقد بدأ فيه بجماعة (اللوكون) وتكلم على ما خلفه مثالو الأغارقة (إجيزاندر) و (بوليدور) و (أتينودور) من الآثار ، وتراه يضع حداً فاصلا بين التصوير والشعر ، وتراه يرد على براتينجر ومن قبله سيمونيديس جملة قالوها : إن الشعر تصوير متكلم ، وإن التصوير شعر صامت ، وهى جملة دعت الشعراء إلى الوصف وجعلت المصورين يميلون إلى الرموز ، وقال لسنج إن لكل من الشعر والتصوير مجالا خاصاً به مبايناً للمجال الآخر مع ما لهما من الصلة والنسب ، فمجال التصوير المكان ومجال الشعر تعاقب العصور والأزمان ، فترى الأجسام

مثلا بما لها من صفات ظاهرة هى قطع تصلح للتصوير ، وللشعر مجال فى أعمالها التى تأتيها ، وأن التصوير يمكنه أن ينقل الأعمال ويقلدها ، ولكنه ينقلها بواسطة الأجسام ، أما الشعر فانه يصف الأجسام ، ولكن عن طريق الأعمال ، وقد راعى هومير ذلك القانون ، فانه عند ما يجيء ذكر درع أشيل ترى الشاعر يصفه وهو قائم أمام أعيننا ، وقد انتهى الصانع من عمله وشحذه ولم يصفه الشاعر وهو فى يد الصانع وهو يسويه درعاً ويصقل أطرافه وأجزاءه ؛ وإذا ما أراد الشاعر أن يصف لنا أجاممنون فى لباسه وزينته ، فانه يرينا الملك ، وقد فرغ من لبسها قطعة قطعة ، وهو يصور لنا طريقة اللبس وكيفية تقلد ذلك الملك قطع أسلحته وما إليها من ملبس ، هذا إذا ما أراد أن يصف لنا الملابس ، وقد راعى جوته وشلر هذه القاعدة نفسها ، وهناك فرق آخر وبون شاسع بين الشعر والتصوير ، فان الشعر لا يقتصر على وصف الجمال كما هو الحال فى الفنون الأخرى ، بل ترى الشاعر يصف وينقل لقرائه وسامعيه صوراً ومشاهد فى الطبيعة وهى ذات نطاق واسع ودائرة غير محدودة الأطراف ، وترى الشاعر يصف الجمال والطيبة مثلما يصف الفظاعة والكآبة ، وفى عرف لسنج أن هذا لا يجوز ولا يتأتى فى الفنون الأخرى وفى التصوير

وهذا رأى غريب من لسنج فى عرفنا ، فما الذى يمنع المصور والرسام أو المثال من أن يصور منظر فاجعة ، أو أن ينقل إلى الرسام رسماً بشعاً يملك على النفس حواسها ويترك فيها أثراً مثل الذى يترك أثر شعر يصف بشاعة أو فظاعة أو كآبة ، لقد شاهدنا بأعيننا فى عديد المتاحف والأبهاء الفنية التى رأيناها حتى الآن ، وهى تحوى آلاف الألوف من القطع الفنية ، ولا نذكر أنها كانت كلها قاصرة على نقل الجمال والطيبة فحسب ، وقد اعترض اللغوى (كاوتز) من مدينة (هالا) على ماجاء فى (لوكون) من آراء وحمل عليها فرد عليه لسنج فى خطابات أدب أسماها (كتب ذات مغزى قديم) ، ولكنها كانت ردوداً خشنة جعلت لآراء ذلك الأستاذ السكوت جوابها ، ولم تقتصر هذه الخطابات على أن تكون آية من آيات الجدل ، ولكنها كانت شهادة بسعة اطلاع لسنج وبغزارة علمه وبتمكينه من معرفة الفنون القديمة وقدرته الفائقة على معالجة المواضيع العامية ، وفى سنة ١٧٥٩ ، نشر لسنج رسالاته على القصص الخرافية ، بين فيها أن لطبيعتها الداخلية علاقة متينة بما فيها من مغزى ، وعاد فى سنة ١٧٧١ فنشر (ملاحظاته على تلك المغازى) .

وقد استرعى إصلاح التمثيل الألمانى عنايته الكبرى فوجه إليه اهتمامه ، ولما كان عمره ثمانى عشرة سنة وهو فى ليبزج كتب فكاهات منظومة سار فيها على طريقة جوتشد وهى على خلاف القطع الأخرى التى نظمت فى أيام تلك ، فقد كانت تمتاز بخفة وقعها وملاءمة ذلك للطبيعة ، ومن تلك الفكاهات : العالم الصغير ، والعذراء المسنة ، واليهود ، والكنز وغيرها

أخرى،والقطعة الأخيرة لا قيد فيها ، قد نظمها حسب طريقة (بلاوتوس) ،وكان يحذو حذوه حينئذاك ، وكان لسنج يعدها خير قطعه الفكاهية ؛ ثم إنه أعقب الفكاهات بالمآسى واتبع فى كتابتها طريقة جلرت وكلويشتوك الحماسة ، نذكر منها فاجعة (مس شاراسامبسون) و (فيلوتوس) وتراه فى فاجعته الأولى ينأى بكليته عن الذوق الفرنسى وعوضاً عن نظمها فى بحور (اسكندرية) صلبة معروفة بصلابتها وشدتها،فانه كتبها نثراً وتخير لها جواً انجليزيا واستعان فى مادتها برواية (كلاريسا) التى كتبها ريتشاردسون الكاتب الانجليزى المعروف وهى ذات موضوع حى أخاذ ، وقد أجاد فيها تصوير الحياة .

أما فى فاجعته الثانية (فيلوتوس) فقد جعلها فى فصل واحد موضوعها سهل ، ولكنها اشتملت على محاورات متينة يشيد فيها لسنج بذكر الوطن وحبه والميل إليه .

وآية لسنج الخالدة رواية تمثيلية فكاهية أسماها (مينافون بارنهلم) أو (حظ الجنود) نشرها سنة ١٧٦٧ ، وإليك ملخصها :

جاء الضابط البروسى (البكباشى فون تلهايم) إلى سكسونيا أثناء حرب السبع سنوات ليجمع إعانات وضرائب حربية من وسط سكسونى معدم ، ولما كانت الظروف لا تسمح بذلك إلا إذا أريد خراب البلد وإهلاك الزرع والنسل ، رأى ذلك الضابط أن يقرضهم تلك الضريبة الحربية من ماله الخاص ، فكان عمله هذا سبباً فى ميل آنسة سكسونية ثرية إليه ، وكانت تدعى (مينافون بارنهلم) فعقد خطبته عليها وفرقت الحرب بينهما وكان قد أصيب فى خلالها الضابط بعدة جروح وعجز عن تحريك الذراع اليمنى ، ولشد ما كان يؤلمه الوداع بعد أن عقد الصلح ، وأشد من هذا ما كان يحوم حوله من الريب والشكوك فى سلوكه إذ أشيع عنه أنه كان يرتشى من السكسونيين،وأقام الضابط فى إحدى فنادق برلين الصغيرة بعد أن كان يعيش معيشة السراة رخي الحال ، واشتد به الفقر والحاجة حتى اضطر أن يرهن آخر ما كان يملك وهو الخاتم الذى تقبله من حبيبته،حدث كل هذا وهى لا تعلم من نبأه شيئاً ، ولما طال على نأيهما الزمن ولم تردها أخباره عزمت على البحث عنه،فسافرت من ضياعها إلى حاضرة بروسيا ومن قبيل الصدف أقامت فى نفس النزل الذى كان يقيم فيه خطيبها وقد تأكدت من وجوده وتبينت بؤسه وضيقه لما علمت قصة الخاتم المرهون، وقد سرها التقاؤها بخطيبها،وقد عهدت فيه طهارة الأعراق ودماثة الأخلاق،ورغبت أن تكون رفيقه الأمين فى حال بؤسه،إلا نه كان يربأ بعزته ورجولته أن يلازمها وقد أصبح فقيراً معدماً عاجزاً عن الحركة قد ابتلى فى جسمه وفى شرفه بما تعلم،ولم يرغب أن يجعلها تشاطره سوء طالعه وما قدر له من شقاء،فرأت مينا أن تتغلب على خطيبها الآبى بالحيلة والدهاء ، وقد تم لها ما أرادت ثم قضت المحكمة ببراءة الضابط مما نسب إليه واتهم به ظلما وعدوانا، بل إنه استلم مكتوباً بخط الملك نفسه يرجع كل ما كان لتلهايم من شرف إليه ونشر ذلك بين الناس ليعرفوه ، كما أنه تيسر لوصيفة مينا المسماة بالآنسة (فرانتسكا)

أن تزف إلى عريف الجند فرنر وقد عدل عن فكرته الخيالية بأن يكون فى ركاب أحد الأمراء فى رحلته إلى بلاد إيران ، وهناك شخصيات أخرى عديدة فى تلك الرواية التمثيلية نضرب عن ذكرها صفحا خشية التطويل الآن، إلا أننا نرى من واجبنا أن نبين للقارىء مقصد الشاعر من كتابة هذه الفكاهة ، وهو أنه رغب فى تلطيف الحقد الذى أوجدته حرب السبع سنوات بين القبائل والمقاطعات الألمانية ، تلك الحرب التى قامت بين سكسونيا وبروسيا ، وكان منها ما يكون إثر كل الحروب بين القبائل والشعوب ، فترى الشاعر يدعو إلى الصلح والوئام بين الأفراد والجماعات ويغرس فى القلوب حب الوطن الألمانى كله، ولهذا كانت هذه الرواية التمثيلية الأولى من نوعها فى الوطنيـة التى وضعت للتمثيل على المسرح ، وقد جاء من بعده كثيرون يريدون أن يأتوا بمثلها ، وأن يكتبوا روايات تمثيلية على الجنود وأفعالها .

ولما نجح لسنج فى خطوته الأولى الهامة فى كتابة مأساة وطنية سعى فى إيجاد مسارح وطنية فى جهات متعددة، ومن الأسف أن مسرح ليبتزج الذى يعقد لسنج عليه الآمال أضحى غير ذى خطر وفقد أهميته التى كانت له على حين سعى الناس إلى إصلاح حال دور التمثيل فى (فين) و (همبورج)؛ فلما كانت سنة ١٧٦٧ دعى لسنج ليعضد إنشاء مسرح ألمانى وطنى فى هامبورج على أن يكون شاعر دار التمثيل فرفض هذا المنصب ، فعرض عليه منصب النقاد المسرحى فقبل أن يكونه ، وكانت ثمرة ذلك العهد (١٧٦٧ حتى ١٧٦٩) هو ما يعرفه بتأليف الروايات الشعرية الهامبورجية ونقده أكثر من اثنتين وخمسين رواية تمثيلية ثلثاها تقريبا مترجم عن الفرنسية ، وقد مثل ذلك المسرح الوطنى بهامبورج ، إلا أن غاية لسنج من دار التمثيل هناك لم تحقق ولم تصدق آماله فيها التى كان يعلقها على إنشائها وتأسيسها، فقد كان الممثلون كثيرى الاحساس رقيقى الشعور يتأثرون بسرعة كما أن الجمهور لم يكن ليصدر حكما ولا يبدى رأيا ، وكان ختام أمره من ذلك المسرح ونهايته سنة ، إلا أن عمله هناك لم يخل من نتيجة ، بل كان ذا ثمر ، فقد حدث أن عرفت أصول المأساة ووضحت حدودها ، ولم يك قد سعى إلى ذلك من قبل ؛ وقد بين لسنج بأن تلك المثل الفرنسيـة التى كانوا يحتذونها من قبل فى ألمانيا مثل كورنى وفولتير وديدروا وغيرهم لا تصلح أن تكون قاعدة للمأساة الألمانية ، بل إنه قال إنها تضاد الطرق الفنية ، وأن الفرنسيين يزعمون بأن تمثيلهم على غرار المآسى القديمة وأنه يتفق وتعاليم ارسطاطاليس وقواعده التى وضعها ، وقال لسنج وهو الوحيد الذى يقول ما ننقله عنه: إن نقاد الفن عند الفرنسيين قد فهموا كتاب الشعر (Poetik) من تأليف أرسطو فهما معكوسا خاطئاً ، وقد بين أن كتاب المآسى الفرنسية قد راعوا وحدة العمل فى مؤلفاتهم . أما وحدتا الزمان والمكان فقد روعيا عند ما كان لا مندوحة من ذلك بأن كانت وحدة العمل توجب ذلك ، وقد أشار فى نقده لميروب من تأليف فولتير إلى

البعد الشاسع بين المأساة الاغريقية وأختها الفرنسية وبعد الأولى عن الثانية بعد السماء عن الأرض ، كما أنه اشتد فى نقد كورنى وسلق الاثنين بألسنة حداد ، وقال يجب على الألمان أن يتخذوا شكسبير قدوة ومثالا يحتذونه إلى جانب شعراء الاغريق .

وفى سنة (١٧٧١ — ١٧٧٢) كتب فاجعة (أميليا جالوتى) وكان قد فكر فى وضعها قبل ذلك بسنين (١٧٥٧) ، والذى حركه لكتابتها ما قرأه فى فاجعة اسبانية اسمها (فرجينيا) من قلم (أوجوستمبنوده مونتيانو) ، إلا أنه ألبسها ثوب الجدة بدافع أنه أخذ مادتها من التاريخ الرومانى ، فجعل ذلك إيطاليا واتخذ مشاهدها من بلاط أمير إيطالى صغير ، وقد أجاد فيها وصف الأشخاص البارزة فيها كل على حدة بكيفية تستدعى الاعجاب .

ولما كان لسنج أميناً لدار كتب فولفنبوتل نشر عدة مقالات فى (التاريخ والأدب من كنوز دار الكتب) ، وقام بينه وبين أحد كبار الوعاظ المسمى جوتزه جدال دينى خاص بالديانة المسيحية واحتدت المناقشات حتى اضطرت حكومة براونشفايج أن تتداخل وأن تحظر على لسنج المفى فيها ، فدعاه ذلك إلى أن ينفث معتقداته الدينية فى مأساة كتبها سنة (١٧٧٨ — ١٧٧٩) ودعاها (ناتان العاقل) ، وجعل حوادثها تقع أيام صلاح الدين الأيوبى لما ذهب إلى بيت المقدس ، وأصبح الاسلام إلى جانب الديانة النصرانية واليهودية هناك ، ومع أنه اتخذ لحوادثها زمن الحروب الصليبية إلا أن لآرائه فى الانسانية وحرية المعتقدات ما لو أمكن تحقيقه ، لكان خير عصر عرفه البشر .

وسعى لسنج أن يكون قوام ولب ما يكتب صادقا واضحا ، ولقد خدم بذلك اللغة خدمة جليلة فى هذا الصدد ومهد السبيل ، وأوجد نثراً ألمانيا خاليا من شائبة تشوبه ، فترى أسلوبه الكتابى يحوى كل مميزات الأسلوب الفنى ، ولن يصادفك فيه أثناء مطالعته جعجعة وإزباد غير ذى وضوح لا خير فيه ، ولن تجد فيه تلك النعومة ، ولا تلك الشقشقة الفارغة والمبالغة والاغراق ، ولا تلك التعابير المعوجة التى لا تؤدى للغرض بسهولة ، بل كان يتخير لكتابته دائماً أسهل الألفاظ وأكثرها ملاءمة ، كما كان يتخير التعابير المؤدية للمعنى الذى يقصد كبيرة الوقع فى النفوس ، وكان موفقا فى الاتيان بأمثلة وصور وتشابيه صحيحة بينة توضح ما يقول وما تعنى به الخواطر والأفكار .

وممن شابهه روحا عدا موسوس مندلزون الذى سبقت الاشارة إليه المدعو (توماس إبت) المولود سنة ١٧٣٨ فى مدينة أولم ، والمتوفى سنة ١٧٦٦ ، وقد نشر رسالة أسماها (الموت فى سبيل الوطن) ، عبر فيها عما يكنه فؤاده وقلبه من حب لبلاده ، وقد نشر تلك الرسالة سنة ١٧٦١ ، كما أنه نشر أخرى عنوانها الجزاء سنة ١٧٦٣ ، وكان يقصد إلى رفع المستوى الخلقى والعقلى للشعب . م٩

على مظهر

مدام دى ستال ونابليون

بقلم الاستاذ عبد العزيز الشربينى
ليسانسيه فى الاجتماع والاقتصاد السياسى

عند ما هبط نابليون أرض فرنسا ، ووصل إلى باريس فى ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٧ ليقدم إلى حكومة الادارة معاهدة (كامبو فورميو) ، أرسل (ياوراً) من قبله إلى المسيو (دى تاليران) - وزير الشئون الخارجية وقتئذ - ليلتمس منه موعداً للقاء ... وقد رأى (دى تاليران) أن يكون الموعد فى الساعة الحادية عشرة من صبيحة اليوم التالى، ثم رأى بعد هذا ان يكاشف صديقته (مدام دى ستال) بذلك لتكون معه فى استقبال القائد بونابرت ...

ولقد تحرقت (مدام دى ستال) شوقاً ، وتعجلت الساعات، وصورت لنفسها تلك الروعة التى ستبدو على القائد الصغير الكبير الذى كان على إمرة الجيوش فى إيطاليا ، والذى عاد منها مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، متوجاً بالانتصار وأكبر الفخار ... وحق لمدام دى ستال أن يكون تقديرها له وشغفها به هكذا ، فلقد كان فى الثامنة والعشرين من عمره، فى طليعة رجال الحرب فى أوروبا جمعاء .. كان بونابرت موضع إعجاب الجميع لجرأته ونزاهته وتواضعه وتعشقه للحرية ، ولقد كان أيضاً دائم الاصطحاب ، كثير الاعجاب بالفلاسفة والشعراء ، وحق لـ (جارات Garat) أن يقول عنه : « إنه كان فيلسوفاً يقود الجيوش !! » .

أضرمت شهرة نابليون خيال (مدام دى ستال) ، إذ كانت محبة للجاه إلى أقصى حد، ولقد كانت العظمة تجذبها وتستميلها فى مثل قوة المغناطيس وقهره ... وقد تعجب إذا علمت أن (مدام دى ستال) هذه كانت تراسل (نابليون) فى إيطاليا دون أن يتم التعارف بينهما ، وقد يزداد بك العجب حين تعلم أنها ما كانت تراسله فى الأمور العامة ، بل تراها قد تناولت فى جرأة نادرة أموراً خاصة ما كان ينبغى لها أن تنزلق إليها ... فقد كتبت لـ (نابليون) ، وقد علمت أنه مشغوف بزوجته ، كتبت إليه تقدح فى هذه الزوجه وتمدح (نابليون) ، وتحاول أن ترفع من شأنه وتظهر على أن هذا النوع من النساء لا يستطيع أن يفهمه أو يقدره ، وهذا - على ما أرى وعلى ما يؤدى إليه الاستنتاج العادى - ضرب من ضروب الاستهواء والاغراء التى تقصد بها أن تلفته إليها ليرى نوعاً آخر من النساء على استعداد لأن يفهمه ويقدره .

هذه الرسائل التى كانت تخطب فيها (مدام دى ستال) ود نابليون ، والتى كانت تصارحه فيها بكل شيء ، تكلم عنها (بوريين Bourienne) ، إذ كان القائد يطالعه بنبذات منها ضاحكا قائلا له :

« بوريين ! ألا ترى شيئاً فى كل هذه الحماقات ؟ هذه المرأة مخبولة ..!! » ، ثم يعود بعد هذا فيقول : « وعلى كل حال فهى امرأة رائعة اللب ، خافقة القلب على مثال جوزفين ...!! بوريين ! لا أود أن أرد على مكاتبات كهذه ..!! » .

كانت (مدام دى ستال) إذن ـ فيما ذكرنا وفيما سنذكره بعد ـ شديدة الاعجاب بنابليون ، وكان لا بد لنابليون إزاء ذلك من أن يلاطفها ويصانعها ، إذ كان يرى فيها القوة والبأس ، وكان عليه أن يخشاها ويحذرها ، إذ كان يتوقع منها المكر والغدر . وسيظهر فيما يلى ـ وعند المقابلة الأولى ـ كيف كان نابليون حريصاً متحفظا معها .

عاد نابليون إلى فرنسا ، وقد كانت رحلته خلال سويسرا ذات مظهر رائع ، إذ تمثل فيها القائد القاهر ، والانتصار الساحر ، وإذ تجمع الشعب السويسرى هنا وهناك على جنبات الطرقات صفوفاً تتدافع لا تستقر على حال ، قد أخذت عليها حفزات الشوق والاكبار كل مظهر من مظاهر الثبات والوقار ... كان الشعب يهتف ، وكانت المدافع تقصف ، وكانت الوجوه ـ يومئذ ـ ناضرة ، وكان الاحتفال ـ إن أردت الوصف إيجازاً ـ عيداً مشهوداً .

تلقت (مدام دى ستال) الخبر من (تالليران) عن لقاء نابليون ؛ وفى الموعد المضروب ، بل فى اليوم الموعود نهضت مسرعة إلى الوزارة ـ حيث المقابلة بين نابليون وتالليران ـ ، فوصلت إليها الساعة العاشرة ، وظلت ساعة فى (صالون تالليران) ترتقب قدوم القائد العظيم بونابرت ؛ وما حانت الساعة الحادية عشرة وعلم (تالليران) بوصول القائد ، حتى خف فجأة إلى استقباله مرحباً به ، ثم دخل نابليون بعدئذ ، فتراءى أمام (مدام دى ستال) رجلا قصيراً نحيلا شاحباً متعباً (١) ، وانتهز (تالليران) هذه الفرصة ، فقدم لنابليون (مدام دى ستال) فالتفت إليها بقليل من العناية ـ كما قال (تالليران) نفسه ـ ، وكأن نابليون قد فطن إلى تلك المقابلة الباردة الجامدة ، فرأى أن يرفه عليها فيبدى لها أسفه ، إذ أنه حين مر على سويسرا سأل عن أبيها بقصر الـ (كوبيه Coppet) ، ولكنه لم يوفق إلى لقائه ... ثم التفت فجأة إلى (بوجانفيل Bougainville ـ أحد الحاضرين ـ قاصداً عامداً أن يقطع الحديث معها لئلا يقال

(١) ارسل نابليون خطاباً فى اول اكتوبر سنة ١٧٩٧ الى تالليران يقول فيه : « استطيع بكل عناء ان امتطى الجواد ولذا ترانى فى حاجة الى الراحة عامين كاملين .

إنه أفرط فى تقديرها ؛ وهكذا ظلت (مدام دى ستال) بعد هذا صامتة مضطربة تكاد تحتبس أنفاسها لأول مرة فى حياتها .

دخل نابليون مجلس الوزراء ، وما أن خرج منه حتى وجد (الصالون) قد ضاق على رحبه بالناس ، ورأى إزاء ذلك أنه مضطر إلى أن يلقى كلمة حماسية شهد هو بعينه كم أثارت من إعجاب .

هذه أول مقابلة بين (مدام دى ستال) ونابليون ، وليس من شك فى أن كلا من هاتين الشخصيتين المتنازعتين كانت تحاول أن تسيطر على الأخرى ... إحداهما كانت تهاجم وتود الانتصار ، والأخرى كانت تدافع فى ثبات وإصرار .

بين الشخصيتين إذن حرب صامتة ، وحملات خافتة فيها حذر وفيها إغراء بالأمل ورد للخطر .

وأتاحت الظروف (لمدام دى ستال) أن ترى نابليون مرة أخرى فى ١٠ ديسمبر سنة ١٧٩٧ – بعد المقابلة الأولى بأربعة أيام – عند ما استقبلته حكومة الادارة استقبالها الباهر فى بهو (لكسمبرج) ، حيث انتصب هيكل الوطن تزينه الأسلاب والغنائم والأعلام التى أحرزها جيش إيطاليا ، وحيث ترى أعضاء حكومة الادارة هاشين باشين مرحين فى لباسهم الرومانى . وفى انتظار ذلك القائد الكبير . وحيث تسمع الموسيقى توقع ألحاناً وطنية حماسية ، ثم يقدم بعد ذلك نابليون تحت أفق يتصاعد الهتاف إليه ، وترى الأنغام حواليه ، يسير فى رفقة من كبار ضباطه ، وإن يكن أقلهم طولا ، فقد تصاغروا وتقاصروا بانحنائهم له ، وإعجابهم به ... وكانت الكلمة لـ (تاليران) ، فوقف يكرم – على حد قوله – (ذلك الحب النهم من أجل الوطن والانسانية) . ثم عزا إلى ذلك الحب انتصار فرنسا واندحار عدوها الخصيم ، وعزا إلى ذلك الحب أيضاً تواضع نابليون ومقته لكل دعاية للزهو والكبرياء ... وانتهى (تاليران) وأجاب عنه نابليون بتقديمه معاهدة الصلح التى أبرمت فى (كامبوفورميو) إلى أعضاء حكومة الادارة ؛ ثم كان الدور بعد هذا لـ (باراس Barras) ، فقال مهنئاً إياه باسم حكومة الادارة : « إن قلبك الخافق لهو هيكل الشرف الجمهورى » ، وما كاد ينتهى حتى أقبل الأعضاء على نابليون يعانقونه ويثنون عليه ، وفيما هم كذلك انفجرت أنشودة (شينيير Chénier) تمجد فرنسا .

انتهت الحفاوة . وانقضى التكريم ، وانفرط عقد هذا الجمع الحاشد ، وقد لا تجد أحداً أوعى لهذه الذكرى ولا أحرص على الاعجاب ببونابرت من (مدام دى ستال) التى – على حد قول بعضهم – كانت تدين له بنوع من العبادة ؛ وقد تقتنع بذلك القول ولا تعده مبالغة أو إسرافاً فى التعبير إذا رأيت (مدام دى ستال) حاضرة ماثلة فى الولائم والمراقص والحفلات الرسمية

وغير الرسمية التى كان يحضرها بونابرت ، وإذا علمت أنها قد دعته مرة إلى حفلة رقص فى بيتها ، ومع أنه اعتذر إليها ، فما هان عليها أن تتبرم منه أو تتولى عنه ، بل احتملت راغمة كل هذا ، لأن العظمة ، وإن كانت خشنة جافية ، فليس من اليسير على النفس أن تبغضها وتنصرف عنها، ذلك لأن أثرها الباهر وفعلها الساحر يستزيد المحبة أكثر مما يستولد الكراهية، ومن طبيعة الأشياء أن يجرى الشىء فى مجراه أسرع مما إذا تحول إلى سواه .

ولعلك تسائل نفسك : ما بال هذا الرجل ـ نابليون ـ قد أساء إلى (مدام دى ستال) فترفع وتمنع وتباعد وهو لا يرى منها إلا الاكبار له ، والتكلف به ، والازدلاف إليه ؟ !

أما نابليون ، فقد تستطيع أن تلتمس له العذر إذا علمت أنه لا يحب هذا النوع من النساء اللائى استولت عليهن الأطماع ولجت بهن الرغائب ، فما كان يود أن يتحرى فى المرأة غير صفاتها ومحاسنها النسوية من جمال ووداعة ودلال ، وعدا هذا فليس إليه من سبيل ... فضلا عن هذا فقد خاف نابليون من (مدام دى ستال) طيشها واندفاعها الذى كثيراً ما جر الويلات حتى على معارفها ورفاقها ؛ ثم إنه يعلم ـ خلا هذا وذاك ـ أنها خطرة ، إذ قد طلب إليها أن تغادر فرنسا سنة ١٧٩٥ ، وأنه قد صدر قرار من حكومة الادارة فى ٢٢ ابريل سنة ١٧٩٦ بالقبض عليها إن هى سمحت لنفسها بدخول فرنسا ؛ ثم كان بعض التسامح فلم يضيق عليها منذ ذلك الحين ؛ إلا أنها فى الوقت نفسه كانت مهددة بالنفى والاقصاء عن فرنسا ، واضطر (بنيامين كونستانت Benjamin Constant) صديقها الصدوق إلى أن يكتب إلى رجال الادارة يرجوهم أن يصدروا قراراً لا يقيد صاحبته (مدام دى ستال) بمغادرة فرنسا أو الاقامة بها .

رأى نابليون وقتئذ أن لا يتملق حكومة الادارة بأطماعه التى فطنت إليها وهى أشد ما تكون خيفة منها ، وما كان منه إلا أن تكلف القناعة والزهادة فى الأبهة ومظاهر العظمة، ووصل الأمر إلى أن قيل عن منزله بشارع (شانترين Chantereine) : إنه كان بسيطاً صغيراً ، خلواً من مظاهر النعيم والترف .

ولقد كان يخرج نادراً جداً من غير أتباع ـ فى عربة عادية يجرها جوادان ، وإذا أراد الملهى ذهب إليه وادعاً هادئاً حتى يصل إلى (اللوج) المعد له وهو يحاول أن يتحاشى الأنظار ؛ ولقد كان ـ فيما ذكرنا ـ محبا للعلم والعلماء ، كان يتكلم مع (لاجرنج) و (لابلاس) فى الرياضيات ؛ وكان يتحدث فى ما وراء الطبيعة مع (سييس Sieyès) ، وفى الشعر مع (شنيير) ، وفى السياسة مع (جالوا) ، وفى التشريع أو القانون مع (دونو Daunou) ؛ ولقد سئل مرة وهو فى إيطاليا عما سيكون من أمره لو أنه أحرز الانتصار ، فأجاب : « سآوى إلى خلوة أنصرف فيها إلى العمل حتى يتهيأ لى الشرف يوماً ما فأصبح عضواً فى المجمع الوطنى » ؛

وفعلا كان هذا العزم العسكرى محققا لرغبته تلك ، فاختير عضواً فى المجمع ، وبهذه المناسبة كتب كتابا إلى الرئيس (كاموس Camus) هذا نصه :

« يشرفنى التصويت من جانب رجال المجمع الممتازين ، وإنى أحس تماما أننى قبل أن أكون رفيقا لهم سأظل مدة طويلة تلميذهم ، فان الغارات الصادقة التى لا تفضى إلى مأساة وحيث لا يتمثل فيها فعل القساة ، هى تلك التى يشنها الانسان على الجهل » .

هذه كلمات خالدة قد يستكثرها الانسان على جندى باسل خرج من الحروب ظافراً قاهراً كثير الزهو والتيه بالرغم منه يستكثرها ؛ بل يستغربها ، لأنه ــ بلا تردد ــ قد خلع رداء الغرور والاستكبار ، وقنع ــ إن لم نقل خضع ــ للعلم وما له من شرف وفخار .

لا عجب بعد هذا إذا استولى الاعجاب على رجال المجمع ، وعلى (مدام دى ستال) بنوع خاص ؛ ولكن هذا التقدير من جانب (مدام دى ستال) ، وذلك التقرب والتودد إليه كان ــ إلى حد ما ــ خافيا ، وشاءت هى أن لا تحمل هذا الوزر ، فجاهرت وصارحت ، حتى إذا ما أخفقت عادت إليه فحملت عليه ؛ وسأذكر إلى أى حد كانت المصارحة فى خطب الود ، وسترى كيف كان تطفلها ومماحكتها ، وإليك ما يثبت ذلك :

فى الاحتفال الذى عمد فيه (تالليران) إلى تكريم القائد بونابرت ، بدا على نابليون أنه كاسف البال كثير التفكير ، وظل هكذا حوالى الساعة أو الساعتين ، وفى هذه الأثناء شقت (مدام دى ستال) الزحام إليه ، ولما أن قربت منه رأت أن تسأله عن أول امرأة فى نظره بين النساء الأموات والأحياء ، فأجاب نابليون باسماً : « هى فى نظرى التى تنجب أطفالا أكثر من غيرها » ؛ هذه الاجابة من نابليون قد تعدها جافية بعيدة عن المجاملة ، إلا أنها تظهر لنا بجلاء رأى هذا القائد فى المرأة ، إذ لا يرى شيئا يحمده لها إلا إذا كان خاصاً بها وبشئونها ، أما العبقرية والنبوغ فيما ليس بسبيلها ، فذلك ما كان يمقته أشد المقت .

ورأت مرة بعد هذه أن تسأله : هل هو يحب النساء ؟ فما كان من بونابرت إلا أن أجاب عن ذلك بأنه يحب من النساء امرأته .

ومرة ثالثة ــ فيما ذكرته (الميموريال Mémorial) ــ دخلت (مدام دى ستال) منزل نابليون فى شارع (شانترين Chantereine) ، ولم تقتصر على ذلك ، بل توغلت فيه حتى بلغت غرفته الخاصة ، ورآها نابليون قادمة عليه فأراد أن يستوقفها ويعتذر إليها بأن لباسه دون أن يستره ، ولكن (مدام دى ستال) ابتدرته قائلة : « هذا لا يعنينى ، إذ العبقرية لا جنس (١) لها » .

---

(١) الجنس بمعنى الذكورة والانوثة Le génie n'a pas de sexe .

أرأيت إلى الجرأة كيف أوصلت (مدام دى ستال) إلى حد أنها تدهم نابليون فى منزله بل فى غرفته الخاصة دون سابق استئذان ؟

قد نعد هذا القول مبالغة ، ولكنه - على كل حال - غير بعيد الاحتمال والتصديق إذا عرضنا وذكرنا طائفة من أساليبها فى هذا السبيل - سبيل التلطف واستجداء العناية والتقدير - مما لا يسمح المقام بالافاضة والتوسع فيه .

ولما يئست (مدام دى ستال) من حمل بونابرت على احترامها كما تريد ، رأت أن تتنكر له ، وعمدت أخيراً إلى مضايقته ومناهضته ، حتى اضطر نابليون يوماً ما إلى أن يبعث أخاه (يوسف) رسولا ووسيطا كى يسود حسن التفاهم بينه وبينها ؛ وذهب الوسيط يؤدى الرسالة قائلا لـ (مدام دى ستال) :

« إن أخى ليشكو منك ، ولقد كرر لى أمس قائلا : لماذا لا تميل (مدام دى ستال) ولا تطمئن إلى حكومتى ؟ ألأجل المبلغ المودع لأبيها ، وسآمر به لها؟أم لأجل الاقامة فى باريس ؟ وسأرخص لها بها ... بعد هذا ماذا تريد ؟ » .

ولقد أجابت (مدام دى ستال) عن هذا القول فى عزة وأنفة وتيه

« ليس الأمر متعلقا بالرغبة والارادة ، وإنما هو يتعلق بالتفكير »

وعاد الرسول ، وما كان نابليون يظن أن رسالته سيقدر لها هذا المصير،حيث لوح داعيا إلى السلام ، وحيث تنمرت معلنة الحرب .

وقد ترى من العجب أن يأسف نابليون لذلك ، وأن يراه أخوه يوسف هكذا ،فيقول له: « لو أنك أظهرت لها قليلا من التلطف ما رأت بدًّا من تقديسك » ؛ وهذا هو الواقع ، وهذا ما يجب أن يكون لو أن نابليون راعى القصد والاعتدال فى امتهانه لها ومقابلته إياها بكل صد وإعراض .

وعند ما رحل بونابرت فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ من طولون ليقوم بالحملة على مصر ،كانت (مدام دى ستال) لا تزال تحمل له بين جوانحها كل محبة وتقدير ، إذ كانت تتمثله بطلا من الأبطال الوهميين ؛ أو حلقة اتصال بين الانسانية والألوهية ، فلا يدانيه الاسكندر ولا يشابهه قيصر ؛ ووصفته بأنه « رجل الحرب الباسل ، والمفكر الأريب ، والعبقرية الخارقة » ، وإذ ذكرت العبقرية الخارقة،فنحن نذكر بهذه المناسبة أن نابليون كان إذا أراد أن يمضى قراراته كتب هكذا : (نابليون القائد العام - والعضو بالمجمع الوطنى) ؛ إلى هذا الحد كان بطل الوقائع والحروب لا يظن نفسه بطلا هازما إلا إذا ساهم فى بطولة العلم ، فكان أيضاً عالماً ! !

ولم تكن (مدام دى ستال) بالرغم من رضائها ووفائها لنابليون فى ذلك العهد تتجاوز عن مآخذه ، فقد طابت عليه حديثا دار بينه وبين « المفتى » فى هرم (كيوبس) ، ومما جاء

فى هذا الحديث قول نابليون : « القوة لله ! لا إله إلا الله محمد رسول الله ... إن الخبز المغصوب ليستحيل رماداً فى فم الشرير الغرير ... الخ » ، ولعلها تعيب عليه هذه المداخلة والمماذقة التى فيها كثير من الخداع إن لم تقل أوفر قسط منه ، ولعلها تعيب عليه أيضا هذه الجرأة على الحقيقة والواقع ، فهو يدعى أو يتظاهر بالاسلام وهو ليس بمسلم ، وينتحل العفة والتورع عن الاغتصاب وانتهاب الحقوق وهو الجائر المتهجم .

رأى نابليون أخيراً أن (مدام دى ستال) هى بوق الشهرة ،وهى أيضا بوق التشهير،ورأى – على هذا الاعتبار وفى ذلك الحين – أن يجاملها ويلاطفها،ولكن– لكى يتعرف تلك النفسية وعلى ماذا تنطوى – تراه قد اطلع على مؤلفاتها ، وهو من غير شك وبنوع خاص قد طالع كتابها الأخير « فى تأثير الأهواء «De l'influence des passions» ، ولقد تلقت (مدام دى ستال) من أبيها (نكر) من أجل هذا الكتاب الرسالة الآتية بتاريخ ٤ مايو سنة ١٧٩٩ :

« إذن فهأنت موضع الفخار على ضفاف النيل ، ولئن رأى اسكندر مقدونيا أن يستقدم الفلاسفة والمتكلمين من أنحاء العالم جميعها ، فقد رأى اسكندر قرسقة (نابليون) حرصا على الوقت أن لا يتصل بغير عقل (مدام دى ستال) ، فهو يدرى مجرى الأحوال » .

ولم يكن (المسيو نكر) خاطئا ولا واهما، فقد درى بونابرت حقا الأمور وخبر الأحوال، فهو إذ قرأ كتب (مدام دى ستال) ، وإذ اعتاد أن يمضى بهذه الامضاء : (بونابرت عضو بالمجمع) قد استطاع بعض الشىء أن يتملق طائفة من قادة الرأى تستطيع أن تسنده وتشد أزره ، أو على الأقل تقتصد فى نقده ورده عن قصده .

لنسلك ناحية أخرى نطالع القارىء فيها برأى (مدام دى ستال) السياسى فى آخر سنة ١٧٩٩ ، أى قبيل عودة بونابرت : أرادت قبل كل شىء أن « تنتهى الثورة » : وأن يضع الانسان حداً لها بوسائل – وليكن فيها الردع والقمع بل الاستبداد – حتى تهدأ وقدة هذه الحماسة المستعرة .

هذا مجمل رأى (مدام دى ستال) و (بنيامين كونستانت) وغيره من المعتدلين فى الرأى فى هذا العهد ، أو بمعنى آخر: هذا رأى الكثرة الساحقة من الفرنسيس ؛ فمذ سقطت الملكية لم تهدأ ثائرة البلد ولم تجر احوالها فى مجراها الطبيعى ، فكانت تتقاذفها الظروف من طرف إلى آخر ، وكانت لعبة تتلقفها الحزبية فى كثير من التناحر . ولقد استولى على النفوس نوع من الشك السياسى ، ولم تكن الآراء قد استقرت على شىء بعد ، وما كان للناس – إزاء هذه الفوضى – إلا أن يمقتوا كل المقت حكومة الادارة ، وأن يزيحوا عنهم هذا الاستبداد « جرثومة الفناء لكل الأنظمة » .

والحق أنه لم يمر على فرنسا عهد أنحس من هذا العهد ، ولم تشرف عليها حكومة بلغت

من الاستبداد مثلما بلغت حكومة الادارة ... عسير عليك أن تلتمس للعدالة ظلا فى النفوس وأن تجد للقانون شيئاً من الاحترام ، وأن ترى وسيلة من الزجر ليس فيها كل وبال ونكال . كان السخط يحل حيثما أراد : على المعتدلين ، على اليعقوبيين ، على الملكيين سواء بسواء ، فضلا عن الجرائد تصادر ، والصحافة ورجال الطباعة والملاك عرضة للمخاطر . . هذا وقد أنشئت لجان حربية دائمة ، وأصبح يحاكم محاكمة عرفية كل قسيس يشتبه فيه ، أو تحوم مظنة الشك حوله ، فثارت ثائرة اليعاقبة إزاء الخطر الخارجى والداخلى وطلبوا إعلان «أن الوطن فى خطر» ، وكادت الأمور تسير من مصير سيء إلى مصير أسوأ لولا أن هدأت النفوس نوعاً ما عند ما انتصر (ماسينا Masséna) فى (زيورخ) ، ولكن هذه الهدأة لم تكن أكثر من مهلة عادت النفوس بعدها أشد نشاطا وتوثبا ، وقد أحزنت هذه الحال (مدام دى ستال) وآسفت (بنيامين كونستانت) الذى كان يريد « التمتع بالحرية إلى أقصى حد،وبكل أنواعها وأشكالها » .

ولئن سلم كل منهما بانقلاب ١٨ بروميير سنة ١٧٩٩ ، أى (نوفمبر) فذلك على فكرة إنشاء حكومة جمهورية فى فرنسا أساسها احترام القانون ، ثم التسامح والانصاف بين الناس ، ولم يكن يعلم كل منهما أن هذا الانقلاب قد مكن لـ(نابليون) فى النفوذ ووطد له السلطان ، ورأيا بعد هذه الأطماع أن الفرصة قد سنحت لاعلان قوتهما والتلويح بها فى وجهه ، ولقد رأت (مدام دى ستال) بنوع خاص أن قد حان لها الوقت لتواجهه مواجهة العدو العنيد ذى البطش الشديد ، ولم تكن (مدام دى ستال) فى الواقع وبالرغم من كل هذا كارهة لنابليون بحيث تريد به المكاره ، وإنما هى رأت من نابليون ما أكرهها على هذا المسلك ، مسلك المعارضة والمناهضة ليس غير ، وليس يفوتنا أن نقول إن (مدام دى ستال) كانت معتزة بأبيها فخورة بنفسها ، وقد شاءت أن تعد لها (صالونا) لا نكون خاطئين أو مبالغين إذا قلنا إنه كان برلمانا ثانيا ، واستمرت (مدام دى ستال) فى طريقها غير هيابة من شيء ، من وعيد وتهديد ، أو إبعاد واضطهاد .

ولنختتم الموضوع بسؤال نلتمس الاجابة عنه ، أما هذا السؤال فهو :هل أنصفت (مدام دى ستال) بونابرت،وهل صدقت فى كل ما قالته عنه ؟ ؟ . أما الجواب عن هذا فما قال (پول جوتيير Paul Gautier) صاحب كتاب (مدام دى ستال ونابليون) فهو :

« إن مدام دى ستال طالما اشتطت فكانت أحيانا غير منصفة لنابليون ، وكانت أحيانا أخرى جائرة فى الحكم على فرنسا نفسها.وقد كانت امرأة تتحكم فيها الأهواء ، فكانت شديدة الفطنة نافذة البصيرة إذا لم تكدر حكمها الأكدار ، وكانت غير متبصرة، بعيدة عن التقدير إذا ألح عليها الهوى والرأى الفطير » ؟

عبد العزيز الشربينى

المستشرقون

وضررهم على الإسلام والشرق

بقلم الدكتور حسين الهراوى

اطلعت أخيراً على رد الأستاذ الدكتور مبارك فى عدد أغسطس على رأيى فى المستشرقين، وكنت أود أن أكون عند ظنه فتكون كلمته ختامية فى الموضوع، ولكنه سألنى أن أعد له عشرة أشخاص من أعلام الأدب العربى الذين تغنينا مباحثهم عن الذين يطلقون على أنفسهم نعت المستشرقين.

وسيرى الأستاذ فى ما يلى أسماء أعلام الأدب العربى والتاريخ فى مصر فى الوقت الحاضر ممن لا يطاولهم المستشرقون أنفسهم فى مجهودهم مع الفارق العظيم بين ظروف الباحث العربى والمستشرق؛ فالباحث المصرى يستنزف ثروته ويقضى وقته فى البحث والنشر دون معين أو مساعد، ولا أظن نفس الأستاذ زكى مبارك مغتبطاً بنتيجة تجاريبه فى نشر كتاب مثل «الأخلاق عند الغزالى» وغيره.

أما المستشرقون فيكفى أن يكتبوا بعض السب والشتم والمنطق المعكوس فى الاسلام ونبيه، ويجدون من حكوماتهم مساعداً على النشر، ومن المطبلين والمزمرين من يهرفون بما لا يعرفون حتى من نفس الشرقيين.

أتريد دليلا يا أستاذ؟ قلب نفس العدد من «المعرفة» وانظر تجد اسم مرجليوث والاشادة بذكره والمستشرقين، وهل يعلم القراء من هو مرجليوث؟.. إنى لسعيد أن يجهلوه، ولكنى سأنقل لهم فقرة واحدة مما يهذى به ليعلموا أزفينا من يعرف الاسم ويجهل المسمى.

قال المدعو مرجليوث – فى الفصل التاسع والثمانين من تاريخ العالم صحيفة ٢٣٦٤ – عن نسب النبى – صلى الله عليه وسلم – وانه ابن عبد الله ما يأتى: إننا نشك فيما إذا كنا نعرف شيئا عن والد النبى – صلى الله عليه وسلم – لأن لفظة عبد الله تطلق على الشخص المجهول، وربما كان لها هذا المعنى عند إطلاقها على والد النبى صلى الله عليه وسلم.

إذن لى أن أعتب على نفس صاحب مجلة «المعرفة» ومحررها (١) أن يشيد بذكر رجل

---

(١) راجع تعليق المحرر على هذه العبارة فى آخر المقال.

هذا شأنه، وهذا ما أردت من كتاباتي المتعددة عن المستشرقين أن يفتح الشباب الشرقي عينه، فيرى الحقائق كما هي لا كما يصورها المستشرقون، الذين يريدون أن يستعبدوا عقولنا، وهم أجهل الناس بفهم اللغة العربية نفسها، وأن يتعمقوا في روحها، لأنهم لم يتعلموها إلا لحاجة في نفس يعقوب؛ ولذلك ترى مؤلفاتهم عن العرب والعربية باللغات الأوربية، وليس أعجب من رجل يتكلم عن العربية، ولا يكتب بها شيئاً.

فالمستشرقون دساسون وهم طلائع الاستعمار ومستعبدو العقول، فكم من مستشرق كان جاسوساً لإدخال البلاد العربية تحت نير الاستعمار، وكم لهم من تقارير في محاربة الدين الاسلامى واللغة العربية التي يزعمون خدمتها.

أتريدون مثلا أيها السادة؟ إليكم تقرير لجنة العمل المغربي في أوربا: وانظروا ماذا يقول (سيكارد): إن الاسلام في روحه الخاص قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغائبنا ونزعاتنا، وهذه القوة يمكن تسكينها، ولا يستطاع التغلب عليها إلى الأبد، فمن مصلحتنا أن نعمل ما في طاقتنا للتقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطتنا.

ويقول مستشرق آخر: «إن مصالحنا تحتم علينا أن نجعل تطور المسلمين خارج حوزة الاسلام».

وقد عرض التقرير المذكور لأنواع الأساليب التي تدرس بها اللغة العربية لطلبة المستشرقين مما لا يتعدى مسخ حقيقتها والعبث بها وتحقيرها؛ وشاءت الصدف أن نجتمع بالأب أنستاس الكرملي، فعلمنا منه أنه يصحح كتب المستشرقين — ولم يرض أن يذكر لنا أسماءهم —، وأنه يتناول عن كل صحيفة جنيهاً، فأعلنا ذلك في الحفلة التي أقيمت له، كما أعلنها «الصحافي العجوز» على صفحات «الأهرام»، ومن هذا يتضح لك أنهم مثل الطلبة الضعفاء الذين ينقدون صحافياً مبلغاً من المال ليكتب لهم موضوعاً لنشره في الجرائد؛ وهذا سر تلك الأغلاط التي تراها في كتاب مثل «دائرة المعارف البريطانية»؛ فمثلا في لفظة مصر تقول إن الصعيد معناها السعيد، أو The happy، ولو كتبها طالب في الشهادة الابتدائية لأخذ صفراً، وكذلك عند ترجمة أبي بكر يذكرون معناها أبو البنت البكر؛ ولو قالها طالب صغير لقال له أستاذه ياغبي! وسأنقل للقراء فقرة من كتاب (برينو) الذي يدرس للطلبة الفرنسيين باللغة العربية، قال:

«أتريد يا صاح أن تتعلم الكلام مع الأهالي الذين حولك، وأن تختبر المسلمين — في زياراتك — عما تهمك معرفته، لا تظن أنني سأعلمك لغة القرآن، فهذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد، فهي لاتينية العربي، وهي اللغة التي أنزل الله بها كتاب المسلمين؛ وهي لغة الصلوات والاستغاثات والتمنيات أحيانا، وهي كذلك اللغة المستعملة في جنة محمد، وسأحبب إليك دراستها في المستقبل إذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين»

ومن هذه الأمثلة يتضح لك أن المستشرقين جهلاء متعصبون ، مهنتهم التبشير الاستعمارى ضد القومية العربية الشرقية ، والاسلام بصفة خاصة ، إلا فئة قصرت نفسها على التاريخ وأرادت أن تحترم نفسها ، وهى فئة قليلة يجب أن نتبينها بعد دراستها دراسة تامة ، حتى لاتجوز علينا تلك المغامز التى يملأون بها الدنيا فى تشويه سمعة الشرق والاسلام .

والذى يؤلمنا هو أن تجوز حيلهم وشعوذتهم علينا ، وأكبر ما يهمنا أن نرى مظاهر الثقة بهم دون بحث آرائهم .

وها أنا أعدد أعلام الأدب العربى الذين يعوضون علينا مباحث المستشرقين ، وهم مع حفظ الألقاب :

طه حسين ، محمد حسين هيكل ، محمد عبد الله عنان ، مصطفى عبد الرازق ، زكى مبارك ، محمد لطفى جمعة ، محمد الهراوى ، محمد فريد وجدى ، الشيخ السكندرى ، أحمد زكى باشا ، عبد الرحمن الرافعى ، أحمد أمين ، عبد الحميد العبادى ، منصور فهمى ، أحمد لطفى السيد ، أحمد حسن الزيات ، أنستاس الكرملى ، على الجارم ، الاستاذ العوامرى .

وكلمتى الختامية ، أن الأستاذ مبارك رجل شريف يعترف معى أن الشرق يجب أن لا ينسى منطقه عند قراءة المستشرقين ، هذه هى النقطة التى أرجوه أن يعمم نشرها ، وأن يذيعها لطلبته وفى مقالاته .

أما أنا شخصياً فأؤكد له أننى آخر من يهمه مباحث المستشرقين ؛ وإن كنت قد قتلت بعضها درساً ، وقد لفتتنى لمقارنة الأديان فصرفت فى ذلك وقتاً غير قليل ، وكونت لى رأياً عن المستشرقين من دراسة دامت وقتاً أكثر مما يظن الأستاذ ، فليس من السهل أن أنزع عن رأى كونته عن دراسة وخبرة فى مدى خمسة عشر عاماً ، ولم يمنعنى من نشر تلك المقارنات إلا أنى أريد أن أبعد كثيراً عن المباحث الدينية ، أما إذا أراد ناشر أن ينشرها فله أن يأخذها مكتوبة مبوبة غفلا عن ذكر اسمى . ؟

الدكتور حسين الهراوى

نحن والمستشرقون أيضاً

رد صاحب « المعرفة » على الدكتور حسين الهراوى

تغتبط « المعرفة » شديد الاغتباط بهذا الجدل الذى يقوم بين كل من الدكتورين : زكى مبارك وحسين الهراوى خاصاً بالمستشرقين ، وتغتبط أكثر بهذه المنافسة فى سبيل تمحيص الحق ونصرته ، بل هى أكثر اغتباطاً حين ترى هذه المناقشة تدور رحاها على صفحاتها أولا ، وتنتقل إلى « البلاغ » ثانياً ، ومن ثم إلى « السياسة » لتعود آخر الأمر إلى صفحات « المعرفة » ، فتستقر ويستعر لظاها ، وتسير حرة دون قيد أو شرط من صاحب « المعرفة » الذى قد يكون من المفاجأة ـ وقد أبى الدكتور الهراوى إلا أن يشركه فى البحث ـ أن يصارحه بأنه لا يساهمه رأيه ، ولا يشاركه فكرته فى الانتقاص من قدر المستشرقين ؛ ولكنها حرية الرأى التى فى سبيلها نعمل ، وعلى مذبحها تقدم مالنا وهو خصاصة ، وجهدنا وهو ضئيل ، ونفوسنا وهى عزيزة ؛ فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسى تقاها أو عليها فجورها

ذلك هو الحق نقرره ، والواقع نبديه ؛ وقديماً قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الساكت عن الحق شيطان أخرس » ، وإذا كان تقديسنا لهذه الحرية يجر علينا فى أغلب الأحايين بعض ما نلقى من عنت واضطهاد ، أو إذا كانت تلك الحرية تسبب تنكر بعض الناس لنا ، فإنا ـ آخر الأمر ـ مغتبطون جد الاغتباط حين نرى أن ما نقرره من حق ويقين يلتمس طريقه إلى النفوس الطيبة فى صبر واتئاد ، وفى تريث وطمأنينة ، مما يدعو فى النهاية إلى استقرار الفكرة استقراراً مكيناً لا تزعزعه الأباطيل أو الترهات.

على ضوء هذا الذى تقدم نريد أن نناقش الدكتور الهراوى فى عتابه علينا فى نشر صورة الأستاذ مرجليوث والاشادة بذكره وعمله ، ونريد أن نتساءل عن مبلغ الصدق فيما أراد الدكتور أن يصم به صاحب « المعرفة » من رعاية للمستشرقين ، ومن تمجيد لهم ، ومن عمل على إذاعتهم فى غير عدد من أعدادها ؛ فصديقنا الدكتور الهراوى ـ فى رده على صديقنا الدكتور زكى مبارك ـ يعجب من صاحب « المعرفة » ، ويعتب عليه فى نشر صورة الأستاذ مرجليوث . ونشر فصل آخر عن المستشرقين الذين خدموا اللغة العربية ؛ وليس من شك مطلقاً فى أن هذا العجب أو هذا العتاب ـ إن صح التعبير ـ لا يستقيم مع المنطق، ولا يتمشى والحق الصريح ، لأن «المعرفة» كانت وما تزال ـ منذ أول عدد من أعدادها حتى آخر جزء من أجزائها ـ شديدة الحرص على أن تكون حرية الرأى مكفولة على صفحاتها للجميع دون استثناء أو تمييز، وهى مع حرصها على حرية الرأى لم تسود صفحة واحدة من صفحاتها بما يفهم أحد منه أنه تشيع لغير الاسلام ، أو تعصب لغير الشرق ، وتمسك بغير العربية ، حتى لقد رمى

صاحبها بالجمود والتعصب للقديم ، مما لا نتحرج عن ذكره أو نتنصل عنه .

ولعل الدكتور الهراوى يذكر أنا قلنا فى أول عدد من أعداد « المعرفة » ما نصه : « وستكون « المعرفة » معولا هداماً لبناء المذاهب المادية الالحادية ، ومبضعاً دقيقاً لبتر الفاسد من مذهبى الثيوصوفية واستحضار الأرواح وغيرهما من المذاهب المنتشرة فى أوروبا وأمريكا ، ومصلحاً مقوماً لغلطات بعض المستشرقين الذين وقعوا فى أخطاء علمية ، وتخيلوا فروضاً وهمية فيما كتبوه عن الشرق وعلومه ؛ ولسنا بهذا منكرين لهم فضلا ، أو جاحدين لهم نعمة ، وإنما الحق يقال ، إذ ليس الدخيل كالأصيل ، ورب الدار أدرى بما فيها . وسبيلنا إلى القيام بهذا الذى أخذناه على عاتقنا هو أن نأتى بما قرره هؤلاء وأولئك من قضايا وأوضاع ، نتولاها بالبحث والتمحيص ، والنقد والتحليل ؛ فما كان منها سليم المادة صحيحها أخذنا به ، وما لم يكن متفقا والحق تقضناه نقضاً علمياً خالياً من التعصب لرأى ، أو مشوباً بتحامل ما ، ليتبين الحق من الباطل ، ويتضح الصبح لذى عينين » (١).

وإذا كنا قد افتتحنا عملنا بهذا القول ، فذلك دليل ــ وأى دليل ــ على أنا لا ننساق مع المستشرقين فى التشيع لهم أو لغير ما نعتقده حقاً ويقيناً ، وهو فى الوقت نفسه حجة ناهضة نحسب الدكتور حين يرجع إليها يرى دعواه منهارة الأساس ، مقوضة البنيان .

وإذا علم الدكتور أن الأستاذ مرجليوث كان أول معارض لنا فيما كتبناه بالجزأين الثالث والرابع من السنة الأولى عن كلمة « صوفى » فى الوقت الذى لم يعارضنا فيه إنسان ، وإذا علم أيضاً أن الأستاذ مرجليوث كاشفنا فى كتاب بعث به إلينا برغبته فى نشر اعتراضه ، وفى أنه يظن بل يعتقد أنا لن نسمح بنشره لأنه مخالف لرأينا ، وإذا علم أيضا بأنا كتبنا إليه نطالبه بارسال رده ، بل نلح فى ضرورة إرساله إلحاحاً ، وإذا علم أنا نشرنا ذلك الرد بنصه وفصه (٢) وأنا لم نتركه دون أن نقهر رأيه برد حاسم وردنا من الأستاذ لطفى جمعة ، فكفانا مؤونة الرد عليه (٣) ، وكان رداً حاراً نقد فيه الأستاذ مرجليوث نقداً مُراً ، ألهبه فيه بما يشبه أن يكون شواظاً من نار ، وقلنا فى تقديم ذلك الرد وفى دفاعنا عن الأستاذ لطفى جمعة : « إذا كان القراء يرون فى أسلوبه شيئاً من الشدة ، فرجع ذلك لا إلى تعصب فى الرجل كما يبدو لأول وهلة ، وإنما يرجع إلى يقين الأستاذ بما يقرر ؛ وقديماً قال أرسطو تلميذ أفلاطون : « إننى أحب أفلاطون ، ولكننى أحب الحق أكثر منه » .

إذا علم الدكتور كل ذلك استطاع أن يدرك فى سهولة ويسر أن دهشته وعتابه وعجبه أو ما شابه ذلك لا محل له ، اللهم إلا أن يكون متحاملا على صاحب « المعرفة » بالغ التحامل .

لقد أراد صاحب « المعرفة » أن يقف من هذا الجدل بين الدكتورين مبارك والهراوى موقف الحياد ، شأنه فى ذلك نفس الشأن فى كل جدل يدور على صفحات « المعرفة » بين اثنين ،

(١) راجع السنة الاولى : المجلد الاول من « المعرفة » ج١ ص ٤ . (٢) راجع المجلد الثانى من « المعرفة » ج ٧ ص ٧٨٢ . (٣) راجع المجلد الثانى من « المعرفة » ج ٨ ص ٩٢٤ .

ولكنه ـ وقد أحرجه الدكتور الهراوى وأبى إلا أن يشركه فى زمرة الذين يساهمون الإعجاب بالمستشرقين ـ يقول كلمته صريحة وهى فى جملتها لن تسره ، ولن تنال إعجابه ... ذلك أن صاحب « المعرفة » شديد التقدير لجهود المستشرقين الذين استطاعوا أن يؤدوا إلى اللغة العربية خدمات ليس فى مقدور أحد ـ إلا الدكتور ـ أن ينكرها عليهم .

لست أنكر يا سيدى أن لبعض المستشرقين فى بعض الأحيان مآرب وغايات وأطماعاً استعمارية، ولكن ليس من الانصاف فى شىء أن ننكر إلى جانب ذلك ما لأكثرهم من فضل، وما لهم من محاسن ، كما أنه ليس من العدل أن ننكر أن ذلك البعض فئة لا يعتد بها ونفر لا يؤبه به ؛ وما لنا لا نزيد الدكتور صراحة وجلاء ، فنقرر له ـ فى صدق ويقين ـ أن بعض أولئك المستشرقين قد عدل آخر الأمر عما توجهت إليه نفسه من كيد وشر للاسلام ، وقد انساق بحكم تذوقه للغة العربية إلى الدفاع عنها دفاعاً مجيداً ، وخدمتها خدمة تصعب على من رامها منا وتطول . !

وبعد ، فهل قرأ الدكتور ما كتبه كارليل عن محمد بن عبد الله ، وما ألفه نيكلسون عن التصوف الاسلامى، وما صنفه عن العرب والعربية والاسلام، وكل من: ماسينيون ، وماكدونلد، ونولدكه ، وجولد سيهر ، ومارتى ، وفيشر ، وبراون ، وتوماس أرنولد، وجيب ، وويدمار ؛ وجويدى الكبير ، وجويدى الصغير ، ولتمان ، وهارس خون ، ونالينو ، وصمويل لاى ، وبروخ ، ولانزونى ، وكايتانى ، وجلارزا ، ولافونت ، وجسبار ، وكلسون ، وخانيكوف ، وهوبرج وكثير من هؤلاء أستطيع أن أعد لك منهم عشرات ، بل مئات ؟

هل قرأت يا سيدى ما كتبه هؤلاء عن العرب والاسلام، وما يتصل بلغة من العرب أدب، ونحو، وصرف، وتاريخ ... الخ ؟ وإذا كنت قد قرأت شيئاً من ذلك ، أفلا ترى معى أن المستشرقين قد أدوا إلى اللغة العربية خدمات ليس من الهين إنكارها ؟ ثم ألا يحق لنا أن نصارحك بأن للمستشرقين فضلا آخر لا يعدله أى فضل فى مئات الكتب العربية والموسوعات العلمية التى يبعثوها من مرقدها ناشرين بها فضل العرب والعربية ، مخرجيها فى أحسن حلة وأدق طبع وأناقة . ثم أليس هؤلاء المستشرقون هم الذين أظهروا لنا « معجم الأدباء ، ومعجم ما استعجم ، وطبقات الأطباء ، وأخبار الحكماء ، وفهرست ابن النديم ، ومعجم البلدان ، وطبقات الصحابة ، وطبقات الحفاظ ، ومفاتيح العلوم ، والمقدسى ، والاسطخرى، وابن حوقل ، والهمذانى ، وشيوخ الربوة، وابن جرير، وابن الأثير، وأبى الفداء، واليعقوبى ، والدينورى ، والمسعودى ، وأبى شامة ، وابن الطقطقى ، وحمزة الأصفهانى ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وفتوح البلدان » ، وغير ذلك من كتب العلم ، والأدب ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، مما لا يقع تحت حصر ويتيه فى عده الكثيرون منا ؟

وما لنا لا نصارحك القول بأن محرر « المعرفة » قضى أكثر من سبع سنوات باحثاً منقباً عن الأصول التاريخية للفرق الصوفية فلم يتبين الحدود والأوضاع الصحيحة فيما طبعه العرب من مؤلفاتهم ، وإنما تبين بعضها فى كتب المستشرقين ، والبعض الآخر فى كتب العرب التى

طبعها المستشرقون أنفسهم ؛ أفليس هذا دليلا على أن أولئك القوم يخلصون فى بحوثهم الأدبية خاصة ، إخلاصاً بعيداً عن كل شائبة ؟

ثم أنتقل بك إلى الناحية الدينية ، فأقول لك إنها يجب أن تظل فى مناعة من النقد ، وفى حرمة وتقديس بعيدين عن الجدل والتجريح ، فللبحث الدينى قداسته ، وللبحث العلمى حرمته، وليس على الباحث الدينى أن يتأثر الباحث العلمى ، كما أنه ليس على الباحث العلمى الحر أن يتقيد بالباحث الدينى ، خصوصاً إذا كان يبحث فى دين غير دينه، وإلا أفأنت ترغم الناس على أن يعتنقوا ما تعتنق من دين ومن رأى وقد أبو الهداية والانصياع لمن سبقوك من قبل ؟ وهل تفرض على من يدرس اللغة العربية أن يعتنق دينها وهو الاسلام، وقد أبى بعض العرب من أقارب النبى اعتناق دينه ؟ أفتفرض إذاً على كل كاتب بالانجليزية أو الفرنسية أو اليونانية سواء أكان عربياً أم غير عربى أن يكون مسيحياً لأن تلك لغات الانجيل ؟ ثم لماذا لا تفترض معى عدول أولئك بعض المستشرقين عما كتبوه عن محمد بن عبد الله ذامين منتقصين ؟ إننى أستطيع أن أصارحك القول ــ ولى ببعض المستشرقين صلة وطيدة ــ بأن بعض هؤلاء قد عدل عن رأيه، ولكن هناك ظروفاً وقوانين اجتماعية ومصالح مادية تدعوهم إلى الصمت والسكون ؛ ولعلك لا تجد فى هذه نكراً أو نقصاً لأقدارهم أو حطاً من مكانتهم ، فقديماً كتب العماد الأصفهانى إلى القاضى البيسانى يصف له مثل هذه الحال ، فقال : « إنه وقع لى شىء ، وما أدرى أوقع لك أم لا ؟ وهأنا أخبرك به ، وذلك أنى رأيت أنه لا يكتب إنسان فى يومه إلا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد ذاك لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك ذلك لكان أجل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل النقص على استيلاء البشر » .

أفأنت بعد ذلك مقتنع أم ترجو المزيد ؟ إن المستشرق ــ أياً كان نوعه ــ لم يزد على كونه إنساناً تزدحم فى نفسه العواطف المتباينة ، وتمتلىء جوانحه بالرغبات المختلفة ، وله بعد ذلك عقله وقلبه، وعاطفته وحسه، وهو ككل إنسان فى الوجود له نزعته الدينية ، وله نزعته العلمية، وله أن يحتفظ بروحه الدينى مهما يكن حظه من دراسة اللغات .

ونكرر قولنا بأن الدين شىء ، والبحث العلمى شىء آخر ، وإذا كان المستشرقون قد احتفظوا بمسيحيتهم أو يهوديتهم فى الساعة التى يدرسون فيها لغة القرآن ، فلن يقلل هذا من حظهم الرائع الذى قدر لهم أن يكونوا من رجال الطليعة فى الدراسات العربية الممتازة ؛ كما أن تعصبهم لم يضعف من عظمة القرآن ، أو يقلل من أتباعه .

وبعد، فلتعلم يا سيدى الدكتور ــ إن لم تكن قد علمت من قبل ــ أن « المعرفة » أبعد الصحف عن أن تتملق زيداً، أو تلتمس عطف عمرو، أو ترجو نفع بكر، وإلا لكان لها شأن غير هذا الشأن الذى تتمتع به ، ومنزلة غير تلك المنزلة التى تحل بها عن جدارة واستحقاق فى أرقى الأوساط الأدبية وأسمى المعاهد العلمية ، وحسبها أنها لا تخشى فى الحق لومة لائم، وأن قد وضع لها صاحبها دستوراً لا تحيد عنه قيد أنملة ، ومنهجاً تستميت فى سبيل المحافظة عليه .

حسبنا الآن هذا القدر ، راجين أن يكون الدكتور قد اقتنع ، أو فليتفضل بالعودة إلى الميدان ، لأنا على الحق حريصون والسلام . م

٣ ـ العالم: كيف خلق وكيف تطور ؟

بقلم الاستاذ محمد مظهر سعيد
أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

استعرضنا فى مقالنا السابق (١) أساطير الطبقة الثانية التى كان يقول بها أهل المدنيات القديمة ، وذكرنا منها: مصر وبابل وآشور والصين واليابان والهند ؛ ولم يبق من هذه الطبقة سوى أساطير الفرس القديمة « المجوسية » ، والايرانية التى تفرعت منها ، ثم فينيقيا .

الفرس :

تدور الأسطورة الفارسية القديمة حول فكرة الثور المقدس (أبو داد) الذى خلق منه (أهرمان) ـ إله الشر والظلام ـ الأرض بطينتها السوداء لسكنى البشر، أهل الشر والسوء ؛ و (أرمزد) ـ إله النور ـ الذى خلق النباتات وسائر الحيوان من جسده هو . وذلك أنه لما مات الثور ـ أى تجمدت الأرض وثبتت الطينة السوداء فى موضعها ـ قفز من فخذه اليمنى بطريقة لايعلمها أحد (كما خرجت حواء من ضلع آدم) مخلوق عجيب الشكل اسمه (كاجومورز) فلم يرض أرواح الشر (الديفا) جنود (أهرمان) أن يبقى هذا المخلوق العجيب حياً يفسد عليهم أعمالهم فتآمروا عليه ، وقتلوه خلسة ، وتركوا جثته معرضة لحرارة الشمس وضوئها أربعين عاماً امتصت فيها جثته جزئيات الشمس المنبعثة من أشعتها ، وتجمدت هذه الجزئيات النورية واستحالت إلى بذرة نبتت منها شجرة الحياة أو العلم والمعرفة (ريباس)، وهنا خطر فى ذهن (أرمزد) أن يخلق نوعاً جديداً من الكائنات يوليه الأرض وما عليها ويفسد على جنود (أهرمان) تدبيرهم ، فلم يجد أمامه غير شجرة الحياة تناولها بيد القدرة وخلق منها ذكراً وأنثى (مشيا ومشيانا) ، وهما أول من خلق ؛ واستغرق منه هذا العمل الشاق ستة أيام كاملة أدركه بعدها التعب فانقطع عن العمل فى اليوم السابع ؛ وبذلك صار هذا اليوم عيداً يحتفل الناس به ويسمونه (جهان بار) .

وتفرعت من هذه الأسطورة الخيالية الرائعة أساطير إيرانية أخرى تماثل قصة التوراة فى سفر الخروج لامتزاجها بالروح الدينية ، ودخلها شىء من فلسفة المتأخرين، فارتقت نوعاً ما عن الأسطورة الفارسية القديمة ، وإن ظلت محتفظة بجوهرها ، وهى لاتزيد فى الواقع عن ما يأتى :

ا ـــ « فى الأصل كانت روح الخير تسبح فى بحر لانهائى من النور وتتنقل فى كل مكان ، وتحيط علماً بكل شىء ، وكانت روح الشر الجاهلة تختفى فى الظلام، وكان لكل منهما مخلوقات

---

(١) راجع الجزء السابق من « المعرفة » ص ٥٦١ .

تلائمها وتتبعها فى كل مكان، وظلت هذه الكائنات ٥٠٠٠ سنة تدور وتدور فى فلك لانهائى بغير جسد ، ثم اختلف الإلهان ـ روح الخير وروح الشر ـ على حكم العالم ، فاتفقا على أن يسود الشر العالم ٣٠٠٠ سنة ، ويظل قوياً متسلطاً ٦٠٠٠٠ سنة ، ويضمحل نفوذه بعدئذ بالتدريج ، وتهادنا على هذا الأمر ؛ ولكن لما انتهت مدة حكم الشر الأولى عز عليه أن يخلى الميدان ليسود الخير ، فاختلفا من جديد ، واضطربت الحال ٣٠٠٠ سنة أخرى ؛ وكان من نتيجة هذا الخلاف أن خلقت الملائكة ، والشمس ، والقمر ، وسائر المخلوقات المادية الصالحة لتكون جنوداً لإله الخير ، والشاطين ، والجن ، والعناصر المخيفة لتكون بدورها جنداً لإله الشر ، تساجل الأولى الحرب، وستظل تقاتلها إلى آخر الزمان، وعندئذ فقط يتغلب الخير على الشر » .

وأنت ترى أن هذه الأسطورة تتميز عن الأسطورة الهندية بالنقط الآتية :

ا ــ عدم الاعتقاد فى أزلية المادة ، ووجودها منذ القدم .

ب ــ فكرة خلق الدنيا فى أربعة أدوار ، كل دور منها استغرق ٣٠٠٠ سنة .

حـ ــ الاعتقاد فى سيادة الشر فى هذا العالم، متمثلا فى تطاحن الناس وتصارع العناصر إلى أن ينتهى هذا العالم الدنيوى ، وبعدئذ يسود الخير .

أما فكرة « الثور » التى تستند إليها الأسطورة الفارسية ، فأرجح أنها مأخوذة من تقديس المصريين القدماء والبابليين والأشوريين للثور ، واتخاذه رمزاً لقوة الطبيعة والخير الذى يصيب الانسان من فلاحة الأرض وزرعها .

هنا تنتهى أساطير الطبقة الثانية ، وتبدأ الأساطير الفلسفية المتمثلة فى معتقدات فينيقيا واليونان؛ ولكننا قبل التطرق إلى هذه الطبقة، لانجد بدّاً من ذكر أساطير أهل الشمال، اسكنديناوه والأرض الخضراء، وبلاد أمريكا الجنوبية البعيدة كالمكسيك وبيرو ، التى لا تربطها بأساطير الطبقة الثانية أية رابطة ، ما دام أهل هذه البلاد لم يتصلوا ، ولم يتفرعوا عن أهل المدنيات القديمة المتمركزة فى آسيا الصغرى وما حولها ، مدللين بهذا على أحد أمرين :

ا ــ إما أن طبقات العالم كله القديمة التى عاشت فى فجر التاريخ ، والطبقات الأولية التى تعيش الآن على ظهر الأرض قد احتفظت بفكرة واحدة جوهرية اتخذوها نواة الأساطير بعد أن زادوا عليها صوراً جديدة توافق خيالهم وبيئتهم وظروفهم الخاصة .

ب ــ وإما أن طبيعة العقل البشرى أينما كان فى أى بقعة من بقاع الأرض، وكيفما كان أصله الذى تفرع عنه من هضبة البامير فى بلاد الفرس كسائر سكان أوروبا وآسيا (الهندو أوربيين) وسكان أمريكا واستراليا الأصليين المجهولى الأصل، أو كانوا من حيث لونهم سوداً ، أو صفراً ،

أو حمراً ، أو بيضاً ـ تحتم عليه أن يبدأ تفكيره عن العالم وخلقه وتكوينه بالصورة المتمثلة فى هذه الأساطير جميعها ، وهذا هو الرأى الذى نرتاح إليه .

فأنت تجد فى أشعار (الاسكنديناويين) القديمة فى كتابهم المشهور (فولاسبا) وصفاً للدنيا المادية فى حالتها الأولية ، كأنها هوة بعيدة الغور فارغة الجوف لا شيء فيها ، تسمى (جينونجاجات) أى الكأس ، أو الخليج ؛ وفى الجزء الشمالى منها ظلام وضباب كثيف ، وثلج متجمد فى وسطه عين ماء ساخنة تتفجر منها الأنهار الاثنا عشر ، والجزء الجنوبى تغمره أشعة قوية آتية من خرط النور (ويلاحظ القارىء هنا أن هذا بالضبط هو الوصف الجغرافى لبلاد اسكنديناوه) ؛ وفجأة ـ ولغير ما سبب ـ هبت ريح صرصر عاتية اكتسحت أمامها الثلوج وأذابتها فجرت مياهاً ظهر فى وسطها مخلوق هائل الحجم فى هيئة الانسان ، وانكشفت الأرض عن بقرة الوعود تجرى من أثدائها أنهار اللبن لتغذى هذا المخلوق ، وأخذت البقرة تلعق الصخور وتتغذى بما يواتيها من ملح وبرد ، وفى ثلاثة أيام أنجبت مخلوقاً اسمه (بور) أو (بورى) أرقى من الأول بكثير ؛ وهنا تتطور الأسطورة فجأة ، ويدخلها شيء من الخيال الغريب ؛ يدل على التخبط فى الرأى وعدم الاستقرار على فكرة معينة ، فتقول إن (بور) هذا تزوج بابنة الماردة (جوبين) ، ونحن لا نعلم من أين أتت هذه الماردة فأنجبت له ثلاثة : (أودين) ، و (فيلى) و (فى) ؛ ولما وقع بصر هؤلاء على المخلوق الأول لم يعجبهم مرآه فتآمروا عليه وقتلوه وألقوا بجثته فى وسط الخليج ، متخذين الأرض من لحمه ، والمحيط والأنهار من وجهه ؛ والجبال من عظامه ، والصخور الكبيرة من أسنانه وعظام فكيه ، والأشجار من شعره ، والسحاب من مخه ، ومسكن الانسان من حاجبيه ، والسماء من جمجمته ، ثبتوها على الأرض بأربعة أعمدة يحمل كل واحد منها قزما صغيراً يرمز إلى جهة من الجهات الأربع الأصلية : الشمال ، والجنوب ، والشرق ، والغرب ؛ وثبتوا الشرر الذى يتطاير من عينيه فى منطقة النور وسط القبة الزرقاء ، فصارت شمساً ونجوماً تضيء للناس على الأرض .

وهناك رواية أخرى أكثر غرابة من هذه الرواية ، وتتلخص فى أن ثلاثة من آلهة الخير كانوا يسيرون على شاطىء البحر ، فاسترعى نظرهم شجرتان ، وعلى التحقيق غصنان ، يطفوان على سطح الماء ، ولا حول لهم ولا قوة ، فأشفق عليهما (أودين) ونفخ فيهما الحياة ، وثنى (هونير) بالروح والحركة ، وختم (بودو) بالنطق والجمال والإحساس ، فانقلب أحدهما ذكراً سموه (آسكى) ، أى الرماد ، والآخر أنثى سموها (أمبلا) ومنهما نشأ الانسان وبنوه ؛ ولعلك ترى من هذا أوجه التشابه بين هذه الأسطورة والأسطورة الهندية فى الجزء الخاص بالجسد والبقرة ، وإنه فى الحق لشبه غريب لا يترك مجالا للشك .

أما أسطورة أهل (جرينلاندة) والجزائر المجاورة لها فى المحيط المنجمد الشمالى ؛ فتقول إن الذى خلق الأرض هو الأرنب الأكبر (ميشابو) ، وذلك لأنه كان يلهو بوضع بعض الحيوانات الغريبة على قطع من الخشب ، ويدفع بها إلى بحر لا شاطىء له ، ويقذف بهذه الحيوانات

الواحد تلو الآخر ليغطس حتى القاع – أى الأرض – ، وقذف بالفعل أربعة اختفى ثلاثة منهم، وظهر الرابع وفى يده قبضة من الرمل أخذها منه وصنعها وشكلها فصارت جزيرة كبيرة (أمريكا)، ومن جثث الموتى صنع بنى الانسان ؛ ويقول بعض العلماء : إن (ميكابو) هذا ليس بأرنب ، وإنما هو رمز للواحد الأبيض الأكبر المتمثل فى نور الفجر .

وهذه الأسطورة هى فى الواقع نفس الأسطورة القديمة موضوعة بطريقة تناسب عقلية أهل الجزائر الباردة المنقطعة عن العالم فى بحر منجمد .

أما المكسيك القدماء فقد قسموا مدة خلق الدنيا إلى خمسة أدوار : خلقت الأرض فى الأول ، والنار فى الثانى ، والهواء فى الثالث ، والماء فى الرابع ، ثم الانسان ؛ وكان كل دور من هذه الأدوار ينتهى بفاجعة طبيعية كما انتهى دور الانسان بالطوفان ؛ وعجيب أن تتفق هذه الأسطورة ، ومذهب العناصر الأربعة اليونانى ، وفكرة اليهود والفرس عن الطوفان ، على بعد الشقة بين المكسيك وأهل هذه البلاد .

ولسنا فى حاجة إلى ذكر أسطورة أهل (بيرو) لأنها صورة أخرى من الأسطورة المصرية القديمة التى تبدأ بتغلب الشمس على باقى الآلهة . . ؟

محمد مظهر سعيد

وداع

بردتْ فى فيك هاتيك القبلْ ... وتراءت لى علامات المللْ
سوف أمضى حاملا قلبى معى ... ولئن حُلْتِ فقلبى لم يحلْ
إنه قلبٌ غريب مُتْعَب ... لمْ يُروَّ العمر إلاَّ بالعَلَلْ (١)
كم تلظَّى فى الليالى خافقاً ... وتردى بين يأس وأملْ
يشتهى ظلا لطرف ساحر ... فيميل الظلُ عنه أين حل
ولقد أسلوكِ يوماً هكذا ... كل شىء طبعه أن يضمحلْ
وتعودين بذكراكِ إلى من ... أخلص الود ولكن قد رحلْ
كبرياءٌ ملءُ نفسى جامحٌ ... ودلالٌ منك يَطغى ويُذِلْ

محمد عبده عزام

---

(١) العلل والعلالة كالنهل والنهالة وهو القليل من الماء .

الثـــــــــورات

بقلم الاستاذميناس خورى المحامى

الثورات هى انفجار ينبعث عند غليان النفوس وعجزها عن احتمال ما هى فيه من ضغط وعسف وإرهاق ، وهى تنشأ عادة عند ما يحس الشعب بظلم يفدحه ؛ وعندئذ يرتفع من بين الصفوف صوت زعيم قوى يصور الحالة للناس بأقبح صورها ، ويتوقع أوخم العواقب ؛ فاذا أفلح هذا الزعيم فى إقناع الأمة برأيه واستطاع أن يتحكم فى عواطفها ويدفعها إلى التضحية والاستشهاد فى سبيل انتصار عقيدتها فقد دفعها إلى الثورة .

وتبدأ الثورات غالباً فى صدور الخاصة المثقفة ، ثم تستمد قوتها بعد ذلك من الشعب بعد إثارة عواطفه ، وهـذا ما حدث فى فرنسا ؛ فقد كانت كتابة فولتير وروسو ومنتسكيو هى الجذوة الأولى التى أوقدت نار الثورة ؛ فلا بدع إذا ما سمى هؤلاء الفلاسفة بخالقى الثورة الفرنسية.

والثورات أنواع متعددة ترجع إلى أسـباب مختلفة ؛ فهناك الثورات السلمية الهادئة ؛ وهناك الثورات الدامية العاصفة؛وقد ترجع أسباب الثورات إلى عقائد سياسية،أو إصلاحات اجتماعية ، أو مظالم اقتصادية،أو مساوىء أدبية ، أو كل هذه القبائح مجتمعة مما يستثير العاطفة ويتحكم فى العقل ، فيدفع الناس إلى الخروج على القانون ، وتحطيم القيود التى تحد من حرية الشعوب ، أو سلطانها .

وقديماً كانت الثورات ترجع إلى عدم المساواة والحرمان من حقوق يتمتع بها بعض الأفراد دون غيرهم بغير حق ، أما الآن فقد تعددت أسـباب الثورات وتغيرت مظاهرها ؛ فهناك ثورات علمية حطمت قيود الفـكر وحررته من عقال الجهل، كتلك الثورة التى أقامها الأستاذ (إميل دى سانت أوبان) دفاعاً عن «العقيدة الحرة» ؛ وهناك ثورات دينية حررت الأديان مما يعلق بها من الخرافات ، كثورة البروتستانت على المـذهب الـكاثوليكى ؛ وهناك ثورات سياسية تنشأ عند انتشار الاسـتياء فى نفوس الشعب من أعمال الحـكومة القائمة ، كثورة البرلمان الانجليزى على شارل الأول التى أدت إلى قتله ؛ وهناك ثورات اقتصادية ، كثورة روسيا البلشفية التى انتهت بإلغاء الملـكية الفردية ؛ وهناك ثورات اجتماعية ، كثورة سيدات نيوزيلنده احتجاجاً على ضريبة الزواج .

والثورات لا عقل لهـا يعصمها عن الانزلاق فى درك التهور ، فهى لا تعرف التسامح والاعتدال ، لأن الثائرين يعتبرون عقيدتهم حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل ؛ ولذلك فإن كل ناقم

على الثورة يعتبر خائناً مهما كان مخلصاً لوطنه ؛ وقد بلغ الأمر بروبسبير الثائر الفرنسى أن اعتبر كل من يخالف مذهبه السياسى خائناً يستحق العقاب ؛ وتحقيقاً لهذا الغرض ، فقد أصدر قانون المشبوهين الذى يبيح للحكومة حبس كل من يشتبه فى أفكاره السياسية ، فلما ضاقت السجون بهؤلاء الأبرياء،رأى روبسبير أن يقيم « محكمة الثورة » لمحاكمة المسجونين بسرعة ، فكانت تستدعيهم زرافات وتحكم عليهم بالإعدام بدون محاكمة ، اللهم إلا التفوه بأسمائهم ؛ ولم يقف شذوذ الثورة الفرنسية عند هذا الحد ، بل قام فيها رجل يدعى (هبرت) نادى بوجوب احتقار الدين الكاثوليكى ، لأنه دين الأشراف ، وأفلح هذا الشخص فى إغلاق جميع الكنائس الكاثوليكية ، ولم يكتف بهذا ، وإنما أراد أن يخترع ديناً جديداً فأوجد « دين العقل » ، وقام هذا الدين الجديد بين مظاهر الحفاوة والترحيب به والاعتداء الأثيم على الكنائس والقساوسة،فلما أسرف رجال الثورة فى تحقير الكنائس ضج الناس ، وحاولوا أن ينقضوا على الثورة،فلم يجد روبسبير بداً من أن يصطنع ديناً جديداً يقول بوجود إله واحد فقط ! ! هذا هو الدين الجديد ! ! الذى جعل كاهنه الأكبر روبسبيير أكبر سفاح ومجرم فى التاريخ .

وأكثر الثورات تبدو فى مظهر نبيل وغاية شريفة فى أول أمرها ، ثم لا تلبث أن تصبح أداة دنيئة لإشباع الشهوات والسعى وراء السلطان،وقد قال نابوليون « ليس الحقد إلا سبباً للثورة الفرنسية ، وما السعى للحرية إلا حجة باطلة » ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن جمهور الثائرين يكون عادة من الشباب المتحمسين والعمال العاطلين،ومثل هؤلاء الأشخاص لا يحسنون التفكير الهادىء المنتج ، بل كثيراً ما يندفعون اندفاعاً خطيراً يخرجهم من حظيرة العقل والعدل والواجب إلى ميدان الجريمة والشذوذ ، وفى هذا الجو المكهرب يموت صوت الضمير وتبدو الرجولة فى أحقر مظاهرها ، وتزيد الدسائس ، وتصبح بضاعة رخيصة ، وتتخذ من الثائرين وقوداً يلهب النفوس ويدفعها إلى سفك الدماء ، ولقد يحدث أن ينتصر الثائرون انتصاراً غير منتظر ، فيثملون بنشوة الفوز ، ويفقدون كياسة التصرف،وتتحرك فى نفوسهم أحقر شهواتها ، فلا يتعففون عن ارتكاب أقذر الجرائم ؛ فقد حدث أن لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، رأى الثائرين يحدقون بقصره ، وكان فى مقدوره أن يشتت شملهم ، ولكنه أراد أن لا يراق من أجله دم أى رجل فرنسى ، فآثر أن يلتجىء إلى الجمعية الوطنية التى وعدته حمايته ، ولكنها بدلا من أن تفعل ذلك تناست وعدها وانقادت لرأى الرعاع،وأعدمت الملك المسكين ، مع أنها كانت تستطيع حمايته.

والزعماء وإن كانوا دعامة الثورات والمعبود الذى يقدسه الثائرون ويتلقون آراءهم وحياً

مقدساً يؤمنون به إلا أنهم عرضة لفقد نفوذهم، لأن الجماعات سريعة التأثر والانفعال والتقلب، فقد تحطم اليوم من عبدته بالأمس، كما حدث لأمين بك الرافعى فى مصر، وكما حدث (لدانتون زعيم الثورة الفرنسية الذى قتل ما يربو على مائتى ألف شخص، ولما أفاق ضميره ورأى أنه) أسرف فى قتل الأبرياء وسفك الدماء أراد أن يقلل من هذا الطوفان الجارف، ولكن الرعاع المتعطشين لسفك الدماء لم يروا فى اعتدال (دانتون) إلا مظهراً للخيانة العظمى التى تستحق القتل . . فقتلوه .

والواقع أن الثورات الفكرية المعتدلة لها فوائد عدة، لأن ثبات الحياة على وتيرة واحدة يدعو إلى التقهقر والاضمحلال، فالثورات تنبه الرأى العام إلى الخطر المحيق به، فيقوم بالإصلاح فريق من المصلحين الذين أوتوا الذكاء والرغبة فى العمل الجدى، وبذلك ينقذون البلاد مم أصابها قبل أن يستفحل الشر، فتذهب البلاد ضحية الثورات الجارفة التى تجتاحها وتهدم كل نظمها وتستنفد قوتها، وقد تقضى عليها فى حرب أهلية طاحنة . م

[السنبلاوين] ميناس خورى المحامى

مناجاة قلب يائس

فؤادى خلٌّ الأسى ناحيهْ وباعده عنك ولو ثانيه
فمن حادثات الصروف ترا نى على شفا هاوية هاويه
ومن ضيق نفسى ترانى البئيـ ـس أجرجر أثوابى الباليه
فيا رحمة للإله الرحيـ ـم إلىّ ابعثى جرعة شافيه
فعيشى وإن رق فهو الجحيـ ـم ونفسى وإن ضحكت باكيهْ

عبد العزيز على خفاجى

معنى الحيــاة

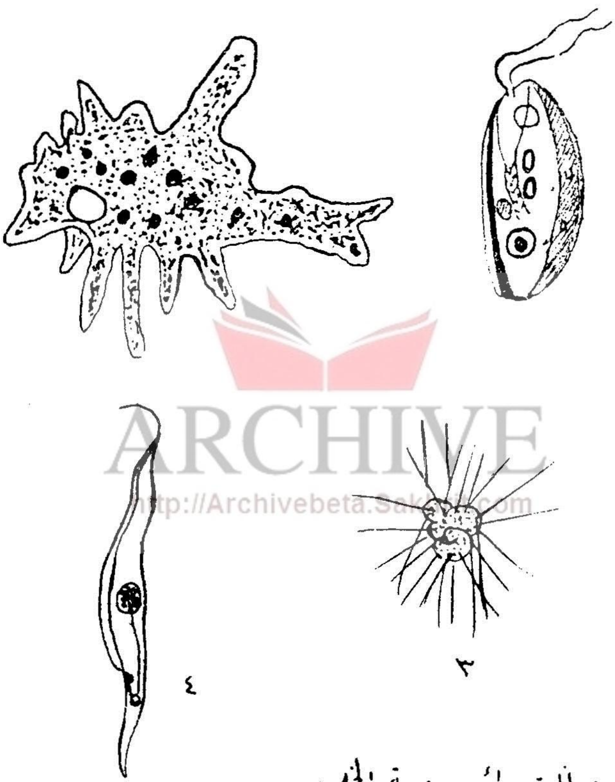
بقلم الاستاذ عبد العزيز أمين
بكالوريوس فى الكيمياء وعلم الحياة

يبدو العالم غريباً فى كل شىء ، فذلك النظام البديع وتلك الكائنات المتنوعة ، وهذا التمدن السريع قد خطاه الانسان فى السنوات الكثيرة المتعاقبة ، وكيف لا تتحير العقول فى نظام العالم الدقيق ؟ بل كيف لا نندهش لهذه الكائنات المتنوعة ، فمن طير يغرد إلى ديك يصيح ، إلى دودة تسبح فى الماء أو تثقب الأشجار ، إلى إنسان مفكر ، إلى نبات أخضر ؛ فضروب الحياة واسعة ومناهجها لانهائية ؛ وترجع كل تلك التنوعات وهذه المظاهر الدنيوية إلى قوة هائلة لا نعرف حقيقتها ، نشأت فى هذه الكائنات فدفعتها إلى : الحركة ، والتغذية ، والنمو ، والتناسل ؛ هذه الظاهرة ، أو تلك القوة الهائلة هى ما يسمونها « الحياة » .

وتعريف الحياة كتعريف الكهرباء غاية فى الصعوبة ، بل أقرب إلى المستحيل ؛ فكلنا نعلم أن الكهرباء تحرك الآلات وتؤثر تأثيراً كيميائياً فى محلولات الأملاح فتحللها ، وتؤثر فى سلك رفيع فتضىء مصابيحنا المتوهجة إلى غير ذلك من الظواهر ، لكننا لا نعرف ماهيتها ؛ فهكذا شأن الحياة يمكن الشعور بوجودها . ولكننا لا نعرف ماهيتها أكثر مما نعرف عن ماهية الكهرباء ؛ فالرجل العادى لديه طائفة من النقط المميزة للحياة : أولها أن الكائن الحى يتحرك ، وقد لا يكون دائم الحركة ، فكثير من بذور النباتات تبقى ساكنة مدة من الزمن ، ثم تتنبه وتنمو ، وقد تتحرك مستجيبة لحافز داخلى ، أو خارجى ، وحركة الكائن الحى ليست كحركة هباء التراب تذروه الرياح ، وثانى تلك المميزات هى التغذية ، فالكائن الحى

الحيوان البدائى المسمى (الأميبا) تأخذ المواد المجاورة لها إلى داخلها وتغيرها كيميائياً ، وتجمع من هذه التغيرات كل ما تحتاج إليه من طاقة حركتها ، وتتخذ ما يزيد لنموها . والبللورات تنمو بالرغم من عدم حيويتها ، إلا أن ذلك النمو يختلف عن نمو الكائن الحى ، فالبللورات تنمو بتراكم أجزاء صغيرة على سطوحها دون اختلاف كيميائى فى مادتها ، أو دون أن تفقد شيئاً من طاقتها ؛ وعملية أخذ الغذاء هذه إلى داخل الجسم وتمثيله والاستفادة منه تسمى عملية « التغيير الغذائى » أو (الميتابولزم) .

والـكائنات الحية تتوالد بالانقسام ، أو الانفصال عن أمها حتى إذا حان حينها استطاعت هي الأخرى بدورها أن تنتج للعالم جيلا جديداً محتفظة بنوعها. وهذه القدرة على الاحتفاظ بالنوع من أهم خصائص الـكائن الحى ، وإذا قيل إن قطرات الماء أو الزيت تنمو وتنقسم ، أجبنا أنها تفعل ذلك دون ميل غريزى ، أما الأجزاء الحية فتظهر القدرة على الانقسام أو التناسل حتى فى أسوأ الظروف، وهى تـكيّـف أجسامها حتى تلائم الوسط الذى تعيش فيه لتحتفظ بنوعها من الانقراض .



بعض حيوانات مائية «وحيدة الخلية»
١- الاميبا ٢- كريبتوموناس
٣- تريبانوسوما ٣- روتاليا

وقد كان يعتقد (أرسطو) أن بعض الحشرات النباتية تنشأ من الندى المتساقط على النباتات ، وأن البراغيث تنبعث من المواد المتعفنة ، ولـكن سرعان ما ظهر فساد ذلك الرأى عند ما ثبت أن تلك الحشرات لا يمكن أن تنشأ من غير وجود آبائها على هذه النباتات ، أو فى تلك المواد المتعفنة من قبل، وقد يكون بيضها قد انتقل ـ بأى وسيلة من الوسائل ـ إلى تلك الأماكن ؛ وأظهر (باستو) أن (باستين) لم يكن مصيباً عند ما وجد بعض الـكائنات

الدقيقة المعروفة باسم (البكتريا) فى المواد المتعفنة المعقّمة ، إذ أنها لم تكن معقمة تعقيماً كافياً لقتل كل ما بها من البكتريا ، فاذا عقمت تعقيماً تاماً بطل ظهور تلك الكائنات الدقيقة عليها ؛ و(البكتريا) كائنات صغيرة جداً سريعة التوالد حتى يستحيل وجود مادة عضوية غير معقمة تخلو من هذه الكائنات ؛ ومن المتفق عليه الآن بين جميع علماء الحياة : أن الحياة لا تنشأ الا من الحياة (Omne vivum ex vivo) ، فالحياة كما نعرفها : نهر ظاهر محدود المجرى مجهول المنبع .

وليس من السهل أن نفرق بين الأجسام الحية وغير الحية ؛ فبذور النباتات والديدان الصغيرة والكائنات الدقيقة (البكتريا) قد تجف وتبقى خامدة مدة طويلة من الزمن ؛ حتى يستحيل على الرجل العادى تمييزها من الأجسام الميتة ، فاذا ما لامستها الرطوبة عادت حياتها للظهور

ولقد مر العلم على طور كان فيه العلم حداً فاصلا بين المادة العضوية التى كانت تتكون بواسطة جسم حى أو بداخل جسم حى ، وبين المادة غير الحية ؛ بينما كانت الأشياء الحية توصف بالفردية ، أى أن كل واحدة تقوم بذاتها ؛ بينما الأجسام غير العضوية تتكون من وحدات متشابهة متكررة تسمى الذرات والجزئيات .

ويميل بعض المحدثين من الكتاب إلى اعتبار الذرة كأنن أقل بساطة من الكائن الحى ، لكنه مختلف عن ذلك النظام المعقد الذى تتكون منه الأنسجة الحية ، وذلك الاعتبار وإن كان غريباً إلا أنه يبسط معنى كلمة « كائن » إلى مستوى أقل من الذى كان مستعملا من قبل ؛ والفرق بين بساطة التكوين وتعقيده ـ كما فى رأى المحدثين ـ هو الفرق بين الكائن الحى وغير الحى .

وقد كان الرأى السائد حتى أوائل القرن التاسع عشر أن المركبات (الكربونية) لا يمكن تحضيرها بغير الطرق الحيوية ، حتى تمكن (فولر Wöhler) سنة ١٨٢٨ من تحضير مادة (البولينا)، وهى الموجودة فى بول الحيوانات من مادة أخرى فى معمله الكيميائى ، ومنذ ذلك التاريخ ابتدأت معرفتنا عن المواد العضوية تزيد ، وانكشف لنا الكثير من معضلات الحياة ، التى بقيت غامضة أحقاباً طويلة ، وصار من السهل دراسة الحياة وتصويرها بنماذج صناعية .

ويرجع فهم الخواص الحيوية إلى دراسة الكيمياء العضوية ، فكل خواص الحياة ترجع إلى تعقيد نظام جزئياتها التركيبى ، والحياة فى جميع الكائنات ، حيوانية كانت أو نباتية ، من نوع واحد وهى مستمرة الوجود ، كما أن الحياة الموجودة الآن قد نشأت من الحياة الأولى فى أجيال متعاقبة ، لكن الاتصال بين الكائن الحى وغير الحى لا يزال مفقوداً . ؟

عبد العزيز أمين

حول زيارة

المجمع العلمي العربي بدمشق

نشأته _ تاريخه _ أغراضه _ أعماله _ أعضاؤه _ جهود رئيسه الحالي .

بقلم الأستاذ محمد أمين حسونة

كان من أقدس واجباتي _ وأنا أمر بعاصمة بني أمية ، خلال الشهر الفارط في طريقي إلى الأناضول _ أن تكون أول زيارة أقوم بها ، زيارة « المجمع العلمي العربي » ، وهو القبلة التي يتوجه إليها طلاب الآداب ، وعشاق البلاغة العربية في العالم الاسلامي خاصة ؛ وقد سرى إلى وأنا في الطريق ، أن حضرة صاحب المعالي محمد حلمي عيسى باشا وزير المعارف المصرية ، يهتم في هذه الأيام بإخراج فكرة المجمع العلمي المصري إلى حيز الوجود ، على نمط المجمع العلمي العربي بدمشق . وهذه الفكرة _ أعني فكرة المجمع العلمي المصري _ هي أثر من آثار تفكير حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك ، فقد صارح الأستاذ العلامة « محمد كرد علي» لدى مثوله بين يدي جلالته خلال عام ١٩٢٥ : بأن « في نيته أن ينشىء مجمعاً علمياً في القاهرة ، على مثال المجمع العلمي العربي بدمشق ، يكون أعضاؤه من عامة أبناء اللغة العربية » .

وليست فكرة إنشاء المجامع العلمية في العالم العربي وليدة اليوم ، بل إننا سبقنا بها العالم الغربي بمراحل ، يوم أن كان لنا في عصر الجاهلية « سوق عكاظ » و «مربد البصرة» ، وقد كان لهما من الأثر الفعال في البلاغة العربية وارتقائها ، ما تشهد به المخلفات الأدبية الرائعة التي تركها العرب ، وفي مقدمتها « المعلقات السبع » ، التي كانت تزين بأشعارها أستار الكعبة تقديراً لناظميها ؛ ويوم أن بزغت على الكون شموس المدنية الاسلامية وعزها التالد ، كان في مقدمة المجامع _ التي كونت _ مجمع بغداد العلمي ، الذي أسسه أمير المؤمنين المأمون العباسي ، ومجمع طليطلة بالأندلس ، وقد كان مكونا من أربعين عالماً ، يلتئم شملهم كل ثلاثة شهور في اجتماع تجرى فيه المناقشة في شأن البلاغة العربية ، والألفاظ المستحدثة ، والنظر في نقل أمهات الكتب الأفرنجية إلى العربية ؛ وعند ما دخل (نابليون بونابرت) إلى مصر _ وبصحبته نحو مائة عالم فرنسي ونيف اخصائيين في متباين العلوم والمعارف ، رأى أن يؤسس مجمعاً علمياً _ أطلق عليه اسم « المجمع العلمي الشرقي » ؛ ومن حسن التوفيق أن هذا المجمع لا يزال قائماً

إلى اليوم فى جهة « المنيرة » وبالقرب من «مدرسة الحقوق الفرنسية» .وقد خطر للخديوى اسماعيل الأول أن يؤسس « المجمع العلمى المصرى » فنجح ، وكان من أعضائه البارزين : عبد الله فكرى باشا ، ومحمود الفلكى باشا ، وغيرهما من أعلام ذلك الوقت النابهين .

ونعود إلى المجمع العلمى العربى بدمشق فنقول : إنه كان يعرف فى أول أمره باسم « الشعبة الأولى للترجمة والتأليف » ،وقد تأسست هذه الشعبة على أثر تأليف الحكومة العربية فى أواخر خريف سنة ١٩١٨ ميلادية ، ثم تحولت هذه الشعبة إلى « ديوان المعارف » ، وعين رئيساً لها ، فخر الشام وعلامتها الكبير الأستاذ محمد كرد على ، كما وكل إليه النظر فى أمور التعليم ، والتأليف، وإنشاء المدارس،وتأسيس دار للآثار ، والعناية بالمكتبات العامة ، وتنظيم « دار الكتب الظاهرية » والإشراف على البنايات الأثرية . ثم خطر للأستاذ كرد على أن يحول هذا « الديوان » إلى مجمع علمى يأخذ على نفسه النظر فى أمر إصلاح اللغة العربية ووضع ألفاظ للمستحدثات العصرية ، وتنقيح الكتب ، وإحياء ما خلفه السلف منها ، وتشجيع التأليف والترجمة ؛ وقد حققت أمنيته بعد بذل مجهود موفق،فتم إنشاء المجمع وزفت البشرى ـ فى أنحاء العالم العربى ـ إلى الناطقين بالضاد بهذا المولود السعيد الطالع ؛ فى يوم الاثنين لثمان ليال خلت من شهر يونية عام ١٩١٩ ميلادية . ويقيم المجمع اليوم ـ ومنذ إنشائه ـ فى دار المدرسة العادلية ، وهى الدار التى شيدها نور الدين محمود بن زنكى ، ليقيم بها الإمام قطب الدين النيسابورى ؛ غير أنه حدث أن قتل البانى والمبنى له قبل إنجازها ، فتولاها من بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب وتوفى فيها ولما تنجز أيضاً ، فقام من بعده ولده الملك المعظم وأتمها فى عام ٦١٨ هجرية و وقفها على والده الذى دفن فيها .

ويؤلف بناء المجمع من قاعتين أو ثلاث لاجتماع الأعضاء ، ومن صالة أخرى متسعة لإلقاء

مرات

الخديوى اسماعيل الأول مع الأمير عبد القادر الجزائرى والشيخ الغنيمى الميدانى ؛ وذلك بمناسبة حفلة افتتاح قناة السويس ، كما تزين القاعة أيضاً صورة لعلامة الشام الكبير المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى ؛ وتجاور صالة المحاضرات قاعة متسعة للآثار الاسلامية ، وجدنا فى وسطها قبر سيف الدين أخى صلاح الدين الملك العادل،وعليه آخر كسوة للمحمل، كانت ترسل إلى الحجاز خلال الحرب العالمية الأخيرة ؛ كما شاهدنا رسماً طريفاً يمثل الكعبة الشريفة ، وآخر يمثل الصلاة فى أحد مساجد الأناضول ، وهذان الرسمان ملونان رسما بواسطة طوابع البريد المستعملة،والرسم من عمل سيدة تركية تسمى (ترخاز خانم) .وتحوى دار الآثار أيضاً بقايا أثرية نفيسة لعهد جلالة الملك فيصل؛ يوم أن كان متولياً حكم الشام ، وهى إحدى عشرة قطعة نقود ذهبية ضربت باسم جلالته فى سنة ١٩٢٠ ، ولا يوجد لها نظير فى كافة متاحف العالم لندرتها ؛ كما

أعضاء المجمع العلمي العربي العاملون والمؤازرون في دمشق



المشايخ والسادة : { ١ مسعود الكواكبي ٢ أنيس سلوم ٣ عبد القادر المغربي ٥ سليم البخاري ٦ سليم عنحوري ٧ عبد القادر المبارك ٨ عيسى اسكندر المعلوف ٩ الياس القدسي
١٠ الدكتور أسعد الحكيم ١١ فارس الخوري ١١ بهجة البيطار ١٣ سليم الجندي ١٤ عبد الله رعد ١٥ عارف النكدي ١٦ الدكتور مرشد خاطر }

يزين أحد جدران المتحف علم البلاط الفيصلي ، وهو مكون من ثلاثة ألوان أفقية : أسود ، وأزرق ، وأبيض ، على حين ازدان طرفه بمثلث أحمر يتوسطه نجم أبيض داخل تاج ملكي ؛ ثم شاهدنا سرج جواد السيد السنوسي الكبير ، هذا إلى غير مجموعة بنادق وأسلحة أثرية منوعة ، ومجموعة أخرى من الخزف والقيشاني والأواني الزجاجية تدل على ارتقاء الصناعة في العصر الاسلامي وعلو كعب صانعيها .

وتقع دار « الكتب الظاهرية » بالقرب من المجمع ، وكانت في بدء أمرها مدرسة ودار حديث ، أسسها الملك الظاهر بيبرس ودفن فيها هو وابنه الملك السعيد في عام ٦٧٦ ﻫ .

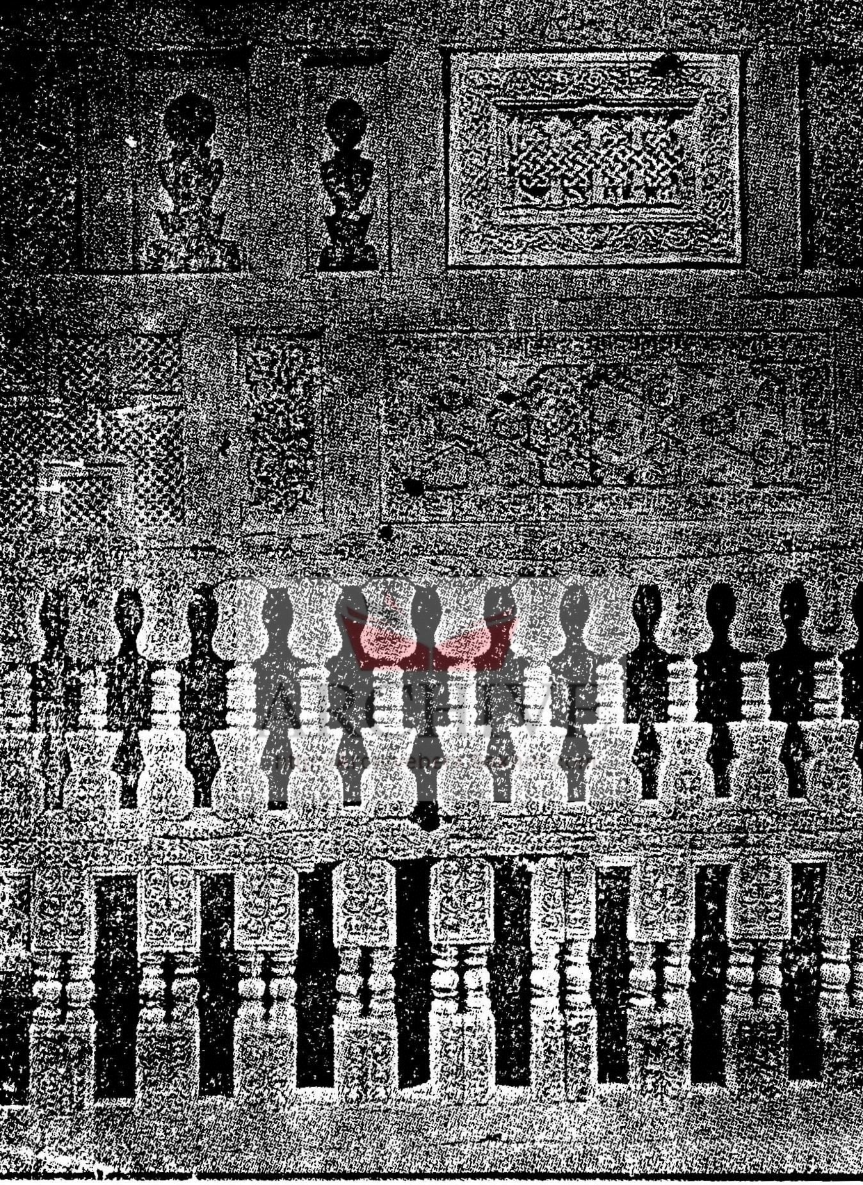
وقد ازدهر العلم وأينع في هاتين المدرستين من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للهجرة ، إذ كانت تضم بين جدرانها فحول المحدثين والمفسرين والأدباء في ذلك العصر ، نخص بالذكر منهم : الامام المقدسي الذي وضع بها كتابه « تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين » ، وابن خلكان الذي دون تاريخه المشهور هناك ، كما استضافت ابن خلدون ـ نابغة الشرق والعرب ـ مدة طويلة ، استعانت خلالها بالكثير من علمه وتجاربه ؛ فاختيار الأستاذ كرد على هاتين المدرستين ، ليقيم بهما المجمع العلمي العربي ، واللتين نفحتا العالم الاسلامي في مشارق الأرض ومغاربها ، وشع نورهما على نواحيه بمختلف العلوم ومتباين المعارف ، دليل على ارتقاء ذوقه وحسن اختياره .

وقد تسلم المجمع العلمي دار المدرسة العادلية ، وأنفق عليها الأموال الطائلة حتى يعود إليها رونقها وبهاؤها أيام أن شيدها الملك العادل ، وكما اعتنى بقبره وأعاد بناءه على نسق حديث ، اعترافاً بفضله وعلمه .

* * *

والمجمع العلمي العربي اليوم هو ـ بلا شك ـ مركز للدراسات الاسلامية العليا ، فبين قاعاته تعقد جلسات أسبوعية علمية يحضرها الأعضاء وغيرهم ممن يُدْعون من أهل العلم والفضل ؛ وتجري المناقشة في شئون المجمع وفي الاقتراحات التي تقدم إليه ، لتنقيح بعض الألفاظ والأغلاط اللغوية الشائعة ، ووضع ألفاظ للمستحدثات العصرية وإصلاح لغة المنشئين ، كما يصحح الرسائل والكتب المخطوطة قبل طبعها ، وتفنيد حجج بعض المستشرقين ورد أغلاطهم ، وكذلك يقوم أيضاً بإصلاح بعض الأوضاع الإدارية ولغة المصالح والدواوين وبرنامج التعليم في المدارس ، ويعاون المؤلفين والباحثين ، وينشط المترجمين بوضع الجوائز والهبات المالية ، وبذا أصبح المجمع مركزاً للتقدم الأدبي والاجتماعي في العالم العربي ؛ فهو من هذه الناحية قد حفظ لغة القرآن الكريم ، والبلاغة القومية ، والآداب العربية .

وقد خصص المجمع إحدى ردهاته الفسيحة لإلقاء محاضرات أدبية ، ومناظرات علمية ، هي خلاصة



الفن الفاطمي : مقصورة من الخشب المزخرف
وهي إحدى روائع متحف المجمع العلمي العربي بدمشق

زبدة أفكار علماء اخصائيين فى متباين العلوم والمعارف ، ويتهافت على سماعها عشاق الأدب العربى والمتشبعون بروح الثقافة الاسلامية ؛ كما أن هناك محاضرات خاصة بالسيدات ؛ دلت على أن فى الشرق نهضة نسائية كامنة فى النفوس ، لا يعوزها للتوثب والنجاح غير التشجيع .

ومن المحاضرات النفيسة التى ألقيت هناك للشيخ الفاضل عبد القادر المغربى محاضرات عن: طرفة ابن العبد وأحيحة بن الجلاح، وطرفة أدب من آداب العرب، والقدوة بالصحابيات، ومخطوط تاريخى دمشقى، ونبأ عجب من أنباء العرب ؛ وخديجة والاسلام، وعائشة الباعونية ، والسيد الفيومى ، وفصحاء الأعراب ، وصيارفة الشام منذ مائة عام ، وعثرات الأقلام ؛ وبشار بن برد ، وحقوق المرأة فى الاسـلام . . . الخ ؛ وللأستاذ العلامة كرد على : الحسبة فى الاسـلام ، والجباية فى الاسلام ، ومصانع الشام وهندستها ، وتاريخ العلم فى الشام ، وسكان الشام ولغاتهم ؛ وصفحة من تاريخ بنى أمية ، وعهد تيمورلنك ، والجيوش البرية والبحرية ؛ وسهل بن هرون؛ وبحوث فى أسفار التوحيدى ؛ والبلاغة سبيل الوزارة ؛ وعمرو بن مسعدة ، وفضل علماء المشرقيات على الحضارة العربية، والأوقاف ـ ماضيها ومستقبلها ـ ؛ وعادات الحضر والبدو... الخ ؛ وللأستاذ شفيق بك الجبرى : كلمة عن أناتول فرانس، وحياة الألفاظ، والجاحظ . . . الخ ؛ وللأستاذ الشيخ عبد القادر المبارك : الأخلاق والاجتماع ، وصفحة اجتماعية، والسفر الخالد، والمجد التالد . . . الخ ، وكل هذه المحاضرات تشهد بسمو باع واضعيها وتبحرهم فيما يلقونه .

ويضم متحف المجمع العلمى كل مظاهر الفن العربى الجليل ، والنقوش الناطقة بجمال الفن وروعته ، وبذا أصبح مركزاً لتقوية الصلات بين الغرب والشرق، باجتذاب علماء المشرقيات والسائحين الأجانب إليه ؛ وهو يدل على ناحية من نواحى عز الشرق الغابر ؛ ومجد الاسلام التالد؛ ويدير المتحف الأمير جعفر الحسنى أحد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائرى؛ وقد درس نظام المتاحف بمدرسة (اللوفر) بباريس على نفقة المجمع ونال إجازتها .

وتصدر عن المجمع مجلة دورية هى ترجمانه ولسان حاله ، تضم بين دفتيها آراء نفيسة لأعضائه ، وبحوث شائقة لجمهرة من أكابر المستشرقين ؛ وإنى أكتفى هنا بنقل ما قاله عنها الدكتور (سنوك هيجرونيه) شيخ المستشرقين فى أوربا « ... أطلعت طلاب العلم العربى من أهل بلادى على أعداد المجلة ، وبينت لهم أنها علامة إحياء العلوم الشرقية ، وأنها معجزة فى جنسها ، مسكتة لمن ينكر استمرار التمدن العربى ؛ وأوضحت لهـم عدم قدرة أحدنا على تصنيف مقال من مقالاتها ، ولو استغرق عمره فى طلب علوم العرب » .

كما أن من فخر المجمع اشتراكه فى مؤتمرات عدة، أهمها : العيد المئوى للجمعية الأسيوية بباريس ، وعيد المجمع الملكى ببروكسل ؛ ومؤتمر المستشرقين فى ليبزج ، والمؤتمر الجغرافى لقاهرة ، وعيد المائتى سـنة لمجمع العلوم الروسى بلينينجراد ، ومؤتمر التربية فى تورنتو ، الخ

وحفلات أمير الشعراء شوقى بك بالقاهرة ، والمؤتمر الخامس للعلوم المغربية العالمية برباط الفتح ، والمؤتمر الدولى للعلوم التاريخية فى أوسلو ، ومؤتمر المستشرقين السابع عشر باكسفورد . . . الخ .

ويدير المجمع أيضاً « دار الكتب الظاهرية » التى أسست فى عام ١٢٩٥ هـ على نسق دور الكتب الحديثة ، ويبلغ ما بها نحو أربعة آلاف مخطوط ، ونحو عشرة آلاف مجلد ؛ وتغص المكتبة كل يوم بمئات من المتعطشين إلى مناهل العلم وإلى الاستزادة من نفائس المطبوعات التى تملأ خزائنها .

وفى حلب الشهباء فرع للمجمع ، سس فى عام ١٩٢٣م ، ويقوم فى دار المدرسة الحسامية التى تقع غربى القلعة الأثرية ، وبه قاعة للمحاضرات وأخرى للمطالعة ، يديرها الأستاذ الشيخ الغزى .

* * *

ويضم المجمع نخبة ممتازة من فطاحل العلماء والمتخصصين فى الشئون الاسلامية وفى دراسات الأدب العربى ؛ وأعضاؤه اليوم يبلغون نحو خمسة عشر ومائة عضو ، منهم ثمانون عضواً فى جوانب الشرق العربى ، والباقون موزعون فى أنحاء المعمورة ؛ وجل أعضائه مثال حسن لنضوج الفكر والقيام بالبحوث الفريدة ، أذكر منهم على سبيل المثال من الأعضاء الراحلين علامة الشام الشيخ طاهر الجزائرى مؤسس خزانة الكتب الخالدية فى القدس ، وأحمد تيمور باشا العالم اللغوى الشهير وصاحب التصانيف والتواليف المشهورة ، والدكتور يعقوب صروف منشىء المقتطف ، والأستاذ جبر ضومط اللغوى الشهير ، والأستاذ هارتمان بمدرسة اللغات الشرقية بروسيا ، والأب لويس شيخو ، والعلامة الأستاذ جولد صهير مدرس التفسير والحديث والأصول والفقه بجامعة بودابست ، والذى قال فيه العلامة أحمد زكى باشا عند ما زاره فى جامعته : « لم أعجب فى حياتى قدر ما وجدت اسرائيلياً يدرس كتاب المسلمين لجماعة من المسيحيين » ، والسيد لطفى المنفلوطى ، واحمد كمال باشا العالم الأثرى المعروف ، و الشيخ مسعود الكواكبى ، والشيخ عبد الله البستانى ، وغيرهم كثيرون .

ويرأس المجمع اليوم الأستاذ العلامة محمد كرد على وزير المعارف السورية السابق وصاحب خطط الشام . ومن أعضائه البارزين : الأستاذ الفاضل شفيق الجبرى بك رئيس ديوان المعارف السورية وصاحب البحوث الشائقة عن الجاحظ . والشيخ عبد القادر المغربى العالم البحاثة الشهير ، والأستاذ الشيخ عبد القادر المبارك نجل العلامة الكبير المرحوم الشيخ محمد المبارك ، والسيد معروف الأرناؤوط صاحب « سيد قريش » ، والأمير مصطفى الشهابى ،



لوحة مصورة تمثل الفن الفارسي في القرن السابع عشر من الميلاد
وهي إحدى تحف متحف المجمع العلمي العربي بدمشق

والأستاذ أمين الريحانى، والفيكونت فيليب دى طرزى، والشيخ مصطفى الغلاييني، والعلامة أحمد زكى باشا، والسيد حسن حسنى عبد الوهاب حاكم المهدية بتونس، والأستاذ الشيخ السكندرى، والأمير شكيب أرسلان، والأستاذ العلامة الشيخ سليم البخارى كبير العلماء بالشام، والأستاذ إلياس بك القدسى المتضلع فى اللغة اليونانية القديمة، والسيد عبد الله رعد الأخصائى فى اللغة الحبشية وآدابها، والأب انستاس مارى الكرملى، والسيد اسعاف النشاشيبى، وأمير الشعراء شوقى بك، والسادة الأساتذة: جميل صدقى الزهاوى، ومعروف الرصافى، وأحمد حسن الزيات، والدكتور أحمد عيسى بك، وأحمد بك لطفى السيد. وخير الدين الزركلى، ومصطفى صادق الرافعى . . . الخ.

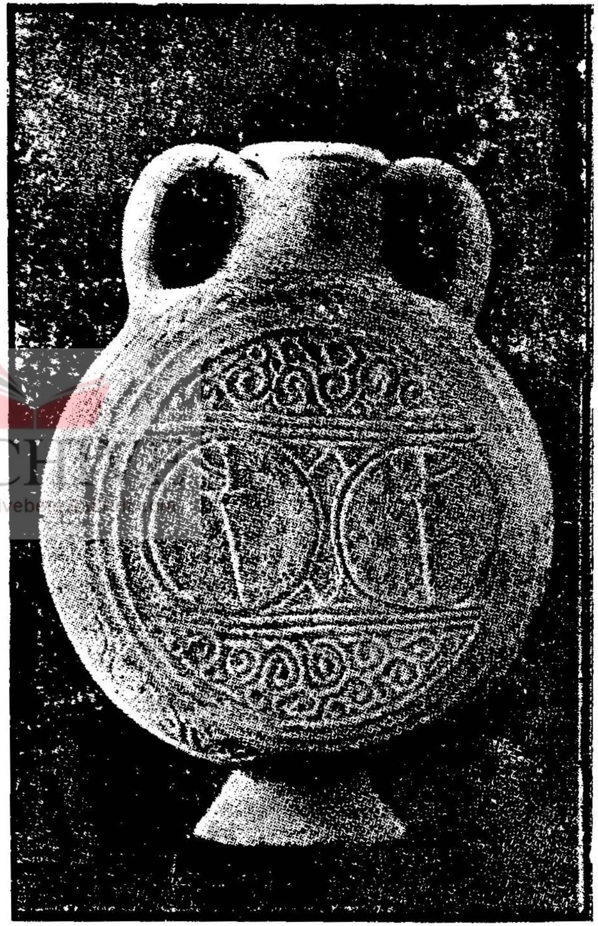
ومن الأعضاء المستشرقين: الأستاذ كليمان هوار من أعضاء الجمعية الأسيوية بباريس، والأستاذ دوسو الأثرى بمتحف اللوفر، والأستاذ جبرييل فران الوزير المفوض وناشر كتاب الملاح البصرى، والأستاذ ماسينيون الأستاذ بمعهد الدراسات الاسلامية العليا، والسينيور جويدى أستاذ الأدب العربى بالجامعة المصرية سابقاً، والبرنس كايتانى صاحب تاريخ الاسلام، والسينيور نالينو أستاذ الأدب العربى بجامعة روما، والأستاذ جريفينى منظم دار الكتب بسراى عابدين العامرة، والأب آسين مدرس العربية بجامعة مجريط باسبانيا، والأستاذ لويس مدرس العربية بجامعة لشبونة، والأستاذ مرجليوث المستشرق الانجليزى المعروف، والعلامة سنوك هيجرونيه، وغيرهم كثيرون مثل الأساتذة: سخاو، وبروكلمان، وهارتمان، وموبرج، وأوستروب، وموجيك، وجير، وكوفالسكى، وهيس ومارسيه... الخ.

* * *

ويعتمد المجمع العلمى فى دخله على المخصصات التى تقدمها الحكومة السورية إليه سنوياً، وهو مستقل فى إدارته، ولا علاقة له بها إلا فى التصديق على بعض قراراته؛ ويبذل اليوم أقصى جهده فى وضع معلمة «دائرة معارف» عربية؛ وكما كان له الفخر فى تأسيس الجامعة السورية المكونة اليوم من كليات للطب والحقوق والآداب، فهو يجتهد اليوم فى إنشاء كليتين، إحداهما للدراسات الاسلامية العليا والأخرى للإلهيات؛ ولا يفوتنا أن ننوه بالمجهود الكبير الذى بذله فى يونية سنة ١٩٢٨ فى إقامة معرض للصناعات الشرقية كان موضع إعجاب زواره.

* * *

هذه لمحة سريعة ألممت فيها بالشىء الكثير عن إنشاء المجمع العلمى العربى بدمشق وتبيان أغراضه ومقاصده النبيلة، وذلك بمناسبة شروع الحكومة المصرية فى تأسيس مجمع علمى مصرى؛ وإذا كانت الشام قد سبقتنا إلى إنشاء مثل هذا المجمع العظيم منذ أربعة عشر عاماً أو تزيد، فلا غرابة فى ذلك، فقد افتتحها العرب قبل أن يغزوا مصر، ودوِّن بها أول تاريخ



جرة من الفخار — الفن الاسلامى للقرن الرابع عشر — وهى إحدى تحف متحف المجمع العلمى العربى بدمشق



مصباح زجاجى مطعم بالميناء الزرقاء — وهو من تحف متحف المجمع العربى بدمشق

معروف في الاسلام، وأنشئت فيها أول دار من دور الكتب العربية في العالم؛ فعاصمة الأمويين دائماً في مقدمة العواصم الاسلامية ثقافة وإنتاجاً .

ويجب أن نخص بالثناء الكامل علامة الشام وزعيم النهضة الأدبية فيها الأستاذ « كردعلي » ، فقد كان له الفضل في تزويدنا بهذه المعلومات وتمهيد الزيارة للمجمع وتعريفنا إلى أعضائه .

كما لا ننسى أن نذكر لقراء « المعرفة » هذا الثناء الجم الذي تعهد به « المعرفة » ، والذي دل على صدق طويته ، ونقاء نفسه ، وسداد نظراته ، فكثيراً ما تحدث عن « المعرفة » بأنها اللسان الطلق الذرب ، الذي استطاع أن يؤدي رسالة الثقافة الاسلامية أداءً موفقاً ، وأن يترجم لهذه النهضات المنبثة في أطراف الشرق الشاسعة ترجمة صادقة الأداء (١) .

وخير ما نختتم به بحثنا أن نقتطف من أحد تقاريره هذه الكلمات :

« صفقت المجامع والجامعات والمستعربون من علماء المشرقيات في أوربا وأميركا لتأسيس المجمع العلمي العربي في عاصمة الأمويين ، لما وقر في النفوس من تأثير العرب في رقي العقل البشري ، ولأن هذه المدينة كانت أولى العواصم في نشر مدنية العرب والاسلام ، فجدير بها أن تضم إلى ثمالة المجد الغابر شيئاً من الجهد في العصر الحاضر ، وأن تربط السلسلة المبتورة والصلة المنحلة ، فتعود إلى سالف أيامها مباءة علم ، ومثابة أدب ، على نحو ما كانت في ايام عز العرب ، وزادوا استحساناً يوم أيقنوا أن كابوس الرءوس المفكرة لَمَّا رفع عنها نفضت عنها في الحال غبار الخمول ، ومزقت حجاب الجهل المركب ؛ فعملت باجتماع القوى الضائعة وقلة المادة عملا يذكر في وقت قصير ، وبرهنت لقومها ولغيرهم أن الفوضى في العلم — والعلم ربيب النظام والسلام — لا تقوم بها مدنية ، ولا يستعاد بها مجد ، ولا تسعد أمة ؛ فالمجمع العلمي والحالة هذه ، أثبت — على ضؤولته وحداثته بالنسبة للمجامع التي أنشئت ونمت منذ قرون في بلاد الحضارة — أن الشرقي الذي يوصم أبداً بخور العزيمة وضعف الإرادة في أعماله ، يتيسر له بقليل من التضامن ، أن يكون مثال الاجتماع ، وأن في زوايا هذه البلاد بقايا من أهل العلم والأدب هم بصر بماضي أمتهم وحاضرها ومستقبلها ، أخذوا يعلمونها معنى الاجتماع والتعاون ، وكانت من قبل اتكالية في كل شيء ، أعمال أبنائها فردية مشتتة ، إذا ذهب الفرد انحل العمل . وأنها أصبحت أهلا للاستقلال العلمي الاجتماعي ، تعمل مجتمعة كما تعمل منفردة ، لا سيما وقد صح عندها — بفضل اطلاعها على حاضر الغرب ووقوفها على ماضي الشرق — أن قوة الفرد تتضاءل أمام قوة المجموع ويد الله مع الجماعة » .

محمد أمين حسونة

(١) « المعرفة » في هذه المعلومات الشائقة التي ضمها هذا المقال ، ما يدعونا الى شكر كاتبه الاديب محمد أمين حسونة . وما يدعونا الى الثناء أوفر الثناء على علامة الشام الكبير الاستاذ محمد كرد علي . وليس من شك في أن جهود الاستاذ كردعلي ستكون في طليعة المشاعل التي تستنير بها وزارة المعارف المصرية فيما تأخذ نفسها بدمن انشاء المجمع العلمي المصري . . . أما ثناء الاستاذ الجليل على « المعرفة » وتزكيته اياها ، فان « المعرفة » تغتبط به اغتباطاً جماً ، لا لما فيه من تشجيع كريم فحسب ، وانما تغتبط « المعرفة » به لانه تزكية رجل في الطليعة بين العلماء ، وفي الطليعة ممن مارسوا الصحافة وأحذقوا منها الجانب العلمي الممتاز .

قصة مصرية

أغنيـــــــة الفنان

بقلم الاديب محمد السيد محمد المويلحى

في هدوء كهدوء الموت ، تحركت ستائر الليل السوداء ، وأخذت تحيك من خيوطها نقاباً لتحجب به وجه الطبيعة المشرق !... رفع إلى السماء عينيه في أناة وبطء ، فاذا نجومها المنثورة ترتعد حيال القمر الباهت ، فذكر في هذه اللحظة الفراق بآلامه ، واللقاء بهناءته ، ولم يجابه خوالج نفسه طويلا ، وإنما ضحك في شيء من الجنون وقال : « ألا فليذهب مع الشيطان هذا الوحي الخبيث الذي يسلمني إلى الوحدة المرة » ، ثم بسط يديه في الهواء قائلا: « لتكن مشيئتك يا إلهي » ؛ ومن ثم ... مضى إلى أمه وأبيه وأخوته فتلقوه في كثير من العطف والحنان، لأنهم أدركوا ما في نفسه من أوصاب دفعتها إليه تلك الأوامر التي حتمت عليه أن يغادر أهله إلى مستقره الجديد بالريف ، ولقد أدرك من جانبه مقدار ما يؤثر به فراقه في تلك الأسرة الوادعة العزيزة عليه ، فتظاهر بالمرح وهو يقول مخاطباً أهله : « لست أدري ما يحزنكم ، فإن القرية التي قدر على أن أنتقل إليها طيبة الهواء ، وإن في أهلها نزوعاً إلى الصفاء والوفاء ، فلا تحزنوا ، فإني ذاكركم في كل نفس يتردد به صدري .. ! » على أن هذه الكلمات المشجعة لم تذهب من لوعة أمه الكامنة ، وفزع والده المروع ، ولم تكفكف من هذه الدموع التي جرت على وجوه أخوته كالسيل ؛ ولكنه أخذ يسمرهم ويتندر معهم حتى أسلموا أحزانهم إلى الفناء ، وحتى افترت ثغورهم المغلقة عن ضحكات مذبوحة ... ! ! وبقيت الأسرة طيلة الليل دون أن يغلق لواحد من أفرادها جفن ، حتى إذا ما احتمل الليل رداءه فراراً من كتيبة الضوء الذي أطلقته الشمس شعاعاً ذهبياً براقاً ، كانت الأسرة في طريقها إلى « محطة مصر » لتودع فتاها الذاهب إلى « شبين الكوم » ، ويالها من دقائق، تلك التي خذل خلالها الجلد لتنتصر الدموع ، فها هو القطار يتحرك ، وتلك هي أنات الأسرة تشيع آذان فتاها بالطنين الصارخ ؛ ولكن حركة القطار العنيفة قد طغت على هذا الموقف الفاجع ، فاذا الأم والوالد والأخوات وقوف على الأفريز ، وإذا فتانا يتطلع إليهم فلا يرى إلا بيوت القاهرة تفلت من نظراته الحائرة ، لأن القطار أطلق عجلاته ليسابق الريح .... ! !

ومضى القطار في سبيله يطوى الأرض ، وينساب كالقذيفة ، حتى أتى « شبين الكوم »

فأفلت فتانا من قيده ، وأخذ طريقه على غير هدى يذرع بقدميه شوارع المدينة ، ولم تكن « شبين الكوم » منتهى الشأو فى رحلته ، وإنما كانت نهايتها فى « مليج » ، فمضى إليها فى حافلة حتى أدركها مع الليل . . . . . !

* * *

ورأى محمد أن يستهل صنائعه فى « مليج » بالذهاب إلى منزل « العمدة » حتى يتعرفه إليه ، ويظهره على أنه المدرس الجديد الذى هيأت له الأقدار مستقراً فى هذه القرية ؛ وكان العمدة على شىء غير قليل من الأدب الجم والظرف الرائع ، فأقبل على محمد يمعن فى إكرامه ، ويزيد فى وشائج الترحيب به ، ثم أخبره بعدئذ أنه هيأ له منزلا لسكناه ، وأنه يجدر به أن يصطحبه إليه حتى يسلم إلى حجراته حقائبه .

* * *

وإنها لدار أنيقة رشيقة ، تلك هى الدار التى استأجرها عمدة « مليج » لضيف قريته الجديد ، فما كاد « محمد » يستوعبها حتى حببت إليه مشاهدها المقام ، وحتى قال للعمدة فى شىء من الخجل : « إننى أشكرك ، وخير لى أن أستريح ...! » فتركه العمدة راجياً له ليلة سعيدة . !

ولكن ... هل أسلم محمد جفنيه إلى النوم ؟ لا . وإنما اقتعد مقعداً من اتيل فى (الفيراندا) المطلة على « البركة » الصغيرة ، وأخذ يتمعن القمر وهو يسكب الضوء الساحر على هذا الماء الراكد ، وأخذت عاطفة الفن الموزعة فى نفسه تدعو يديه إلى اقتناص « العود » الجاثم فى مستقره ... وكان محمد لامع الصوت ، ساحر النبرات ؛ وكان كل ما حواليه من مظاهر حياته الجديدة باعثاً له على الغناء ...!

وتكشفت أستار الليل لتدفع هذا الصوت الساحر إلى آذان السابلة الذين يدبون فى القرية ، فاجتمعت منهم تحت النافذة حشود ما كان أهنأها بهذا الطرب ، وما كان أسعدها بهذا الوافد الجديد .

وعرفت القرية محمداً من هذه الليلة بأنه صداحها الفرد ، وبلبلها الأوحد ؛ وعرف محمد فى هذه القرية أنها جماع ما فى الطبيعة من سحر ، وما فيها من فتنة ؛ فكانت له جلسات هائنة إلى شاطىء البحيرة الصغيرة ، وطالما غنى على هذا الشاطىء ، وكثيراً ما جمع إليه الرفاق ، ويا طالما هز أعطافهم ؛ وغمر قلوبهم سعادة وبشراً ...

***

ولم يفلت عن طوق صاحبنا الحسان ، وإنما كانت فتيات القرية وعجائزها يختلسن الساعة التى يغنيها ليتدافعن إليه ، ويعلن الاعجاب به إعلاناً .. ولكنه كان فى غير حاجة إلى مبادلتهن النظرة المغرية ، والبسمة الجريئة ... كان فى غير حاجة إلى ذلك ، لأن قلبه الخلى قد دفع إلى صميمه صورة المعبودة الواحدة ..!!

لمن هذه الصورة ؟

إنها صورة فتاة لقيها تمد أذنيها على الشاطىء لتسكب فيهما سحر صوته...ويا شد ما أبطلت سحره حين ألقى على وجهها المشرق نظراته الحائرة ، وحين مد إلى قلبها وشيجة من قلبه ، وحين رفع بفم الريح إلى جبينها قبلته الطويلة ...

لقد جن بها وكفى ...

ولكنه ماذا يفعل حتى يؤوب بهذا الصيد إلى وكره ؟ إن الحياة الغرامية فى الريف لا تخلق شيئاً غير العار والضغينة ، وهذا هو الفنان الغريد يتمثل فتاته بعيدة عن أنفاسه ، فلا يحتمل الصبر ، ولا يطيق التعلل .

وكانت تفد إلى داره فى الصباح عجوز تصلح أمر مسكنه ، وتقدم إليه فطوره من « اللبن » ؛ فلم لا يسأل هذه العجوز عن فتاته ؟

وفى صوت كله قلق وكله حيرة ، قال محمد يخاطب العجوز : « هل تعرفين الفتاة التى تسكن بجوارنا ؟ » ، فأجابته : « أتعنى توحيدة ؟ » ، فقال : « هل هذا هو اسمها ؟ » ، فأجابته : « نعم ، ولم تسأل عنها ؟ » ، فلم يجبها بشىء ، وإنما أجابها بتوجيه الحديث اتجاهاً لا شأن له بالفتاة ...

على أن العجوز الشمطاء قد أدركت الحقيقة الصريحة، فمضت إلى «توحيدة» تسر إليها أن معبود القرية تفضل عليها بالسؤال، ثم ترقبت الفرصة السانحة لتلقى على فريستها شباك الكيد...

***

ما أسعد هذا الصباح! فها هو ذا باب الحجرة التى يرقد فيها «محمد» قد أخرجت منه أنامل «توحيدة» دقات كان من سحرها أنغام تطرب الشجى؛ وها هو «محمد» يفتح الباب ليسمع الصوت الطروب الذى يطلقه الثغر المحبوب ... وكان ثمة حوار :

— حضرتك سألت عنى ؟

— سألت عنك ؟ !!! أيوه سألت .

— فيه خدمة ؟

— العفو ! مين يهون عليه إنه يخدمك ؟ إنت يا توحيدة أقول لك الحق ...

— إيه بس قول !

— آه .. أقول إيه ، أقول إنك يا توحيدة السعادة اللى ببحث عنها ؟ الأمل اللى عمال أدور عليه ؟

— ......

— ما بترديش يا توحيدة !!؟

— أرد أقول إيه ؟ أنا خجلانة ، أنا برده زيك .

— زيى ! ومين اللى يمنع عنا السعادة اللى بنطلبها سوى ؟ !

وفى حومة الحوار ، تفتح الباب عن شبح العجوز الشائك وهى تقول :

— الله الله يا ست توحيدة ! دا بدرى عليك الخسارة دى ! إنت يا اختى طالعة لمين ؟

وأراد محمد أن يتدارك الموقف ، وأن يقرر للعجوز حقيقته التى لا دثار عليها ، وأن يظهرها على ما فيه من طهر ؛ ولكن العجوز قد ركبت رأسها الأخرق، فمضت إلى أم توحيدة تقدم إليها فتاتها مجرمة عابثة مستهترة ، وتهامست القرية بهذا الحادث ؛ ولكن محمداً رأى أن يقتلع جذور القول الفاحش ، فمضى إلى « العمدة » يسأله العون على خطبة توحيدة من أبيها ، ولم يجد فى طريق أمنيته عقبات ، فتمت الخطبة ، وصمت القوالون المغرضون وهم يحترقون فى دخائلهم احتراقاً .

***

وكأنما شاءت الغبطة أن تفارق هذه النفس — نفس محمد — ؛ فبينما كان يهيء لفتاته من أحلامه وأمانيه دعامة يشيدان عليها صرح مستقبل سعيد هانىء ، إذا به يفجع بفجيعة كبرى حين تسلم أمر النقل إلى القاهرة ؛ وكم كان يرجو — قبل أن يتعرف إلى « ملميج » — أن لا يغادر المدينة الكبرى حيث أهله وقومه ، ولكنه — وقد عرف فى هذه القرية توحيدة ، وأصبح قرانه بها على مسافة القذيفة — قد كره القاهرة ، وهمه العود إليها .

وها هو فى المدينة يستقبل كل يوم رسائل صحبه فى « ملميج » ، ويستقبل معها كتب توحيدة ، وفيها ما فيها من وجد وغرام ، فلا تزيده تلك الكتب إلا إمعاناً فى الحب حتى يبلغ من أطاعه ما يريد .

ولكن ! أية وظيفة تلك التى تقف بينه وبين حرية السفر إلى « ملميج » ليطمئن على فتاته ؟ لم لا يطلق الوظيفة ويطلق لنفسه العنان ، فيتم ما بدأه من دراسة الموسيقى ليكون بعدئذ فناناً حقاً ؟

لقد استقال محمد إذن من وظيفته ليستقبل حياته الجديدة . ولكن أية نكبة كبرى تلك النكبة التى هيأتها له الأقدار ، والتى اكتوى بنارها اللافحة حين طلعت عليه هذه الرسالة التى وفدت عليه من « ملميج » ، والتى كان كل ما فيها أن « توحيدة » قد خطبت إلى ع .. باشا أحد السراة البارزين فى « شبين الكوم » .

ليس فى مقدور أحد أن يصور هذه الفادحة ، ولا أن يسجل تلك الكارثة الكبرى ؛ ولكن الهزال الذى أصاب محمداً فأقعده يستطيع وحده أن يصور كل شىء .

وكم ارتاعت أسرة محمد لهذه الظواهر الجديدة التي انتهت إليه ، فقد كان دائم الذهول يتعشق العزلة ، ولا يطيق إلا صحبة « العود » ، وما زالت أمه به حتى أظهرها على أمره ، وما زالت تخلق له أسباب الجلد والسلوى ، ولكنها كانت لا تخلق فى صدره إلا آلاماً وأوجاعاً .

على أن النكبة التى اكتنزها له الزمن كانت أروع وأفجع ، فقد وفد على منزله أحد أصدقائه السراة الذين تعرفوا إليه فى « شبين الكوم » وأخذ يقص عليه :

— بقى يا محمد انت تعرف صديقى ع . . باشا . — أعرفه قوى .

— المسألة إنه رايح يجوز الليلة الجية ، وانا عاوز أفاجئه مفاجأة تخليه فى غاية السرور ، وانت أصبحت لك صيتك فى الطرب ، ولك مكانتك فى شبين ، فأنا أرجوك ما تكسفنيش وتيجى تحي لنا الليلة دى . . إيه رأيك بقى ؟ — بكل سرور . .

شهد السرادق الفخم الذى يمتد أمام سراى « ع باشا » فى شبين الكوم ما لم يشهده سرادق غيره من هذه السرادقات التى تحتشد بالوافدين عليها فى ليالى الأفراح . . . فثمة آلاف من الناس الذين جمعهم هـذا السرادق من كل أطراف المدينة ومن أشتات القرى والدساكر ، وكانت « مليج » تكتظ بأجمعها فى هذا السرادق ، لأنها تقدم إلى العريس ـ الخشن الجاف ـ بنتها البكر .

وشهدت منصة الطرب ما لم تشهدها أشباهها فى كل العصور ، فها هو ذا محمد يطلع على الجماهير متوسطاً رجال تخته ليرسل السحر إلى أسماعهم ويدفع الطرب إلى دخائل نفوسهم ، بينما يتأرجح قلبه فى دقاته ، وتتابع عينه بالدمع الواطف صدى لياليه وآهاته .

ولقد صارع الموقف الصعب ما شاءت له قوة الجلد ، ولكنه بعد « الوصلة » الأولى خر مغشياً عليه ، وأولئك الذين شهدوا هذه الليلة من « مليج » قد أدركوا السر الدفين ، فمضوا إلى تلك الجثة ومعهم طبيب من المدعوين ليعيدوا إليها الحياة .

ولكنها كانت جثة هامدة . ؟

محمد السيد محمد المويلحى

أيها المشـــــترك !!

إن « المعرفة » تفخر كل الفخر ، وتتيه على غيرها ، بأنها مجلة المثقفين والعظماء ، وبأن مشتركيها من خاصة العلماء والأدباء فى جميع أنحاء الشرق العربى .

لذلك يهمها أن تحافظ على سمعتهم الأدبية من اتهامهم بعدم تقدير المشاق الصحفية ، وما نبذل فى سبيل « المعرفة » من مال وجهد .

فهل أديت واجبك نحوها ؟ وهل سددت اشتراكك ؟ تذكر قليلا ، وتفضل مشكوراً بتسديد ما عليك إن لم تكن سددته .

بين المتناظرين

في مقالة المعالي الافلاطونية *

ورد فى ص ٤٣٣ من سنة ١٩٣٢ « للمعرفة » ، « والناشىء المذكور هو أبو العباس عبد الله بن محمد الأنبارى شرشر، معتزلى من الطبقة الثامنة، توفى فى مصر عام ٣٤٦هـ ٩١٥م » ، ومصدره ـ كما فى الحاشية ـ كتاب الأستاذ مكس هرتن؛ ولكن رواية الوفيات لابن خلكان على هذه الصورة « وكانت وفاته بمصر سنة ثلاث وتسعين ومائتين ـ رحمه الله ـ (١) » ؛ وهذا هو الناشىء الأكبر ؛ فلعل الأستاذ مكس هرتن كان قد ظنه « الناشىء الأصغر » ، وهو أبو الحسن على بن عبد الله الشاعر المشهور الشيعى ، ولد سنة ٢٧١ ، وتوفى فى سنة ٣٦٦ ، وقيل سنة ٣٦٥ (٢) وذاك ابن شرشير لا شرشر ، كما نقلنا آنفاً ؛ قال شمس الدين أحمد ابن خلكان :

« شرشير : بكسر الشين الأولى والثانية المعجمتين وبينهما راء ساكنة ثم ياء مثناة من تحتها وبعدها راء ، وهو فى الأصل اسم طائر يصل إلى الديار المصرية فى البحر فى زمن الشتاء ، وهو أكبر من الحمامة بقليل ، وأظنه من طير الماء ، وهو كثير الوجود فى ساحل دمياط ، وأظنه يأتى من صحراء الترك وباسمه سمى الرجل ، والله أعلم (٣) » .

ثم إن سنة ٣٤٦ هـ توافق سنة ٩٥٧م لا سنة ٩١٥ م التى ذكرها صاحب المقالة ، وسنة ٩١٥ م توازى سنة ٣٠٣ هـ ، والفرق كبير يستوجب التنبيه والاصلاح .

وقال ابن خلكان عن ابن شرشير : « كان متبحراً فى عدة علوم من جملتها « علم المنطق » ، وكان ـ بقوة ـ فى علم الكلام قد نقض علل النحاة ، وأدخل على قواعد العروض شبهاً ، ومثلها بغير أمثلة الخليل ، وذلك بحذقه وقوة فطنته ؛ وله قصيدة فى فنون من العلم على رَوِىّ واحد ، تبلغ أربعة آلاف بيت . . . » ، فهو قد نقض علل النحو فى رواية ابن خلكان ، وتبقر فى علم المنطق ، ولم يذكر أنه نقض كتب المنطق ، كما جاء فى تلك الصفحة من المجلة ، ولكن إغفال ابن خلكان هذه الخصيصة لا يستلزم زوالها منه ، غير أنه يجب ذكر المصدر الأصلى الذى نقل عنه « مكس هرتن » ليطمئن القلب وتهدأ النفس .

« نجتمع وإياهم » خطأ

وجاء فى ص ٤٨٢ من كلام نقله الأستاذ الشهير محمد كرد على « الذين نجتمع وإياهم » ، وهذا التركيب خطأ لا يصح التغاضى عنه ، كما هو الشأن فى كثير من عبارات الكتاب ؛ لأن

---

* الجزء الرابع من « المعرفة » أغسطس سنة ١٩٣٢ .

(١) الوفيات « ١ : ٣٨٦ » طبعة ايران (٢) الوفيات « ١ : ٣٩٠ » (٣) تراجع « المعرفة » « ج ٢ : س ١٧٣ »

الفعل « اجتمع » من الأفعال الدالة على الاشتراك لا يكون معه مفعول معه إلا بعد صدوره من اثنين متقابلين أو أكثر ، وفاعله ههنا ذو وجهة واحدة ، وهم «نحن» فالصحيح « نجتمع نحن وهم » ، قال عبد الله بن الزبير يعنى مروان بن الحكم : « فتناصبت أنا وهو وقام الوليد (١) » ، ولم يقل وإياه ، لمخالفته للغتهم الكريمة ؛ وقد ذكرنا فى «المعرفة» (٢) أن هذا يجوز فيه وجهان آخران فتقول : « نجتمع معهم » ، و « نجتمع بهم »، وقال أحدهم:

إذا اجتمعتُ وليلى عند رجعتها فقد تعاتبُنى ليلى وأعتذر

فهذا لا يجوز له عدّ « ليلى » مفعولا معه للسبب المذكور ويبقى له الوجه القبيح الجائز، وهو « عطف الظاهر على الضمير المرفوع المتصل بلا فاصل » ، وهذا شىء يستلزم تتبع أساليب العرب ، ولذلك خفى على بعضهم .

« السمحة » لا « السمحاء »

وورد فى ص ٤٨٣ «الشريعة المحمدية السمحاء »،والصواب «السمحة»، فإن السمحاء لم ترد سماعاً ، ولا تجوز قياساً ؛ وبابها كباب « سهلة ، ونخمة ، وضخمة ، وشهمة ، وبرزة » ، وجاء فى الحديث الشريف: « ما بعثت بالرهبانية الشاقة، ولكن بالحنيفية السمحة السهلة » ، أو «أتيتكم بالشريعة السهلة السمحة » .

هذا ما لا بد لنا من الاشارة إليه ؛ والله الهادى .

[بغداد] مصطفى جواد

(١) شرح ابن أبى الحديد « ٤ : ٤٨٥ » (٢) يراجع «المعرفة» « س ١ ج ١٢ : ١٤٦٨ » .

هدية السنة الاولى

الرسالة العذراء

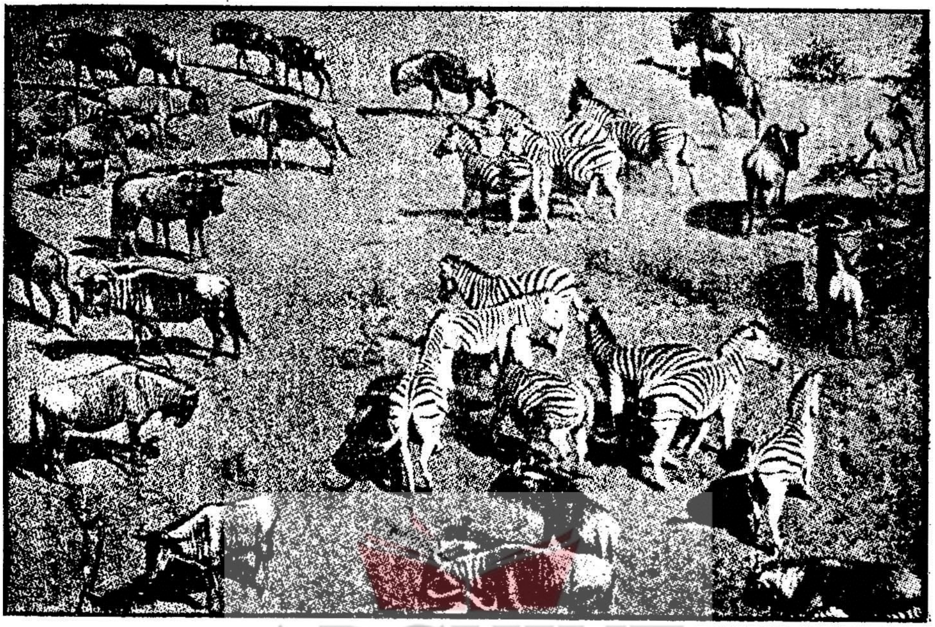
﴿ الرسالة العذراء ﴾ اسم لرسالة نفيسة ، تعد إحدى ذخائر الأدب العربى النفيس ، لابراهيم بن المدبر ، حوت من جليل البحث ، وطريف الفكر ، ورقة الأسلوب ، وسلاسة اللفظ ، ما جعلها ـ بحق ـ كنزاً من كنوز أدبائنا العرب المغاوير .

وقد صححها وشرحها باللغة العربية ، ووضع لها مقدمة مفصلة بالفرنسية ، تناول الكلام فيها على فن الانشاء ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث ، الأستاذ البحاثة والعالم الفاضل الدكتور زكى مبارك .

وقد بعثت إدارة « المعرفة » بهذه الهدية النفيسة إلى حضرات المشتركين (الذين سددوا قيمة اشتراك السنة الأولى) .

ورجاؤنا أن يتفضل حضرات الذين لم يسددوا قيمة اشتراك تلك السنة بتسديدها ، لنبعث بتلك الهدية إليهم .

العلوم والفنون



قطعان كبيرة من حمار الوحش والجاموس البرى تمرح مع بعضها ، ويخيل للرأى أنها فى الغابة، ولكنها فى الحقيقة فى إحدى حدائق الحيوان، حيث تتمتع الحيوانات المختلفة بحياة طليقة



الغذاء القومى الهام فى بلاد حضرموت

صائد يحمل صيده من السمك الكثير على عصاة غليظة يتدلى منها خيوط تحمل السمك. ويعتبر السمك أهم غذاء فى هذه الجهات



صيد الأسماك البحرية فى حضرموت (جنوب جزيرة العرب) ، حيث تشتهر هذه البلاد بالاتجار فى الأنواع المختلفة من الأسماك .

صائد يطعم ابله من نوع السمك الذي يشبه السردين لكثرته في هذه الجهات



تصوير حياة الغابة كما تقع تماماً بآلة السينما لإظهارها فى فلم متحرك ناطق .

معركة في الغابة استغرقت تسع دقائق : نمر يقتتل مع بيتون طوله نحو ٩ أمتار ويرى النمر وهو يحاول الخلاص من التفاف الثعبان الكبير حول جسمه



معركة غريبة قلما يشاهدها أحد بين بيتون وتمساح ، ويرى الأول ملتفاً حول فريسته التى قتلت بعد ذلك .

مملكة المرأة والبيت

الزوجية الهانئة

فى نظر زوجين

فى محاضرة قيمة لقتها – فى الغرفة العلمية – البحاثة الفضلى السيدة « نظلة الحكيم سعيد » على جمهور مثقف ، رأينا كيف تستطيع الزوجة أن تبسط من جانبها وجوه الآراء التى تخلع على الحياة الزوجية إهاباً من السعادة ، وثوباً من البشر .

وفى هذه الكلمة الطيبة التى عقب بها العالم البحاثة الأستاذ محمد مظهر سعيد ، على محاضرة زوجه الجليلة ، رأينا كيف يستطيع الزوج أن يبسط من جانبه أيضاً وجوه الآراء التى توفر على الحياة الزوجية روحاً كلها غبطة وخير وإمتاع .

وليس علينا فى هذا المقال أن نعرض لآراء الزوجين كل على حدة ، ولكنا سنسجل هذه الآراء التى جمعت بينها تلك الحياة السعيدة التى تعهدتهما فى كثير من الحبو ، وفى جم من الحب ، الذى نرجو لهما منه المزيد .

فهما يرتئيان أن « المهر » علة العلل ، وأنه العقدة العصيبة الحل ، وأن استغلاله فى مثل هذه المغالاة التى يستغل بها فى الوقت الحاضر قد مهد إلى أزمة الزواج ، وقد أتاح لهذه الأزمة أن تمتد وأن تكبر وأن تتعقد .

والواقع أن « المهر » فى صورته الحاضرة ليس إلا ستاراً يحجب وراءه آلافاً من أولئك الذين يريدون الزواج فلا يستطيعونه ، ثم هو – بعدئذ – ثورة كبرى على الخلق المتين ؛ لأن الشاب الذى يتقدم إلى من يريد مصاهرته ، وملء يديه شهادات علمية ممتازة ، تحقق تحقيقاً جازماً بأن له مستقبل الرجال البارزين ... هذا الشاب لا يستطيع أن يدرى موضع الحق فى إخفاقه فى تلك المصاهرة إلا إذا عاد إلى نفسه يتلمس معها مواضع المال من جيبه ، فإن لقيه فراغاً منه – وهذا ما يكون – أدرك السر المخبوء ، وطلع على الحقيقة المؤلمة ؛ ذلك أن المال وحده ما يزال له الأثر الهائل فى النجاح ، كأنما الفتاة سلعة ، يستطيع امتلاكها من يقدم لها أكبر ثمن فى سوق الرقيق !!

ولقد رأت السيدة الفضلى « نظلة الحكيم » أن تخلق نظرية جديدة تعوض بها أشياع « المهر » عند مزاولة هذا التشيع ، ورأى معها زوجها الفاضل ما فى هذه النظرية من خير ،

وما فيها من توفيق ، فأقدما على تجربتها أول الأمر فى نفسيهما حين اعتزما الزواج ، وفى أصدقائهما وذوى القربى إليهما ، بعد أن تزوجا ؛ وكانت النتيجة الحاسمة أن هذه النظرية لم تكن إلا لب الصواب والسداد .

أما هذه النظرية فإنها تتلخص فى أن يشترك الزوج مع زوجته - إذا تكافآ فى الحياة المالية - فى شراء أثاث البيت كلما توفر لهما جانب من النقود ، دون أن يثقلا على أنفسهما بشرائه مرة واحدة ؛ فإن لم تكن الزوجة مثل الزوج من وجهة المال ، فليس عليه إلا أن يقتصد من راتبه الشهرى ما يكافىء أجر بيته أو يزيد قليلا عنه، حتى إذا تم له جمع مبلغ يستطيع أن يشترى به جانباً من الأثاث ، كان من شأنه أن يتقدم إلى شرائه ، حتى يستطيع فى فترة من الزمن أن يؤلف بيتاً جديداً ، دون أن يشعر - من أعماقه - أن خسارته المادية كانت خسارة فادحة .

وليس من شك فى أن هذه النظرية لها حظها الوافر بين النظريات المعقولة، لأنها - فى حدود رأى الأستاذ مظهر سعيد - تمثل السهولة واليسر ، وتحقق للزوجين الفرار من غبن التاجر الذى يترقب أشباه هذه الفرص ليمعن فيها غبناً وإسرافاً .

* * *

وتشاء السيدة «نظلة الحكيم سعيد» أن تشرك الجماهير معها فى هذا النبل الخلقى الذى تتميز به ؛ فهى تدعو وتلحف فى الدعوة ألا يكون خاتم الزواج ، وألا تكون الجواهر التى تتحلى بها المرأة قائمة على تلك المغالاة المألوفة ؛ لأن التبذير - على أحب صوره - عمل شائن ، ولأن أحداث الدهر تدعو الرجل الحكيم، والمرأة العاقلة ، إلى المضى فى سبيل التوفير اتقاءً لأرزائه، ولأن هذه الجوهرات - وإن فهمها البعض على أنها مما يبعد الأرزاء الطارئة - لا يمكنها أن تحتفظ بثمنها الذى اشتريت به ، متى بيعت فى السوق ؛ وإذن فالخسارة أمر لا شك فيه ، وهكذا يجب على الزوجين ألا يغاليا فى انتقاء الجواهر ، وأن يتخيرا منها ما هو أنيق بسيط .

* * *

ثم ترى السيدة الفضلى أن يكون بيت الزوجية مقتصراً على الزوجين، وأن لا يشرك الزوج معه واحداً من أهله ، إلا أن تكون هناك ضرورة ملحة ؛ لأن الواقع المألوف يصور للوالد أن ابنه حين تزوج قد اغتيل بين يديه ، وأنه قد فقده إلى الأبد ؛ ولو أنه علم مقدار ما فى ظنه من أخطاء ، ولو أنه أدرك حقيقة موقفه ، لمهد لابنه ما مهده لنفسه يوم كان شاباً حافل الشباب.

* * *

وتعجب السيدة الفضلى من أولئكن اللواتى يمتلئن غيرة على أزواجهن وحنقاً منهن ، كلما رأين أنهم يتركون المنزل ويقيمون خارجه بضع ساعات؛ وترى لتعليل هذا الصنيع أنه قد

يأتى عن غير عمد من جانب الزوج ، فقد تكون له من الشواغل ما لا يجعل وقت فراغه محدوداً ، وقد يكون صحبة واحد من أصدقائه ، وما فى ذلك ما يدعو إلى الحنق عليه ، لأن الزوج ككل إنسان فى حاجة إلى التبديل والتسلية .

وإن الزوجة لتستطيع من جانبها أن تصيب شيئاً غير قليل من التسلية فى حجرة المطبخ ، وبين مجالس الصديقات ؛ على أن تكون هذه المجالس موفورة الحشمة ، وعلى أن تكون الآراء التى تمتزج بها جزيلة الفائدة .

ولقد استطاعت السيدة الفضلى أن تخرج لنا رأياً رائعاً ، يباعد هذا السأم الذى ينصب على الحياة الزوجية بين الحين والحين ؛ أما هذا الرأى ، فهو أن يختلف الزوجان معاً إلى دور التمثيل والسينما ، كلما واتت الفرصة ، وأزفت حركة النقد ، حتى يكون لهما من المناقشة ـ فيما شهداه من مختلف الروايات ـ ما يجدد من ألوان الحوار ، وما يباعد عنهما هذا الجدل الذى لا يتناول فى أكثر الأمر إلا أخطاءهما اليومية ، التى لا حصر لها ، متى أخذ كلاهما لسانه بالتعقيب على كل حادث .

***

وأعلنت السيدة الفضلى ـ فى صراحة وحزم ـ أنها لا تتقبل هذا الخطأ الفاضح الذى يهبط إليه كل بيت مصرى ليلة احتفائه بزفاف عروس ، وهو إحضار (العوالم) وما إليهن من ألوان المهرجات والمهرجين ؛ وقالت السيدة إنها اعتزمت من أمد بعيد ، أن لا تقدم إلى أمثالهن هذه النقود المعروفة (بالنقطة) ؛ حتى لقد امتنعت عن أدائها فى حفلة كان الزوج فيها من أولئك الذين تمت إليهم بصلة القرابة .

ولقد شاركها زوجها الأستاذ مظهر هذا الرأى ، وأعلن هو الآخر من جانبه أنه لم يؤد هذه (النقطة) فى الليلة التى احتفل فيها بقران أخيه ، لأنه يرى فيها مظهراً من مظاهر الحطة والعون على إحياء عادة فيها حافل الشر والوبال .

***

هذه الآراء التى أذعناها ، وآراء غيرها لم تذعها ، ألا ليتك تسمعت إليها لتعلم كيف يكون الزواج سعيداً ، وكيف يكون بيت الزوجية عشاً من جمال .

وإنها لآراء لو وجدت طريقها إلى الشيوع ، لحققت لمن يريد الزواج أسباب التغلب على صعوبة المهر وشقاء الحياة الزوجية ، التى ما زالت أنباؤها تؤلف لنا أفجع المآسى ، وتظهر خيالنا فى أسود الصور .

المرأة قديماً وحديثاً

بقلم المربية الفضلى الآنسة بهية محمد سعيد

تمهيد

إننى أعتقد اعتقاداً راسخاً، بل أومن إيماناً قوياً أن العلم الذى لا يثمر الصراحة لا خير فيه البتة ... لذا سأبدى رأيى فى موضوع المرأة، وسيكون هذا الرأى بعيداً عن اللف والدوران، حتى أصيب الهدف الذى أريده، وحتى أرضى ضميرى، وأفصح عما يجول فى صدور شوابنا من آمال وأمان يحبسها الخوف، ويخنقها الحياء.

كل من له إلمام بسيط بالتاريخ ـ وبخاصة التاريخ الاسلامى ـ يعرف أن الاسلام جعل للمرأة المكانة السامية، والمقام النبيل، والرأى الراجح، والمركز المحفوظ؛ وأنها كانت تُستشار فتشير بالخير والنجاح، وتُسأل فتجيب بالنافع الصالح.

هذا ما جاء به الدين الإسلامى ـ الذى هو ديننا ـ والذى يتأوله الرجعيون منا تأويلا سيئاً فيقلبون معناه ويؤولونه حسب ما يحلو لهم، ويوافق رغباتهم وميولهم، ويبرهنون ببراهين فاسدة عليلة، أن المرأة لم تخلق إلا لتحرق نفسها عند أقدام الرجل... يأمرها فتأتمر، وينهاها فتنتهى، ويسخرها فى كل شىء اعتقاداً منه أنها لا تتعب ولا تتذمر.

وهذه العقيدة التى نشرها الرجعيون تبدو جلية واضحة فى الطبقات الدنيا من الناس، حيث ترى الرجل الآمر الناهى ينزل على امرأته لكماً وضرباً بقسوة ـ قلما يجاريه فيها الحيوان ـ وهو مؤمن أن هذا من حقه؛ والويل كل الويل إن هى أبدت ألماً، أو أظهرت تأففاً، أو استغاثت بإنسان، فإن ضربه يشتد، وغضبه يتضاعف، إذ كيف تستغيث؟ أليس من حقه أن يضربها وتظل كالحجر صامتة؟!

أليست هذه منتهى القسوة والوحشية؟ ولكنه محق ومعذور، لأنه لا يؤمن بما قدمت، ولأنه يعتبر المرأة آلة صماء، وذلك راجع لجهله وجهلها.

أرجع الآن إلى موضوعى فأقول: نعم، إن الدين الإسلامى الذى نزل فى وقت كان العرب فيه القدوة السيئة لاسترقاق المرأة واستعبادها، أرغمهم ـ رغم صلفهم وجبروتهم ـ على أن يعترفوا بحقوق المرأة وحريتها، ويكفوا عن إيذائها والنيل منها؛ فكان أول دين قدس المرأة، وأبان عن مكانتها السامية، ونبلها الرفيع، وأثرها فى الأمة، كما أنه أعطاها الحق فى إبداء رأيها فى الزواج صريحاً قاطعاً حين يريدها الرجل وتريده؛ فلها أن ترفض، ولها أن تقبل دون إبداء الأسباب؛ فاضطر العرب إلى اتباع أوامره، وتنازلوا عن صلفهم وكبريائهم، وأباحوا للمرأة أن تتعلم

وتهذب ، فنبغ منهن الكثيرات ؛ ولا أكون مبالغة إذا قلت إنهن فُقْنَ كثيراً من الرجال، فمن أجملت : عائشة ، ونفيسة ، وسكينة ... الخ .

هذه حال المرأة منذ التاريخ الهجرى ! ! فقل لى بربك ما هى حالتها الان وفى القرن العشرين ؟ هل تفضلها ؟ أستغفر الله .. بل هل تعادلها ؟ كلا وايم الحق ... إنها لتنقصها بكثير ، وبكثير جداً ؛ والسبب فى كل هذا صلف الآباء وتعنتهم، فمن منا تجرؤ على أن تقاوم أمراً لوالدها ؟ ومن منا تستطيع أن ترفض زوجاً محبَّذاً من والدها ؟ ومن منا تستطيع أن تلفت نظر والدها إلى أنه أخطأ بتزويجها من شخص لا تريده ، بعد أن رجعت بعد شهر أو اثنين وقد تحطمت آمالها ، وتقوضت سعادتها ، وذبُل شبابها؟ ومن منا تستطيع أن تختار زوجها ؟ وما هى الوسائل التى تهيىء لها ذلك ؟ هل فى عقر دارها وهى مقيدة عن حولها ؟ بل من منا تستطيع أن ترشد والدها إذا اشتد وغالى فى المهر وأبى إلا أن يزوج ابنته كما زوج صديق له ابنته ، وكما زوج هو أختاً لها من قبل ؟ من منا تستطيع إرشاده إلى أن هذا خطأ ؟

والويل كل الويل لمن يُشْتَم منها أنها تريد التزوج من شخص ترتضيه؛ فإنها تُرمى بكل نقيصة وعار .

فتى يأتى ذلك الوقت الذى نتمتع فيه بحريتنا الشرعية ؟ نحن لا نريد إثماً ولا خروجاً على آبائنا ، وإنما نريد أن يحسوا بوجودنا وبإرادتنا ورغباتنا، حتى نوجد الأسرة المصرية المنظمة السعيدة ، ونقلل من قضايا الطلاق والمشاكل الزوجية ، ونبدل الجحيم نعيماً والنار نوراً .

فهل يأتى ذلك اليوم ؟ إنى متفائلة بالمستقبل ، وعسى الله أن يحقق رجاءنا ، إنه بالجنس اللطيف « لطيف » .

بهية محمد سعيد

فوائد منزلية

ديك رومى فى الفرن

الطريقة : يذبح الديك ويريش وينظف من الداخل والخارج ، ويشيط على لهيب الورق، ويعاد تنظيفه ، ويسلق على نار شديدة الحرارة مع البهارات ؛ وفى أثناء نضجه يوضع فى حلة أخرى كبدة مفرومة وبصل مخروط ومقدار من السمن ، ومتى تحمر البصل ، تضاف إليه الكبدة ويسقى بماء الطماطم مع قليل من مرق الديك والملح والفلفل ، ثم يضاف إلى ذلك خمسون درهماً من الأرز النقى المغسول ، ثم ينضج، ويضاف إليه صنوبر وفستق أخضر، وينزل الديك ويسوك بالملح داخلا وخارجاً. ويحشى بالحشو، ويوضع فى صينية ويلقى عليه قليل من السمن وعصير الطماطم، ويدخل الفرن حيث تكون الحرارة معتدلة ؛ وكذلك يعمل فى الحمل والدجاج والأوز وأنواع الطيور المحشوة .

ب. م. س

مكتبة المعرفة

صريع الغوانى

كتاب فى ٢٧٦ صحيفة — ألفه الأستاذ الحقوقى الدمشقى
محمد جميل سلطان ، ونشرته مكتبة عرفه فى دمشق

شهد كل شاعر وكل متأدب لصريع الغوانى « مسلم بن الوليد » بأنه الشاعر الفحل الذى هيأ له نتاجه صميم الخلود ، على أن الثقافة الحديثة لاترتضى من أبناء الجيل الجديد أن يكون حظهم من آثار الأسلاف هو هذا الحظ الأقل الضئيل الذى يحتم عليهم أن يقفوا من معرفة البارزين عند هذه الأوضاع التى وقف عندها الكتاب السالفون ، وإنما ترتضى هذه الثقافة أن يأخذ المتقدمون من المتأخرين قسطاً من العناية حتى يستطيعوا أن يرفعوا عن رءوسهم تلك الأعباء التى جمعتها إليهم الحقب من نسيان وموت أدبى مشين .

ولقد لقيت هذه الثقافة صدى صوتها الأجش عندما استجاب دعوتها بعض أدباء الشرق الممتازين الذين اقتحموا هذا التراث القديم — على مافى اقتحامه من جرأة — ليعيدوه إلينا بالغ الروعة موفور الكمال .

وهكذا تقدم الأدب العربى — بفضل أولئك البارزين — خطوات رحيبة نحو المثل الأعلى .

نقول ذلك لنمهد به القول الذى تحتشد عليه آيات الإعجاب والتهنئة للأستاذ الحقوقى الدمشقى النابه محمد جميل سلطان ، الذى استطاع أن يقدم لقراء العربية شاعرهم المجيد « مسلم ابن الوليد » تقديماً فيه طرافة ، وفيه تحقيق دقيق ؛ فقد جمع كتابه بين دفتيه دراسات حافلة مستفيضة عن « الصريع » الرجل ، والشاعر ، وعن عصره فى وجهتى الشعر والنثر ، وفى أسلوبه السياسى ، وفى منهجه المجونى ؛ وجمع إلى ذلك تحقيقاً رائعاً للحالة العامة التى كان عليها ذلك العصر ، ومقدار ما أثرت به فى الشاعر ، وما أثارته فى نفسه من فنون .

وقد تناول فى هذه الدراسة شخصية الشاعر ، وحقق مولده بما لم يسبقه إليه غيره من دقة ، وأذاع عن الصريع مذهبه السياسى وقيمته الأدبية والمادية فى قومه ، مضيفاً إلى هذا وذاك أسلوبه الخلقى وما ينطوى عليه من كرم فى النفس ، ورقة فى العاطفة ويقظة ، فى الواجدان ؛ ثم بسط جانباً من شعره فى أشتات الفنون – التى قال الشعر فيها بسطاً – يدل على حسن فهمه ، ودقة تقديره وسداد منطقه .

وما نشك فى أن الأدب العربى قد ضم إليه بهذا الكتاب النفيس ثروة كبرى .

مجلة الحديث

عددها الممتاز عن « ابن خلدون »

فى صديقنا الأديب الأستاذ سامى الكيالى ، همة الرجل القادر ، ودأب الرجل الكادح المكدود ؛ ولكنه لا يرى فى همته ودأبه ما يدعوه إلى توجيههما تلك الوجهة المادية التى يلجأ إليها من يريد الدنيا ، ومن لا تحفل نفسه بغير ما فيها من تراث ؛ وهذه مجلته الراقية « الحديث » تحدثك عن مبلغ كفاحه فى سبيل الأدب الرفيع ، وفى ذمة الثقافة المجدية .

وأولئك الذين يقارفون الصحافة ، ويعانون العمل الصحفى ،قد استطاعوا — فى كثير من السهولة — أن يدركوا مقدار ما يكنه وجدان الزميل « الكيالى » من عواطف ؛ لأنه لا ينتهى من التفكير فى إصدار عدد ممتاز من « الحديث » ليفسح فيه مجال القول للأدباء الذائعين تفنيداً لشخصية كبيرة ، حتى يبدأ التفكير فى إصدار عدد آخر ، على الرغم مما فى إصدار هذه الأعداد الممتازة من عناء .

ولقد أصدر فى الشهر الماضى عدداً خاصاً بالمؤرخ العالم الفيلسوف « ابن خلدون » ،فأذا بنا نرى « الحديث » قد انقلب إلى سرحة رحيبة تتآلف أفنانها من هذه الشخصيات الكبيرة التى جمعها بين دفتيه ، وإذا بنا نرى الأستاذ الكيالى وقد أصاب النجح فيما أراده من تخليد « ابن خلدون » وتكريم ذكراه ، فنحمد إلى الزميل عنايته الفائقة بالأدب ، ونشكر له بلسان الصحافة المصرية هذا الصنيع .

فى بلاد الأرز

يشعر السائحون فى لبنان — وخاصة إذا كانوا ممن ينطقون بالضاد — أنهم يتنقلون فى ربوعه بين إخوان لهم ، وبين بلدان لا تزيد عن بلدانهم إلا بما يفيض عليها من بهاء الطبيعة وصفاء الجو ، ونقائه .

ولقد عنى اللبنانيون بإذاعة محاسن بلادهم فى آفاق الأرض حتى يشوقوها إلى الناس ، واستطاعوا بهذه العناية أن يزيحوا خواطر الذين يحبون السياحة عن مشاهد سويسرا ومرائى السواحل الأوربية الفاتنة .

ومن طبيعة اللبنانيين العمل ، وهكذا رأيناهم يؤلفون شركات وطنية للسياحة ، وما نشك فى أن شركة « فرج الله إخوان » هى أوفر هذه الشركات نظاماً وأكثرها عناية براحة الجمهور الراقى الذى فطن إلى مزاياها ففضلها واطمأن إليها .

وقد أهدتنا هذه الشركة الراقية دليل المصايف ، وهو مصدر بكلمة ، رائعة دبجتها براعة الأستاذ الدكتور على ابراهيم باشا كبير الجراحين ووكيل الجامعة المصرية ، وفيها من الإشادة بمدن لبنان ومصايفها مايدلك على مقدار ما يجنيه السائح بين ربوعها من فوائد ، وقد حلى هذا الدليل بصور جميلة لبلدان الصيف فى الجبل . كما جمع بين دفتيه حديثاً شائعاً عن حالة لبنان فى التجارة والزراعة والمواصلات ، فنشكر لشركة « فرج الله إخوان » هديتها النفيسة وندعو لها بالنجاح

بين المعرفة وقرائها

معاجم الحيوان والنبات

(بنها . مصر) على أبو زيد — نعرف أن لكم خبرة بكتب المراجع والمصادر ؛ فهل لكم أن ترشدونا عن معجمين عربيين حديثين للحيوان والنبات ؟

(المعرفة) ليست لنا خبرة بمثل هذه المراجع التى تريدها ؛ وكل ما نعرفه فى هذا ، هو معجم الدكتور أحمد بك عيسى ، الذى وضعه فى النبات ؛ وقد شاهدناه مراراً يواصل الليل بالنهار فى سبيل إخراج معجم آخر أكبر حجماً وأوسع فائدة ؛ وهناك أيضاً معجم الحيوان للدكتور أمين باشا المعلوف تحت الطبع ، وسيظهر فى أول الشهر الجديد بمطبعة المقتطف.

أهم مجلة جغرافية

(مسقط . عمان) ابراهيم عطا الله - ما هى أهم المجلات الانجليزية التى تبحث فى الجغرافيا، وهل أستطيع الحصول عليها من مصر ؟

(المعرفة) المجلات الانجليزية الخاصة بهذا العلم كثيرة ، وأحسنها بل أصدقها « المجلة الجغرافية » The Geographical Journal » التى تصدرها الجمعية الجغرافية الانجليزية، ويمكن الحصول عليها من المكاتب الافرنجية بالقاهرة .

كرامة المرأة المتزوجة

(قطر . البحرين) عبد الجبار الحاجرى - قرأت فى إحدى الصحف الانجليزية ، أن المرأة تفقد كرامتها بمجرد الزواج ؛ فهل هذا صحيح ؟

(المعرفة) نعتقد أن فى الأصل الانجليزى كلمة تؤدى معنى غير المعنى الذى فهمتوه ؛ ولعلها فى الأصل كلمة (Personality) ومعناها « الشخصية » ؛ فإن كان الأمر كذلك - وهو ما نرجحه - فإنا نجيب بأن ذلك جائز حدوثه مع المرأة الجاهلة التى لا تفهم من كلمة « شخصية » غير الأنانية وحب الظهور وعدم طاعة الزوج . . . الخ ؛ أما المتعلمة فنستبعد عليها هذا الفهم الخاطىء ؛ لأنها تستطيع أن تحتفظ بشخصيتها تماماً ، إن لم تزدد بالحب المتبادل بين الزوجين ، اللذين يجب عليهما أن يفنى كل منهما شخصيته فى شخصية الآخر ؛ فتقوى شخصيتاهما معاً ، وتتوحد ميولهما وتتآلف نفسياتهما تآلفاً متيناً ، ينجب خير البنين والبنات ، ويجعل المنزل جنة الله فى الأرض ، وفردوس الهناءة والسلام .

أبونا آدم

(مكة المكرمة . الحجاز) حامد عبد الرحمن — هل صحيح أن أبانا آدم ليس أول المخلوقات البشرية ؟

(المعرفة) يضيق المجال هنا عن الرد على سؤالك ، وقد نعرض لهذه المسألة فى فرصة أخرى . والذى يحتمله المقام الآن ، هو أن جمهور العلماء الطبيعيين يعتقدون بأن آدم لم يكن إلا مخلوقاً من مخلوقات سبقته ، أى أن قبله أوادم أخر ، وبعبارة أصرح « أنه متسلسل من حيوانات سابقة » ، أو « تطور بعد حيوانات سبقته بآلاف عديدة من السنين » ، ولاحظ أن هذين الرأيين منقولان عن « هيجل الألمانى » ، فليس لنا فيهما نصيب .

على أنه إن صح أن كانت هناك أوادم قبل آدم ، فيكون « المعرى » أول مقرر لهذه النظرية ، ويكون له فضل الأسبقية على علماء الغرب ، يؤيد ذلك قوله :

وما « آدم » فى مذهب العقل بواحد ولكنه عند القياس أوادم

وعلى كل حال ـ فسواء أ كانت النظرية الأولى أم الثانية صحيحة ـ فإن علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم ، لنتبين منه الدليل الصادق .

لباس رأس المحرر

(تيجال . جاوة) السيد عبد الرشيد باعثمان الحضرمى — هل تسمحون يا « صاحب الفضيلة » ! ! بتعريفنا على صفحات « المعرفة » عن لباس الرأس الذى تلبسونه ؟ ونرجو العفو عن ذلك ، لأننا معشر المشتركين فى جاوة بحاجة إلى معرفة ذلك لمخاطبتكم بما يليق .

(المعرفة) نشكر للسيد الفاضل ولحضرات إخواننا فى جزائر الهند الصينية اهتمامهم بمعرفتنا ، ونجيبهم بأن لباس صاحب المجلة (الطربوش) ، وذلك بحكم تعليمه وتربيته المدنية ، نعنى بذلك أنه تخرج فى المعاهد المدنية الأمريكية والمصرية ، ولكنه شديد التعلق بالمباحث الفلسفية الدينية ، ولهذا تعتقدونه صاحب فضيلة ! ! وهو آسف جد الأسف ، لأنه لم ينل شرف هذا اللقب الكريم ، ولأنه ما يزال شاباً لما يبلغ الثامنة والعشرين من العمر .

البحوث الفلسفية

(اسكندرية . مصر) أمين على — فى مستهل حياة « المعرفة » كنتم تعنون عناية مشكورة بالكتابة فى المواضيع الفلسفية الدقيقة ، وقد قرأت لكم عدة مقالات منها ، كانت موضع إعجاب الكثيرين ، بل كانت فتحاً جديداً فى عالم البحوث العالية الدقيقة ، ولكنكم امتنعتم فجأة عنها ، مع أننا كنا نأمل أنكم بمرور الأيام ستزيدوننا إمتاعاً بمثل هذه البحوث التى نحن أحوج ما نكون إليها .

(المعرفة) نشكركم جزيل الشكر على ثقتكم بنا ، ونرجو أن تقرأوا جوابنا عن سؤالكم فى العدد الماضى ص ٦٣٧ ، حيث سئلنا نفس السؤال ، فذكرنا الموانع ، ووعدنا بالعودة إلى مثل تلك البحوث فى المستقبل .